



14.5.2021

بدر شاكر السياب

الأعمال الشعرية الكاملة

تقديم
أدونيس

تحقيق
علي محمود خضير

الجزء الأول

نبوءات

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



بدر شاكر السياب الأعمال الشعرية الكاملة

الجزء الأول

تحقيق
علي محمود خضير

تقديم
أدونيس

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING



بدر شاكر السياب
الأعمال الشعرية الكاملة

بدر شاكر السياب الأعمال الشعرية الكاملة

تحقيق: علي محمود خضير
تقديم: أدونيس

Complete Poet Works For Bader Shakir Al-Sayyab

By Bader Shakir Al-Sayyab

الطبعة الأولى: ديسمبر - كانون الأول، 2020 (2000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain&Takween2020

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تمزج الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصلية من هذا الكتاب ولا احترامك لحقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أي من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للراغبين أن تستمتع برغد جميع القراء بالكتب.



منشورات تكوين للنشر والتوزيع
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: +96598810440
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: +9647811005860
الموقع الإلكتروني:
www.takween.com
البريد الإلكتروني:
Publishing@takween.com



لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980
بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: +9647811005860 / +9647714440520
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978- 9922 - 634 - 82 - 1

الفهرس

11	أنشودة المطر، آفاق المعنى
21	ينبوع لا مرئي
37	أزهارٌ ذابلة (1947)
39	إشارة
40	ديوان شعر
43	يا هواي البكر
46	لو أراها
49	بعد اللقاء
53	نشيدُ اللقاء
61	لحنٌ جديد
63	حبٌ يموت
66	ما مات حبي
67	اسم «لباب»
69	زهرةٌ ذائبة
70	نهر العذارى
74	المحبوبة المدنسة
76	في يوم عابس
78	خواطرٌ حائرة
81	مریضة في الربیع
84	في أخريات الربيع
86	أمنیات

89	أقداح وأحلام
95	عاشق الوهم
97	اللقاء الشاحب
101	عينان
103	هل كان حباً
107	السائلة السوداء
110	حاطم الأغلال
114	أهواء...
127	أساطير (1950)
129	إشارة
131	أزهار وأساطير (1963)
133	إشارة
135	في السوق القديم
143	اللقاء الأخير
147	أساطير
152	اتبعيني
156	رثة تتمزق
160	سوف أمضي
162	هوى واحد
165	أهواء
172	لن نفترق
174	سراب
176	وداع
178	لا تزيد به لوعة
180	عبير
181	عينان زرقاوان
183	في ليالي الخريف

187	أغنيةٌ قديمة
191	ستار
194	سجين
197	ذكرى لقاء
200	ملال
202	نهاية
206	في القرية الظلماء
209	لقاء.. ولقاء
212	هل كانَ حُبّاً
214	الموعدُ الثالث
216	ديوان شعر
218	نهرُ العذارى
223	مُلَحَقٌ بقصائد مُستثناة من «أساطير»
225	يا ليالي
231	خطابٌ إلى يزيد
234	إلى حسناءِ القصر
241	أنشودة المَطَر (1960)
243	إشارة
244	غريبٌ على الخليج
250	مرحى غيلان
254	أغنيةٌ في شهر آب
260	غارسيا لوركا
262	تعتيم
264	المخبِر
269	عرسٌ في القرية
274	مرثية الآلهة
278	من رؤيا فوكاي

288	قافلة الضياع
295	يوم الطغاة الأخير
298	إلى جميلة بو حيرد
307	رسالة من مقبرة
311	في المغرب العربي
319	مرثية جيكور
324	تموز جيكور
328	جيكور والمدينة
333	العودة لجيكور
341	رؤيا في عام 1956
354	قارئ الدّم
358	ثعلب الموت
360	المبغى
364	النهر والموت
367	المسيح بعد الصّلب
372	مدينة السندباد
381	أنشودة المطر
388	سربروس في بابل
392	مدينة بلا مطر
398	بور سعيد
411	المومس العمياء
441	حفار القبور
456	الأسلحة والأطفال
483	المعبّد الغريق (1962)
485	إشارة
486	شباك وفيقة (1)
490	شباك وفيقة (2)

494	حدائقُ وفيقة
500	أمُّ البرُوم
505	أمام باب الله
510	الغيمةُ الغربية
513	دارُ جدِّي
518	حنينٌ في روما
522	الأمُّ والطفلة الضائعة
526	النبوءةُ الزائفة
529	مدينةُ السراب
531	نبوءةٌ ورؤيا
534	ذهبت
536	يا نهر
539	صباحُ البطِّ البريِّ
542	المعبدُ الغريق
551	أفياء جيكور
556	الشاعرُ الرجيم
560	لأتني غريب
562	ابن الشهيد
566	فرار عام 1953
569	جيكور شاب
573	احتراق
575	سهر
578	الوصية

ملاحظة

- تردُّ هوامش الكتاب على ثلاث صيغٍ تبعاً لمصدرها:

(ش): وتعني أن الهامش من وضع الشاعر.

(م): وتخص هوامش محقق الطبعة الجديدة.

(المحقق): وتخص هوامش وضعها محقق القصيدة وقتَ نشرها الأول.

أنشودة المطر، آفاق المعنى

- 1 -

كانت بيننا، بدر شاكر السَّيَّاب وأنا، صداقةً شعريَّةً متينة، قبل أن نلتقي في بيروت، بدعوة من مجلة «شعر». كنت قد أشرفتُ شخصيًّا، برغبةٍ منه، على نشر مجموعته «أنشودة المطر»، بعد أن قمتُ باختيار قصائدها، تلبيةً لرغبته أيضاً. وبعد رحيله الباكر الفاجع، طلب إليَّ الصَّدِيق الرَّاحِل الدكتور سهيل إدريس أن أهيءَ له مُختارات من شعره، ومقدِّمة لها، نشرها في «دار الآداب» تحيةً له، واحتفاءً بشعره.

- 2 -

التَّقِينَا، بدر شاكر السَّيَّاب وأنا، في مرحلةٍ تاريخيَّة، شديدة الالتباس، سياسيًّا وثقافيًّا. كلُّ كلام على الشعر، في مَعزِلٍ عن هذه الالتباسات، لن يكون إلَّا التباساً آخر.

ثقافيًّا، كانت هذه المرحلة تنهض، بخاصَّةٍ في جانبها الشَّعريِّ، على إعادة نظرٍ جذريَّة في النِّظام الموسيقيِّ القائم على الأوزان التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي. وكان ذلك يعني إعادة نظرٍ في عالمٍ غنيٍّ عريقٍ وراسخٍ من المفهومات والقيم الفنيَّة - الشعريَّة، وعياً وتَدوُّقاً، فهماً وتقويماً.

أما سياسياً، فكانت تنهض على دَعَاوى إيديولوجية في النهوض بالحياة العربية، وبنائها على أُسُسٍ «تقدُّمية».

غير أنَّ الممارسات الحيَّة والأقوال والكتابات التي كانت ترافقها، كانت تكشف لذوي البصيرة أنَّها تتضمن، في الفهم والرؤية، بذورَ الفشل في إمكان الوصول إلى بناء مجتمعاتٍ عربيَّة ديمقراطية مدنيَّة، تقوم على احترام حقوق الإنسان وحرَّياته، في مَعزِلٍ كاملٍ عن الانتماءات الدينيَّة، والعرقية. وهو ما كشفَ لهم أيضاً استحالة التقدُّم العربيِّ، بالمعنى الحقيقي للتقدُّم، ما دامت أُسُس الحياة والفكر والقيم والعلاقات في القرن السادس، لا تزال مُهيمنةً وقائدةً حتَّى اليوم.

شخصياً كانت الحياة العربيَّة بالنسبة إليَّ، وهذا ما يراه القارئ في كتاباتي كلّها، شعراً ونثراً، تبدو أنَّها كمثل كرةٍ تتدحرج في اتجاه الهاوية.

وهذا ما كنّا، السيّاب وأنا، نتناقشُ فيه - خصوصاً أنَّه عاش هو نفسه في العراق تجربة إيديولوجية مريرة. وكنا نشدّد في نقاشنا على غياب التأمُّل في تاريخية الثقافة العربية، وفي المُشكلات التي أخذت تواجهها منذ منتصف القرن العشرين المُنصرِم، وتحديداً منذ الانقلاب العراقيّ على النظام المَلَكِيّ. كان غياباً يُحوِّل هذه الثقافة إلى سلسلةٍ متقطّعةٍ مُنحصرةٍ في الأحداث المتقطّعة. وهو إلى ذلك، يُغيّب «أصول» الأحداث. يُغيّب الماضي - الجذر، وإذا غاب الماضي عن الرؤية والفهم، لا يعود الحاضر إلّا لحظةً عالقة في الفراغ. ومهما كان فهمُ اللحظة بارِعاً وذكيّاً، فإنّه يظلُّ جزئياً وعابراً.

هذا الغياب هو نفسه مُشكلةٌ ثقافيَّة، ذلك أنَّه كان يتواصل ويتَّسع، على

الرَّغْم من التَّغْيِيرَات «الشَّكْلِيَّة» الضَّخْمَة التي تَمَّت في السَّنَوَات الخمسين الأخيرة - على صعيد الأنظمة، والحروب العربية - العربية، وعلى صعيد العلاقات بين العرب والعالم.

كانت التَّغْيِيرَات جَدِيرَةً بأن تُخْرِجَ الفكر العربي، والشَّعر، على الأخص، من سياقِهما «الثَّابِت» الذي كاد «ثبوته» أن يتحوَّل إلى «سُبَات».

فبدلاً من أن تتحوَّل حركة الثقافة إلى حركة نَقْدِيَّة شاملةٍ وجذريَّة، لا للسياسات وحدها، وإنَّما كذلك للأُسُس التَّارِيخِيَّة والفكرِيَّة التي تنتمي إليها وتصدر عنها، استمرَّت وتستمرّ، على العكس، في سياقها التَّقْلِيدِيّ: تعالِج الظَّاهِر السِّياسِيّ المُباشِر، بغضبٍ على الآخر، ورضىً على الذات. أو تعالِجه بنوع من التسويغ تجد أسبابه في «التَّارِيخ» أو «المرحلة». أو تعالِجه بوصفه حَدَثاً خاصّاً يمكن التَّغْلُب عليه والإفادة منه، لاحقاً. هكذا كانت «قضايانا» السِّياسِيَّة - الثقافية تبدو كمثل صُورٍ لا تكاد تظهر على شاشة حاضرنّا، حتى تختفي ويأخذها النِّسيان. وتبدو الحركة الفكرية العربية، في هذا كلّه، عبر وسائل الإعلام - كأنَّها معملٌ هائلٌ لـ «دِفَاع» لا قيمة له، و«تسويغ» لا طائل وراءه،

و«استنساب» باطلٍ. وقد لعب معظمُ الشَّعراء ونقَّادِ الشَّعر، في هذه التَّغْيِيرَات، دوراً إيديولوجياً بائساً وعقيماً.

هناك ما هو أشدُّ خطورةً.

ففي هذه السَّنَوَات الخمسين الأخيرة، تحوَّلت العلاقة بين المُوَاطِن العربيّ والسُّلْطَة. فأصبحت مسألة «أمنيَّة» في المَقَام الأوَّل. خصوصاً أنَّ مشكلات المُوَاطِنين، في كثير من البلدان العربية، لم تُعَدُّ تُحَلُّ في إطار

القانون، بقدر ما أصبحت تُحلُّ في إطار الحزبية والانتماء. أُلغيت سلطة الدولة، وحلَّت محلَّها سلطة الحزب والنظام. وحلَّت الانتمائية الحزبية محلَّ المواطنة.

تبعاً لذلك، صارت الثقافة التي تؤسَّس لها السلطة، ثقافة

«أمن» في المقام الأول. صار الهاجس الأول للسلطة هو أن

«تحمي» نفسها حمايةً كاملة، وبمختلف الوسائل، من «عدوان»

المواطن. تقابلها عند المواطن «ثقافة الاحتماء» من عدوان

السلطة، سواءً بالصمت، أو الانعزال والبُعد عن السياسة، أو بالتفاق والتزلف، بشكلٍ أو آخر، قليلاً أو كثيراً.

- 3 -

ماذا نكتب في مثل هذه المرحلة؟ كيف نكتب؟ ما هذا الماضي الذي يقود حاضرتنا؟ كانت هذه الأسئلة تشغلنا، بدر شاكر السيَّاب وأنا فيما وراء تغير أشكال التعبير وظهور ما سَميناه، اصطلاحاً، «قصيدة النثر». إنها أسئلة ترتبط عضوياً بالكيونة والمصير، غير أنَّها بالنسبة إلى الشعراء العرب، في معظمهم، كانت مجرد أسئلة إيديولوجية، سياسية، سلطوية - كأنها كانت تُضْمِر القول: نُغيِّر السلطة ونُحلَّ محلَّها سلطة أخرى تُغيِّر كلَّ شيء.

هكذا تناقضنا وتصارعنا، وقتل بعضنا بعضاً - في جميع الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية. وهي معارك وصلت أحياناً إلى أن تكون نوعاً من المجازر والإبادات. وها هي لا تزال تتواصل، بشكلٍ أو آخر من المحيط إلى الخليج.

كنت أقول ولا أزال أقول إنَّ السَّلاطَةَ نَتِيجَةُ. تَغْيِيرُ السَّلاطَةِ مع حجب أسبابها، لا يغيّر الحياة ولا المجتمع ولا الثقافة. يغيّر سجنًا عتيقًا ويُحِلُّ محلّه سجنًا آخر جديدًا. تشهد على ذلك أحوالُ السَّلاطَةِ الغاشمة التي تغيّرت منذ خمسينيات القرن العشرين المُنصَرَم، وها هي أسبابها تزداد رسوخًا، وها هي المجتمعات العربية، تزداد تآكلًا وفقراء، جهلاً وتخلُّفًا.

بدر شاكر السَّيَّاب بين الشعراء العرب القلّة الذين كانوا يربطون بين الشعر والكيّونة - في حدّسه الأساس الذي تجلّى في قصائد كمثّل «أنشودة المطر» و«المسيح بعد الصّلب» و«النّهر والموت»، تمثيلاً لا حصراً - علماً أنّه أمضى جزءاً من حياته الشعريّة تحت وطأة المناسبة سياسياً وثقافياً.

مع ذلك، يظلّ شاعراً مؤسّساً.

بلى أزعّم أنّ في تراب السَّيَّاب، ذهباً فريداً مشعاً وخلّاقاً.

أزعم أيضاً أنّ الشعر العربيّ المؤسّس لم يدخل بعد في «عقل» المجتمع العربيّ، ولا في «ذوقه»، ولا في «ثقافته». لا يزال يسير بخطواتٍ من مَضَوٍّ ويفكر برؤوس من مَضَوٍّ، ويكرّر الكلام الذي تركّه من مَضَوٍّ، قليلاً أو كثيراً، بشكلٍ أو بآخر.

لكن من هؤلاء الذين «مَضَوّا»؟ إنَّهم أهلُ الفقه والشرع، لا أهلُ البحث والأسئلة. أهلُ الاتِّباع، لا أهلُ الإبداع.

أزعم أيضاً أنّ النّتايج الأوّل الذي يضع الإبداع العربيّ، متفرّداً، على منصّة الإبداع الكونيّ، جنباً إلى جنب مع الشعر العظيم الذي أنتجته شعوب العالم، - أزعم أنّ هذا النّتايج الخلّاق يجهله الآن، العربُ أنفسهم، عرب الأنظمة ومؤسساتها التّربويّة والثقافيّة. ويُحَيَّلُ إليّ أنّ هذا الشعر المُضَيء

يَخُونُهُ تَارِيخُ الْعَرَبِ السِّيَاسِيّ، فَهُوَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ مُسْتَوْدَعٍ
مَلِيٍّ بِأَشْيَاءَ لَيْسَتْ إِلَّا رُكَاةً.

مَنْ سَيَكُونُ، إِذَا، عَرَبُ هَذَا التَّارِيخِ، عَرَبُ الْغَدِ - الْمُسْتَقْبَلِ؟

- 4 -

بَدْر شَاكِر السِّيَابِ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ الْعَرَبِ الْقِلَّةِ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ مُشْكَلَةَ الشُّعْرِ
فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا تَكْمُنُ فِي الشُّعْرِ ذَاتِهِ، بَقْدَرٍ مَا تَكْمُنُ
فِي الثَّقَافَةِ. فَهِيَ، لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ، دِينِيَّةٌ وَإِيدِيُولُوجِيَّةٌ، ضَيْقٌ عَلَى الشُّعْرِ: إِنَّهَا
تَحْدُ بِالرَّقَابَةِ الْكَامِنَةِ فِيهَا عُضُوبًا، مِنْ انْدِفَاعَاتِهِ وَتَفْجُرَاتِهِ الْحَرَّةِ، وَتُقَلِّصُ
أَفَاقَهُ فِي أَنْفَاقٍ سِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ، فِكْرِيَّةٍ وَفَنِيَّةٍ.

هَكَذَا لَكِي نَفْهَمُ حَقًّا وَضَعَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيّ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ نَفْهَمُ النِّظَامَ
الَّذِي يَقُودُ الْمَجْتَمَعَ.

تَبَعًا لِأَفْلَاطُونِ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ النِّظَامَ الَّذِي يَعِيشُ الْإِنْسَانُ فِي ظِلِّهِ
يَحْدُدُ سِيكُولُوجِيَّتَهُ. خُصُوصًا فِي كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِمُعْتَقَدَاتِهِ وَعَادَاتِهِ وَفِيَمِهِ.
فَفِي الْكِتَابِ الثَّامِنِ مِنْ «الْجُمْهُورِيَّةِ»، يَقُولُ أَفْلَاطُونُ مَا خَلَّصْتُهُ أَنَّ
الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعِيشُ فِي نِظَامٍ دِيمُوقْرَاطِيٍّ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَقْلَ مُوَزَّعٌ عَلَى الْبَشَرِ
بِالتَّسَاوِي، وَإِنْ تَبَايَنُوا فِي اسْتِخْدَامِهِ، وَأَنَّ لِكُلِّ مُوَاطِنٍ الْحَقَّ فِي أَنْ يَفْكَرَ
بِحُرِّيَّةٍ وَيُعَبِّرَ عَنْ آرَائِهِ بِحُرِّيَّةٍ. وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الدِّيمُوقْرَاطِيَّ لَا يَقْبَلُ
الْتِمَيزَ بَيْنَ مُعْتَقَدٍ وَآخَرَ، أَوْ تَفْضِيلَ مُعْتَقَدٍ عَلَى آخَرَ. فَخَاصِيَّةُ الدِّيمُوقْرَاطِيَّةِ
تُمَثِّلُ فِي الْإِيزُونُومِيَا (isonomie): فِي التَّشَابُهِ وَالتَّمَاثُلِ، دُونَ مَفَاضِلَةٍ. لَا
مُطْلَقَاتٍ فِي الدِّيمُوقْرَاطِيَّةِ. الدِّيمُوقْرَاطِيَّ هُوَ إِنْسَانُ النَّسِيَّةِ.

في هذا الضوء يمكن القول إنَّ العربيّ ليس ديموقراطيّاً، ولا يمكن أن يكون ديموقراطيّاً إلّا إذا تغيّرت بنية النظام الفكريّ الذي يصدر عنه. فهي بنيةٌ تقسم البشر، على نحوٍ مُطلق إلى: «مؤمنٍ» من جهة، و«كافرٍ» من جهةٍ ثانية. هكذا يكون العربيّ، مبدئيّاً، طاغية في جبلته الفكرية ذاتها. وتكون الحقيقة على الأرض، أحادية: ثابتة الخصائص، لا حقيقة قبلها، ولا حقيقة بعدها.

كان بدر شاكر السياب يعي هذا الحصار الثقافيّ كما يتمثّل، على الأخصّ، في الإيديولوجيات، وفي صراعاتها وأوهامها. هكذا كان يُدركُ، بالتّجربة الحيّة، أنّ الشّاعر العربيّ ليس حرّاً في المناخ الدّينيّ الذي يرثه، وليس حرّاً في المناخ الإيديولوجيّ الذي يعيشه.

واعياً أنّ الشّعْر يتحرّك في الواقع بوجهيه، التّراثيّ والحداثيّ، مُقيّداً، على جميع الصّعد، شعوريّاً وفكريّاً وكتّابيّاً.

وما لا قيمة له، فنيّاً، هو الذي كان ولا يزال يمثّل بالنّسبة إلى المؤسّسة، في مختلف أنواعها، القيمة العليا. وما يمثّل إضافة إلى ذلك، سُلّم القِيَم ومَرَجِعُهَا.

وهكذا كان بدر شاكر السياب يُدرك بالتّجربة الحيّة أنّ المجتمع لا يتغيّر بتغيير السلطة القائمة فيه: لا يتغيّر إلّا بتغيير بنيته الاجتماعيّة والثقافيّة، وتغيير المؤسّسات التي تنهض عليها هذه البنية.

وقد ارتبطت قيمة الشّعْر في المجتمع العربيّ، بوظيفته: كانت قيمته الاستعماليّة هجاءً ومدحاً، تتغلّب في التحليل الأخير على قيمته الجماليّة - الفكرية.

لكن، ما القيمة في الشّعْر؟

نعرف جميعاً أنّ هذه القيمة لا وجودَ لها إلاّ عند من يعرفها، ومن يعرف كيف يُعطيها، ومن يعرف كيف يتقبلها.

وقبل كلّ شيء ليست كتابة الشعر حِرْفَةً أو مهنةً بين الحِرَف والمِهَن. وليس الشاعر صانعاً، بين أهل الصّناعة. ليس الشعرُ علماً بالمعنى الدّقيق للعلوم. إنّهُ حَدْسٌ خلاقٌ لا قانونٌ له من خارجه. قانونُهُ فيه - حتى في «فَوْضاه»، وفي خروجه على كلّ قانونٍ مسبقٍ.

ولئن كانت القيمة الصّنعِيّة - الحِرْفِيّة تُحدّد بالمقارنة مع ما يشبهها أو قياساً على نموذج أو مثال، ولئن كانت تتمثّل، إجمالاً، في فاعليّة الاستخدام أو الاستعمال، وفي الدّقة والمِثانة والديمومة، فإنّ القيمة في الشعر لا تُحدّد إلاّ جَماليّاً من ناحية الشكل أو طرق التعبير، وإلاّ كسفيّاً ومعرفيّاً، من ناحية النّظر والرّؤية. وتحديدًا، لا تُحدّد «بِكَمِّ» البَيْع - أو «كَمِّ» الجمهور - لأنّه آنذاك يدخل في عالم السلعة والاتّجار.

وماذا نُقوّم، إذا، في القصيدة؟

- 5 -

نُقوّم في القصيدة طاقاتها الكامنة، وصوَرها التي تُغيّر العلاقات بين الكلمات والأشياء. نُقوّم مُمكناتها ومُحتملاتها: ماذا ترى؟ ما دالاتها؟ ما آفاقها؟ وكيف؟

هكذا يمكن أن نقول مثلاً: هذه قصيدة عظيمة. ويعني ذلك أنّها تُلامس البَشَر جميعاً بطريقةٍ أو بأخرى، وأنّها كَوْنِيّة. فالقيمة حصيلةُ كيمياء مُرهفة بين عناصر جماليّة وثقافيّة، متنوّعة ومُتعدّدة.

وهو إذاً، تقويمٌ ينهض على الكَشف عن الجانب الإنسانيِّ الكَوْنِيّ في القصيدة. تقويمٌ يُرِزُ الروابطَ والعلاقات بين البشر، بوصفهم بشراً، فيما وراء اختلافاتهم وتعدّديّاتهم، دينياً وعرقياً وثقافياً، ولغوياً. وتكشف ما لا يُستَفدُ في الرّؤية الشعريّة، وما لا ينتهي.

القصيدة العظيمة - مُصَغَّرُ حضاريّ. والشعر العظيم مشروعٌ فنيّ، حضاريّ، إنسانيّ.

وفي هذا الأفق، تكون القصيدة أكثر ممّا هي: أكثر من كونها شعراً. تكون فضاءً بلا حدودٍ، تتحرّك فيه الأفكار كلّها، ماضياً وحاضراً بأبعادها جميعاً. فالفضاء الشعريّ هو، جوهريّاً، فضاءٌ ثقافيّ، والفرد، شعريّاً، هو الإنسانُ في الأزمنة والأمكنة. فأن يكتب الشاعر، اليوم، قصيدةً هو أن يعرف شعرَ الأمس، وثقافةَ الأمس، وعِلْمَ الحاضر، وفلسفةَ الماضي. القصيدة العظيمة نسيجٌ كَوْنِيّ. وما نحتاج إليه، نحن العرب، هو شعرُ الأفق الكبير الواسع، بلا حدود، المُنفَتِح بلا حدود. وهذا هو الأفق الذي سارت فيه رؤيةُ السّيّاب في قصائد كمثل «أنشودة المطر» و«النهر والموت» و«المسيح بعد الصّلب» تمثيلاً لا حصراً. إنّه شعرٌ يحتضن آفاقَ الإنسان، مازجاً بين سومرَ واليونان، بين جلجامش وهوميروس، وبين هوميروس ودانتي، وبين دانتي والمعرّي. الآخر وشعره في عناقٍ مع الذات وشعرها. المسيح - أدونيسياً. التراب، بوصفه غيماً آخر. والسماء بوصفها أرضاً، والأرض بوصفها سماءً.

أدونيس

باريس، تموز 2020

ينبوع لا مرئي

كان ديوان السيّاب، وقد قرأته لأوّل مرّة بعمرٍ مُبكر، في كتاب نُفّذ بطريقة «الاستنساخ»، صادفتها على رصيفٍ ببغداد أيام حصار التسعينيات من القرن الماضي، أوّل علاقةٍ تربطني بالشّعر خارج المتن المُتاح في الفصل المدرسيّ.

كلماتٌ تتقاطعُ مع المألوف والسائد من شعرٍ رسّخته آنذاك المؤسّسة الثقافيّة والإعلاميّة بنظرتها التقليديّة والسّطحيّة للشّعر. رأيتُ كلماته تفتحُ ثُغوراً في روحي، جديدة ومؤسّسة، وتُغذيها بأسئلةٍ تولّد أسئلة، طاقة كامنة تحرّض أغواراً مُتحفزة. كان السيّاب بُرهاناً ساطعاً لقدرة الانسان على دحر الزمن بقوة الشعر ومعجزة الجمال، مثل ينبوع لا مرئي يمدُّ بمياهه أنهاراً جوفيّة أبدية العطش. وقد بقيتُ سنواتٍ متوالية وارداً ملهوفاً لذلك ينبوع.



تتفق الآراء والأحكام النقديّة على أن لحظة السيّاب في شعرنا العربيّ المعاصر، هي لحظةٌ فارقةٌ بلا شك، أحدثت خرقاً أسّس لإمكانات قولٍ شعريّ جديد وحرّ، وتركت تأثيراً عميقاً في جسد الأجيال اللاحقة. وبالتالي فإنّ آثاره الشعريّة تظلّ علامةً يُمكن من خلالها بحث وقراءة ليس

شعرنا العربيّ الحديث فحسب، بل الثقافة بمجملها في العالم العربيّ على مستوى الفرد والمجتمع. وهي، بالنتيجة، أعمالٌ تستحقُّ ما يوازي أثرها من اهتمام وعناية بالنشر، وإعادة النشر مرّات.

غير أن سبباً جوهريّاً آخر يجعلُ من هذه الطبعة الجديدة ضرورةً تأخر إنجازها كثيراً، هو أن السيّاب لم يحظَ، طيلة الحقب الماضية، بتوثيق جادٍ لأعماله الشعرية على أساس مهني مُحايِد يبتعدُ عن الأخطاء الإجرائيّة والتأثيرات (بأنواعها). وظلّت الدواوين الصادرة له والمجاميع الكاملة تعاني من ثغراتٍ مؤثّرة وعلّات متوارثة لا تتناسب مع قيمة الشاعر. لذا فإن هذه الطبعة تحاولُ المضي بهذا التوثيق والإحاطة بعالم السيّاب الشعريّ بشمولٍ يجعلها متحفاً رمزيّاً للشاعر في كتاب، وهي، في الوقت ذاته، لا تدّعي بلوغ الكمال.



لحظة شروعي بالإعداد لأعمال السيّاب الشعرية، حرصتُ أن تبدأ هذه الطبعة بتحقيق جادٍ ومخلص في قصائد الشاعر، لعلمي مسبقاً بما يشوب الطبعات السابقة للأعمال الكاملة من مشكلات (نقص، سهو، عدم دقة، وأخطاء) بالدرجة الأساس.

تحقيق يضمن إتاحة متن السياب الشعريّ كما أراد، لا كما وضعت فيه الظروف التاريخيّة الدقيقة في القرن المنصرم.

بدأتُ بجمع مختلف المصادر التي ضمّت قصائده، وفي مقدّمتها: المتاح من مخطوطات القصائد، الطبعات السابقة للأعمال الشعرية (الكاملة)، ديوان السياب المعروف بمجلّديه، المجاميع المنفردة الصادرة

في حياته وبعد رحيله، الكتب والدراسات التي تناولت حياته وشعره، فضلاً عن أرشيف المجلات والصحف في عهود مختلفة.

ولم يكن من السهل، أبداً، الوصول إلى النسخ الأصلية من الطبقات الأولى لدواوين الشاعر، فبعضها كان قد مرّ على إصداره أكثر من سبعين سنة، وبالتالي فإنها فُقدت من المكتبات العامة والخاصة، وظلت بضع نسخ متفرقة، شديدة الندرة، بعضها كان من أرشيفي الشخصي، والبعض الآخر أسعفني به أصدقاء من شرق الأرض وغربها.

وما أن تمّت الوثائق، كان أن شرعْتُ مع الشاعر بسفرٍ طويل، ليس كأيّ سفر، لذّته في مشقّته، وعروجه بقَدْر انخفاضه. وبعد إكمال التنزيد والشروع بالمراجعة والفحص، بدأتُ بالعملية الأساسية لهذه الطبعة: وهي التحري الدقيق في القصائد، وتحقيقها على وفق المتاح من مخطوطٍ أصليٍّ أو وثيقة منشورة. وضبط كلماتها والأبيات الشعرية وتصويب الخطأ منها، وشرح ما رافق القصيدة من عمليات تعديلٍ وحذفٍ في هوامش مرفقة، فضلاً عن تبين بعض التفاصيل الخاصة التي تتعلّق بالقصيدة، وبيان الغامض من المفردات والأعلام فيها.

إن أيّ جزئية عمل مما ذكرتُ أعلاه لَتَرُدُّ في سياق الحديث ككلمة عابرة، يمرُّ بها من يقرأ سريعاً إلى ما بعدها، لكنها تُضمّر في طياتها مكابدة يضيق بشرحها الوصف، كان الشطر والمقطع بل بعض الكلمات المُحيرة يمكن لها أن تأخذ اليوم واليومين وحتى الأسبوع بحثاً وتأملاً وتنقياً حتى يُستقر على رأيٍ حصيف فيها ويعتمد.

صعوبات وتحديات

واجهتني خلال العمل، بطبيعة الحال، صعوبات وتحديات، منها ما وجدته من تباين بين نصوص القصائد المنشورة في (الأعمال الكاملة) السابقة وبين المنشورة في الصحف والمجلات، أو الدواوين المنفردة. الاختلافات لم تقتصر على تعديلات أجراها الشاعر، بل أن بعض الطبعات حَذَفَتْ مقاطعَ شعريةَ اعتمدها الشاعر، أو أضافت مقاطع كان السيّاب قد حَذَفَهَا، وسيجدُ القارئ أن الموقف السياسي أو الفكري للناسخ أو للدولة آنذاك هو من تحكّم بالحذف والإضافة في معظم الحالات، فضلاً عن حالات أخرى جرى فيها الحذف بتحويل من الشاعر وتنسيق معه. وقد حصرْتُ هذه الحالات وثبّتها في ملاحظات مرفقة.

والحالّ هذه، أفرزت في أحيانٍ عدّة، أكثر من «رواية» لقصيدة واحدة بعينها في كلّ طبعة، فأنت تقرأ، مثلاً، قصيدة «الأسلحة والأطفال» منشورة في كراسٍ خاصّ أصدره الشاعر عن مطبعة «الرابطة» في بغداد عام (1954) بصياغة مُعيّنة، وتقرأ القصيدة ذاتها في ديوان «أنشودة المطر»، طبعة منشورات «مجلة شعر» (1960) بصياغة أخرى، ثم في طبعة دار العودة (1971) بصياغة ثالثة، وقد وجدتُ، على وفق هذا المثال، أكثر من قصيدة.

من الصعوبات أيضاً، عدم التزام أغلب الطبعات (الكاملة) السابقة بالصياغات النهائية لدواوين الشاعر، وإغفال عملية تبديل الصياغات التي رافقت قصائد الشاعر طوال حياته، وتعديلاته عليها، أو فاتها ذلك، ولم تبين تلك التعديلات وتحّددها في هوامش. فمعروف عن السياب غزارة كتاباته، وكثرة تعديلاته على القصائد لاحقاً قبل نشرها في الديوان، ما خلق

فروقات جديرة بالعناية والتدقيق، غير أن الطبعات المختلفة لم تراع هذه الملاحظة، ما دعاني إلى تحكيم المصادر الأولى التي نشر الشاعر فيها قصائده، وتحقيق مقارنة ومطابقة لكل قصيدة، مُتَّبَعاً مسار نشرها الأول، ثم النشر الثاني، وهكذا، حتى الوصول إلى الصيغة النهائية التي استقرَ عليها السَّيَّاب ونَشَرَهَا قبل رحيله، وحين يتوفَّر الاطمئنان لصيغتها النهائية، يُصار إلى اعتمادها في هذه الطبعة، مع حصر التعديلات التي أجراها الشاعر على قصائده، في مراحل نشرها المختلفة، وتوضيحها في هوامش مرفقة مع كل قصيدة لمساعدة القارئ في تبيين الفروقات.

توثيق الصحف والمجلات

ولكي تشتمل الطبعة الجديدة على إحاطة تامة بالمتن الشعري للسَّيَّاب، قُمْتُ بتوثيق القصائد المنشورة في الصحف والمجلات آنذاك بالنصوص الكاملة لها، وسيرى القارئ، أن هذه النصوص تشتمل أهمية بالغة لأنها توثق وتوضح جانباً من تبدلات المتن الشعري على وفق مؤثرات أساسية عدة، منها، تمثيلاً لا حصرأ: تبدل القناعة الفنية للشاعر، والتعديلات التي تطلبها دور النشر على الديوان قبل نشره، سواء تمت بموافقة الشاعر من عدمها، وسواء جرت في حياته أم بعد مماته، والباحث المتفحص لشعر السَّيَّاب سيجد أن شعره تعرّض إلى تعسف تجاوز الحدود الأدبية والأخلاقية في بعض الموارد إلى محاولات تنقسم - مثلاً لا حصرأ: إما للنيل منه والغض من مكانته، أو توجيه شعره بسياق ما.

ويلاحظ بعض قصائد الشاعر المنشورة في الصحف وقد حُذِفَتْ منها مقاطع كاملة حين تم نشرها لاحقاً في دواوين، وتجاوزت الطبعات الكاملة

السابقة عن إيضاح هذه الإشكالية ولم يذكر المحذوف والمنسي والمستقطع من شعر السيّاب الذي نُشرَ في المجلات وضاعَ في أدراج دور النشر وكواليسها، وسيجده القارئ كاملاً، ولأوّل مرّة، في هذه الطبعة الجديدة.

هذه الطريقة حمّلتني جهداً ووقتاً كبيرين، فالوصول إلى المصادر، وتتبعها، والتحقّق منها، لم يكن ميسراً في كلّ الحالات، غير أنها كانت ضرورة ملحة، لضمان هدفٍ وضعت نصب عيني؛ طبعة جديدة محقّقة لأعمال السيّاب، تجمعُ كلّ شعره بلا حذفٍ مقصود، وتوفّر قدراً من الأمانة والدقّة الممكنتين، وتتجاوز الأخطاء ما استطاعت.

أخطاء فادحة

كانت عمليتا المقارنة والمطابقة للنصوص قد فتحت الباب لاكتشاف أخطاء وهنات الطّبعات السابقة، وهي ليست مطبعيةً فحسب، بل أخطاء حدثت أثناء الإعداد والنقل، كسقوط بعض الكلمات، أو الأشرطة؛ نقصها، ارتباك توزيعها (عدم الامتثال لتوزيع الشاعر)، أو قطعها، وقد عالجتُها بالتحقيق على وفق نماذج أخرى للقصيدة ذاتها، نُشرَها الشاعر في الصحافة المحليّة أو المجلات الأدبيّة آنذاك، أو بالعودة إلى بعض المخطوطات في حالات أخرى.

ولفت نظري أن بعض الأخطاء كانت فادحة وبقيت على حالها ما يقارب الخمسين سنة من دون أن يلتفت إلى تصحيحها أحد، على الرغم من الطبعات المتوالية لديوان السيّاب خلال هذه المدّة. وسأكتفي، اختصاراً، بمثال واحد منها: ففي قصيدة «ليلة في العراق» من ديوان «شناسيل ابنة الجلبي وإقبال» يرد المقطع التالي:

«كأنني وسط هذا الكون حيث يسوطني العطشُ
نواةٌ حولها ارتجفَ العصيرُ الحلوُّ في ثمره
ويُحرقها صداها.

وانتظرتُ: سيغسل الغبشُ

صداي، يُحيلني شجره

تمصُّ الماء، يقرع في مداها النُّسغُ!»

ويمكن ببساطة ملاحظة خلل الوزن وقطع المعنى في السطر الأخير
من المقطع الذي بدا لي مبتوراً، ومع عودتي لمخطوطة القصيدة وجدت
السطر الأخير من المقطع، على النحو التالي:

«تمصُّ الماء، يقرع في مداها النُّسغُ آلاف الدرابك حين يرتعش».

كذلك وجدت القصيدة منشورةً في مجلة «حوار» عدد تموز/آب
عام 1963، وكان السطر المعني قد ورد على النحو ذاته الذي وجدته في
المخطوطة.

وهكذا الحال، في مواضع عدّة، تمّت معالجتها وتثبيت صيغتها كما
كتبها الشاعر، هذا خلاف كمٍ لا حصر له من التصويبات التي تخصّص
تشكيل الكلمات داخل القصائد والتي تترك، كما هو معلوم، أثراً حاسماً
في فهم القصيدة والمعنى الذي يريده كاتبها، ونكتفي هنا بمثال واحد:

في قصيدة «أحبّيني»، ومنها المقطع التالي:

«تفرّقت الدروبُ بنا نسيرٌ لغير ما رجعه،

وغَيَّيْهَا ظِلَامُ السَّجْنِ تَوْنُسُ لَيْلَهَا شَمْعُهُ

فَتَذَكِّرُنِي وَتَبْكِي. غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ أَبْكِيهَا

كَفَرْتُ بِأَمَّةِ الصَّحْرَاءِ

وَوَحَى الْأَنْبِيَاءُ عَلَى ثَرَايَا فِي مَغَاوِرِ مَكَّةِ أَوْ عِنْدَ وَادِيهَا.

وقد تُرِكَت كلمة «كفرت» بلا أيّ تشكيل يُذكر، أو بتشكيل مُجتهد فيه، مما يجعلها مفتوحة على أكثر من احتمال، ولو كان هذا خيار الشاعر في الأساس لسلمنا بذلك، غير أنني وجدته قد شكّل الكلمة هذي تحديداً في مخطوطتين مختلفتين بالشكل التالي:

«كَفَرْتُ بِأَمَّةِ الصَّحْرَاءِ...»⁽¹⁾ الخ

وواضح الفرق بين الحالتين، ولننقس على ذلك مئات الأمثلة مما لا مجال لذكره.

هذه الطبعة

السيّاب عمَدَ إلى دمج ديوانين أو أكثر ليصيرا في النهاية ديواناً جديداً بعنوان جديد مع تعديلات وتغييرات عديدة. هذا ما فعله مع ديوان «أزهار ذابلة» (1947) حين دمج مع ديوان «أساطير» (1948) ليصيرا ديواناً جديداً هو «أزهار وأساطير» (1963). وهذا ما فعلته بعض دور النشر حين دمجت ديوان «شناسيل ابنة الجلبي» (1964) مع ديوان «إقبال» (1965) ليصيرا مجلداً بعنوان «شناسيل ابنة الجلبي وإقبال». وقد أثرنا الاحتفاظ بالدواوين

(1) راجع مخطوطة القصيدة في ملحق قصائد بخط الشاعر، الكتاب الثاني من هذه الطبعة. (م)

المنشورة كاملةً وتنسيقها حسب الترتيب التاريخي لسنة الإصدار⁽¹⁾، مع بيان التعديلات في إشارات مفتاحية أو هوامش مرفقة.

تقسّم أعمال السيّاب الشعرية في هذه الطبعة إلى قسمين أساسيين:

أ- الأعمال الشعرية الصادرة في حياته.

ب- الأعمال الشعرية الصادرة بعد رحيله.

وهناك بين المرحلتين نصوصٌ شعرية، أُكتشفت في مراحل متأخرة، أو أنها نُشرت في كتبٍ ودراساتٍ، أو صحفٍ ومجلاتٍ، ولم يجرِ ضمّها، بأيّ سببٍ، للديوان الكامل.

هذا غير ثمانٍ قصائد لم يسبق نشرها، قبل اليوم، في الاعمال الكاملة، تنفردُ هذه الطبعة فيها مع نسخٍ من بعض مخطوطاتها.

فيما يتعلّق بالقسم (أ)، فقد اعتمدنا، في الدّرجة الأساس، على المجاميع الشعرية التي أصدرت في حياة الشّاعر، على وفق الصّياغة النهائيّة التي ارتأها في طبعاتها الأخيرة أثناء حياته، مع إعادة تدقيقها وضبطها مع الأصول المبيّنة سابقاً، وتصليح ما وجدناه من أخطاء أو سقطات، وبيان التعديلات التي رافقتها.

أما القسم (ب)، فمعروفٌ أنه قبل وفاة السيّاب في الرابع والعشرين من كانون الأوّل/ ديسمبر 1964م، كان ديوانه «شناسيل ابنة الجلبي» تحت الطّبع، وقد صدرَ في بيروت تزامناً مع نبأ الوفاة، حتّى أن الشّاعر لم يحظَ

(1) استثنيتُ ديوان «أزهار وأساطير» من هذا الترتيب، كونه يضمّ مختاراتٍ من ديوانين منشورين في بدايات الشاعر تاريخياً. (م)

برؤيته، وهو الديوان الأخير الذي أشرفَ الشَّاعِرُ على إعدادهِ وتنقيحهِ، وكان السِّيَاب قد كتبَ نصوصاً شعريةً أيامَ رقوده الأخير في المستشفى في الفترة ما بين إرسال نصوص ديوانه الأخير ووفاته.

لكن ما إن توفي السِّيَاب حتَّى شرعت دار «الطلّيلة» لإصدار ديوان بعنوان «إقبال»، وقد اتصلت الدَّار بعائلة الشَّاعر وطلبت منهم أن يُرسلوا إليها ما لديهم من قصائده. من هنا بدأت رحلة إصدار دواوين شعرية تضمّنت قصائد كتبها السِّيَاب في فترات مُبكرة من حياته، واحتفظ بها في أرشيفه، ممتنعاً عن نشرها.

توالى بعد ذلك الدّواوين، التي كان يُحرّكها، غالباً، دافعان: احتفائي إعلامي، وهو ما قامت به المؤسسات الثقافية الحكومية، ودافع آخر ربحي تجاري، اضطلعت به دور النشر التي أخذت بالاهتمام المتصاعد بالشَّاعر خاصّةً بعد رحيله الفاجع، فكان كلّ جديد له، مهما كانت قيمته، محطّ ترصّد وعناية، فصدرت عن وزارة الإعلام العراقية لاحقاً مجموعة «قيثارة الريح»، لمناسبة الذكرى السادسة لرحيل الشَّاعر (1971)، وقد ضمّت قصائد على الشكل الخليلي من البدايات جُمّعت من مخطوطات وأوراق متناثرة. وهكذا لاحقاً أصدرت مجموعات «أعاصير: 1972»، «البواكير: 1974»، «الهدايا: 1974». وكانت هذه المجموعات تضمّ قصائد من سنوات متفرّقة، بعضها من بواكير تجربة السِّيَاب، والبعض الآخر قصائد مناسبات شخصية وسياسية، غير أن عاملاً واحداً كان يجمعها:

وهو أن السِّيَاب لم ينشرها في حياته، وأن القصائد هي من البواكير، ولا ترقى إجمالاً إلى مستوى شعره الإبداعي، أو في الأقلّ للمستوى الذي بلغه ديوانه الأوّل «أزهار ذابلة»، بل هي دونه.

أشير هنا إلى سؤال مُلح: ما الذي كان يمنعُ السياب من نشر هذه القصائد التي شكّلت في النهاية متناً شعرياً وصلَ إلى خمسة دواوين أصدرت بعد وفاته؟ خاصّة وأنا بإزاء قصائد هي محاولات الصبا الأوّل ومعظمها كُتبت والسياب بين (15-18) عاماً، كما أن الشاعر لو كان راغباً ومُقتنعاً بنشر تلك «المحاولات» لفعل ذلك بديوان مشابه لـ «أزهار ذابلة» و«أساطير»، بل أذهبُ أبعد لأقول بأنني أظن «أزهار وأساطير» هو الديوان الوحيد الذي يمثل ما ارتضاه السياب من بداياته ونتاجه القديم، بدليل أنه لم يرجع لطباعة «أزهار ذابلة» ولا «أساطير» بل انتقى منهما مختارات مع جملة تعديلات ليختصر شعر بداياته بـ «أزهار وأساطير».

الأمر ذاته ينطبقُ على قصائد المناسبات وتلك التي طُلبت منه مواضيعها، ونحو ذلك، وكلها نشرت بعد رحيل الشاعر.

إن جوهر وجهة نظري في هذا التساؤل هو القيمة الأخلاقية وراء أيّ عمل يقوم به محقق أو ناشر، فنشر محاولات الشاعر الأولى - اتفقنا أم اختلفنا - ترك «تشويشاً» فنياً أو «تشويهاً» لصورة عمل السياب على ترسيخها وتعميقها؟ إن لكلّ شاعرٍ بدايات، وهي، غالباً، ما يشوبها تعثر وضعف وتأثر بآخرين، ولدينا أكثر من مثال لشعراء حذفوا من ديوانهم الكامل مجموعاتهم الشعريّة الأولى، فكيف بقصائد ما قبل الديوان الأوّل؟

قد يُرى أن نشرَ هذه القصائد الأولى له ما يبرره بوصفها جزءاً من الإرث الشعري، وربما يُرى أن ما تركه السياب في ادراج النسيان قد يقبله القارئ والدارس، مع الأخذ بعين الاعتبار بأننا لسنا أمام أعمال ناضجة ومكتملة فنياً، فالدواوين التي صدرت بعد (1964) - عدا «إقبال» - ليست مخطوطات جاهزة، أو دفاتر «مبيضة» وجدت في مكتبة السياب لم يسعفه

الوقت لطباعتها، بل أوراق متناثرة، وقصائد غصَّ النَّظَر عنها هو، وهذا يفتح سؤالاً عن صاحب السَّلمة والقرار في مثل هذه الحالات ويحرّض البحث في الدوافع والنوايا، على أنني أرى أن ما أُصدر من دواوين شعرية بعد وفاة السياب (لم يقررها الشاعر) كان يُفترض أن لا تنشر عدا قصائد نادرة جداً.

أشير هنا أن نشرنا لأيّ قصيدة لم ينشرها الشاعر في حياته في هذه الطبعة يأتي بقدر ما يتطلب نشر أعمال شعرية «كاملة» لشاعر مثل السياب من شمول وتعميق تفرضهما آليات وأدبيات مشاريع كهذه.

تصويبات تاريخية

قُبِضَ لهذا العمل، لأكثر من سبب، أن تتجاوزَ مخرجاته النهائية المتن الشعري للسياب إلى تصويب بعض الأخطاء الشائعة والمتداولة في حياة الشاعر ذاتها، والتي ظلَّت متوارثة عقوداً طويلة حتى غدت حقيقةً راسخة لا يفكر في التشكيك فيها أحد.

من يقفُ اليوم أمام تمثال بدر شاكر السياب على كورنيش شط العرب في البصرة سيقراً على قاعدته الرخامية تاريخ ميلاد الشاعر: (25 كانون أول 1926)، وهو التاريخ المثبت في أغلب المصادر التي تناولت حياته والسائد في أيّ مادةٍ صحفيةٍ أو بحثيةٍ تتناول الشاعر طيلة العهود الماضية. غير أن وثيقة صادرة عن المديرية العامة لصندوق التقاعد العراقي بتاريخ (23 / 9 / 1961) زودني بها ضمن مجموعة وثائق أخرى السيّد غيلان السياب، نجل الشاعر، حملت لي مفاجأة كبرى: فقد ثبتت هذه الوثيقة

الرسمية، في إحدى هوامشها، تولد السياب في عام (1927)⁽¹⁾ وليس التاريخ الشائع.

ليس هذا فحسب، فقد تبين أن تاريخ (25 كانون الأول) المتداول كيوم ميلاد معروفٍ للشاعر خطأً كذلك، وأن يوم ميلاد السياب مجهول! فقد أرسل لي السيد غيلان لاحقاً نسخة من شهادة الجنسية العراقية لوالده، وفيها ذكر سنة الميلاد (1927) ومن دون يومٍ أو شهر.

هذا التصحيح (التاريخي) الذي نقدّمه، والذي قد يُفاجئ الكثير من المهتمين بشعر صاحب «أنشودة المطر»، يُثبت، مرةً أخرى، أن السياب ظلّ لسنوات طويلة بحاجة إلى عناية بحثية جادة تُزيل الالتباس والأخطاء عن تفاصيل هامة في حياته وشعره، وأنه على الرغم من الاهتمام النقديّ والأكاديميّ الواسع بتجربته، فإن قضايا مركزية فيها لا تزال تنتظر البحث والكشف والتصويب.

صورٌ لم يرها أحد

من جانب آخر، تحتوي الطبعة على ملاحق خاصّة، تُعزز المتن الشعري وتغني القارئ والباحث على سواء، أحدها يضمُّ قصائد للشاعر لم تنشر في دواوينه سابقاً، وهي نصوصٌ شعرية وردت في كتب سيرية ونقدية وقصائد أخرى وردت في كتب تناولت رسائل السياب، فضلاً عن ملحقات ثانٍ يضمُّ صوراً نادرة جداً (تنشر لأول مرة) إذ كانت مما تملكه عائلة الشاعر من ذكراه غير أنها فقدت أثناء التحضير لمشروع تمثال الشاعر في البصرة

(1) راجع الوثيقة في ملحق (4) وثائق وصور، الكتاب الثاني. (م)

مطلع السبعينيات، وقد أتاحت لنا الظروف استعادة نسخ من هذه الصور التي تعدُّ كنزاً حقيقياً من بين أهم ما حدث في هذه الطبعة.

كذلك تضم الملاحق وثائق تُوضح جزءاً مؤثراً مما عاناه الشاعر في حياته بالخصوص مشواره الوظيفي الذي دفع فيه ضريبة انتماءاته السياسية ومواقفه المعروفة (فُصل لأكثر من مرّة وأقصى عن داره واستُرْجعت منه أموال مكافآت). كما تضم الملاحق صوراً لمخطوطات نفيسة وخاصة لقصائد بخط يد الشاعر تُنشر لقيمتها التاريخية لأول مرّة.



إن مشروعاً كديوان السيّاب الكامل، جمعاً وتحريراً وتحقيقاً، يظلّ بالتأكيد مُعرّضاً للمراجعة المستمرة، لا عن قلة حماس، إنما لخصوصية تتعلّق بظروف حياة الشاعر من جهة، وما يتعلّق بطبيعة العمل ذاته من جهة أخرى، وللأسباب التي أوردناها أعلاه، لذا نلتمس العذر لأي تقصير وارد، حسبنا أننا اجتهدنا قدر الاستطاعة بإخلاص ووفاء لهذا الرائد المعلم، وثنميناً لدوره المؤسّس في تجربة الشعر العربي الحديث.

وإذ أُلقي بعضا سفري مع السيّاب عند بيت قارئة، فإنني أشيرُ بمحبّة صافية، وتقديرٍ باسق، لما أبداه نجلُ الشاعر، السيّد غيلان بدر شاكر السيّاب، من تعاون كبير ومثمر، ابتداءً بحماسة ومباركته العمل، مروراً بمراجعته لمخطوطة الكتاب والتي أسهمت في دفع وتدارك عديد أخطاءٍ فيها، فضلاً عن الوثائق الشخصية ومخطوطات قصائد الشاعر، الصور والمعلومات والملاحظات القيّمة التي أفاضها عليّ عبر مراسلات متتالية طوال فترة العمل، تواصل كان له الأثر البارز على فرادة هذه الطبعة، دقّتْها

وخصوصيتها، وقد لمستُ منه حرصاً كبيراً على تراث والده ومعرفة حصيفة فيه، ووفاءً هو بحد ذاته مثال يُحتذى.

كما أديمتُ الشكرَ وأُعليه للشاعر أدونيس على استجابته الكريمة لكتابة مُقدِّمة العمل، فهي بلا شك دليل وداد لذكرى صديق وشقيق درب، وبرهان تقدير للمشروع. وأذكر هنا بحُبور ما جمعني به، من مداولات جرت عبر الهاتف على فترات من عمر العمل، ستظل محطّ اعتزاز عميق.

وأوصِلُ العرفان العجيز، والثناء غير المنقطع، لِطَيْفٍ واسع من الأصدقاء الذين مدّوا المشروع بعونهم ودعمهم، رؤاهم وملاحظاتهم، وسخروا ما استطاعوا من إمكانيات، فلولاهم جميعاً ما كان لضفاف الوصول أن تُلَوَّحَ لأشْرعتنا.

وأخيراً، فأنتني بعد ذلك كلّهُ، أُهدي جهدي المتواضع لروح الشاعر الخالد، معلّمِي الأوّل، عرفاناً وتقديراً، ولمحبّيه في كلّ مكان وزمان، ولقوّة الشعر العميقة التي تمسك قلب العالم، وأريدُ لهذه الطبعة أن تكون مناسبةً جادّةً لقراءة جديدة لشعر السيّاب، تتركُ السّياقات التّقليديّة والرّؤى النّقديّة المألوفة، وتتحرى تواصلًا غير مطروقٍ مع ذلك الينبوع الذي فجّره الشّاعر، ولا تزال هناك، تحت أرضنا، منه أنهار لما تُكتشف بعد.

علي محمود خضير

البصرة - تشرين الثاني 2020

أزهارُ ذابِلة

(1947)

إشارة

طُبِعَ الديوان، لأوّل مرّة، بمصر (مطبعة الكرنك) بالفجالة، عام (1947)، وكتبَ مقدّمته رفائيل بطي⁽¹⁾. الديوان هنا مطابقٌ لهذه الطبعة. وقد أجريت ضبطاً للقصائد وتثبيتاً للهوامش التي وضعها الشاعر في الديوان الأصلي وأغفلتها أغلب الطبعات السابقة.

لم يكرر السيّاب طباعة «أزهار ذابلة» بعد ذلك، لكنه عمّدَ لاختيار قصائد منه ومن ديوان «أساطير» ليكونَ ديواناً جديداً بعنوان «أزهار وأساطير» مع إجراء شيء التعديل والحذف على القصائد.

المحقق

(1) تجد النص الكامل لمقدّمة رفائيل بطي في الملحق الخاص بالوثائق، الكتاب الثاني من هذه الطبعة، ص 467.

ديوان شعر⁽¹⁾

«إلى اللاتي استعرن مني ديواني ليقرأنه فبات
متنقلاً ما بينهن، ونال من عطفهن ما حرمته،
أقدم هذه القصيدة»⁽²⁾

ديوان شعر، ملؤه غزلُ بين العذارى باتَ ينتقلُ
أنفاسي الحرى تهيمُ على صفحاته، والحبّ والأملُ
وستلتقي أنفاسهنّ بها وتحوم⁽³⁾ في جنباته القُبْلُ
ديوان شعر، ملؤه غزلُ بين العذارى باتَ ينتقلُ

لما يعين⁽⁴⁾ النوح والشكوى كلّ تقول: من التي يهوى؟
وسترمي نظراتهنّ على الصفحات بين سطوره نشوى
ولسوف ترتجّ النهود أسى ويثيرها ما فيه من بلوى
ولربما قرأته فاتنتي فمضت تقول: من التي يهوى؟

(1) أعاد السياب نشر القصيدة في ديوان «أزهار وأساطير» بعد جملة من التغيرات نوردها في الهوامش التالية. (م)

(2) غير الشاعر الإهداء إلى «إلى مستعيرات ديواني».

(3) أبدل «وتحوم» بـ «وتترف».

(4) أبدلها الشاعر بـ «وإذا رأين».

سيرين ما لاقيت في حبي فيصحن: يا للعاشق الصب! (1)
ولقد تسيل دموعهن على جنباته، موصولة السكب
يا ليت قلبي من قصائده لترى الحسان الغيد ما قلبي
سيرين ما لاقيت في حبي فيصحن، يا للعاشق الصب

* * *

ديوان شعري.. رَبِّ عذراء أذكرتَها بحبيبها النائي
فتحسست شفةً مُقبَّلةً وشتيتَ أنفاسٍ وأصداءٍ
فطوتك فوق نهودها بيد واسترسلتُ في شبه إغفاءٍ
ديوان شعري.. رَبِّ عذراء أذكرتَها بحبيبها النائي

* * *

يا ليتني أصبحت ديواني أختال (2) من صدر إلى ثانٍ
قدبتُ من حسد أقولُ كهُ: يا ليت من تهواك تهواني
ألك الكؤوس ولي ثمالها ولك الخلود وإنني فانٍ؟
يا ليتني أصبحت ديواني أختال من صدر إلى ثانٍ

* * *

كم عادة شاهدت مخدعها ومضيت تسهر ليلها معها (3)
قد هزها شوق لمعتسف أمسى هواه يسيل أدمعها
فمضت تذيع إليك قصتها وتبتُّ همًّا فل أضلّعها
كم عادة شاهدت مخدعها ومضيت تسهر ليلها معها!

* * *

(1) حذف الشاعر هذا المقطع كلاً.

(2) أبدلها الشاعر بـ «لأقر».

(3) حذف الشاعر المقطع كاملاً.

ستعيش بين النور والعطر وتفرّ من صدرٍ إلى صدرٍ⁽¹⁾
 فترى الثغور تعيد هامسة ما فيك من فتن ومن سحر
 والنهد يرمي الظلّ فيك على روض الخيال ومرقص الشعر
 ستعيش بين النور والعطر وتفرّ من صدرٍ إلى صدرٍ

يسمعنّ فيك أغانيّ الريف مترنماً بحسانه الهيف⁽²⁾
 الماء يشكو للجرار هوى والنخل في صمت وتعزيف
 والليل والأنسام عاطرة والزورق الغافي المجاديف
 تلقى مسامعها إلى الريف يشكو غرام حسانه الهيف

سأبيتُ في نوحٍ وتسهيّد وتبيتُ تحت وسائد الغيد
 أولستَ مني؟ إنني نكدٌ ما بالُ حظّك غير منكود؟
 زاحمتَ قلبي في محبته وخرجتَ منها غير معمود
 أبيتُ في نوحٍ وتسهيّد وتبيت تحت وسائد الغيد؟

ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل⁽³⁾
 أنفاسي الحرى تهيم على صفحاته، والحبّ والأمل
 وستلتقي أنفاسهنّ بها وتحوم في جنباته القُبَل
 ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

بغداد 26 - 3 - 1944

(1) حذف الشاعر المقطع كاملاً.

(2) حذف الشاعر المقطع كاملاً.

(3) حذف السيّاب المقطع كاملاً.

يا هواي البكر

كلُّها، غابت وراء البسماتِ
 ما تولى من غرام الناسياتِ
 في شبابي، يا حياةً في حياتي
 مزقتُ ثوبَ البلى عن فرحاتي
 أفتديها بالسنين الماضياتِ
 خافيَ التطوافِ، محجوبَ السماتِ
 صارخاً، والبعدُ يوهي صرخاتي
 زاده شعري ودامي أغنياتي
 ميتة، يغتالُ نوري جذواتي!
 يا خريراً طافَ في صمتِ الفلاةِ
 أفتديها بالسنين الماضياتِ
 أختُ روحي هذه كلُّ حياتي
 شقةً أعبى مداها خطواتي؟
 والنخيلُ الشَّمُّ، والغيدُ اللواتي
 عن عيونٍ بالأمانِ مترعاتِ
 غيرَ أضواءِ ابتسامٍ والتفاتِ
 شاعريّ اللحن، غصَّ النبراتِ!

يا هواي البكر، دنيا ذكرياتي
 يا هواي البكر، قد أنسيَني
 يا ربيعَ العمر، يا إشراقاً
 يا دماً غدّى دمي، يا فرحةً
 أنتَ جمعتَ المنى في ساعة
 كنتُ قبل اليوم ظلاً ضائعاً
 باسطاً من هوة الماضي يدي
 كنت.. ماذا كنت؟ قبراً جائعاً
 كنت.. ماذا كنت؟ ناراً عيشها
 يا غرامي، يا سنى فضّ الدجى
 أنتَ جمعتَ المنى في ساعة
 هذه عذراءُ شعري، هذه
 كيف أضحتُ وهي قربي؟ من طوى
 الروابي، والصحارى، والضحي
 والعيونُ الحور.. غابتَ كلها
 لا ترى عيناى، مما حفني
 أيُّ صوتٍ نثَّ سحراً في دمي

«هات لي شعراً» فؤادي كُلُّه
كلُّ جرح في فؤادي شاعرٌ،
الأغاريذُ التي رتلْتُها
والسهولُ الفيحُ، والريحُ الذي
تفتدي غمازَتَيْنِ⁽¹⁾ انداحَتَا
زَيْنَتْ غمازَتَاكَ الملتقى
شعَّ فوق الشجرِ⁽²⁾ منها كوكبٌ
وانتحى عينيك من تيارها
حين ضاقَ الشجرُ عن إشراقه
أترعَ العينين حتى فاضتَا
يا يداً مرَّت كما رفَّ الندى
قَلْبْتُ ديوانَ شعري، صفحةً
أيُّ جرح ساكنِ حركته
يا شفاهاً رفَّ شعري بينها
أنت جمعت المني في ساعة
ذاك يومٌ غابَ عمري بعده
عدتُ.. ماذا عدتُ؟ قبراً جائعاً
عدتُ.. ماذا عدتُ؟ ناراً عيشها
كلما غاب الهوى عن خاطري

صار أنغاماً عذاباً ساحرات
صادحُ القيثارة، مسحورُ اللهاة
والخيالاتُ التي في أغنياتي
هزَّ روحي، والحسانُ الملهمات
فوق خدين استشارا حسرائي
لابتساماتِ الهوى بعد الشتاتِ
مرجحنُ الملح، محمَّرُ الشياتِ⁽³⁾
مستفيضُ السيلِ، جمَّ الدفقاتِ
صبَّها فوق العيونِ الساحراتِ
بابتسامِ الحبِّ فوق الوجناتِ
فوق أزهارِ المصيفِ الظامئاتِ
بعد أخرى، وهوَ دُنيا ذكرياتي
أيُّ قيثارةٍ، نؤومِ النغماتِ؟!
راقصاً في موكبٍ من همساتِ
أفتديها بالسنينِ الماضياتِ
في دياجيرِ البعادِ العابساتِ
زادُه شعري ودامي أغنياتي
ميتة، يغتالُ نوري جذواتي
عاد محفوفَ الشُّرى بالذكرياتِ

(1) الغيازة: نقرة في الخد من دلائل الجمال، (رصعة). (ش).

(2) من ابتسامات الهوى. (ش)

(3) الشيات: الألوان. (ش)

راقصات الخطو، في مصباحها شعلهٌ يوقدُنها من خاطراتي
شعلهٌ طافتْ بثغري فاختمى ضوءُها تحتَ الدموعِ الساكباتِ

بغداد بتاريخ 1945/12/11

لو أراها

لو أراها، فارقت قلبي إليها أغنياتي
وارتمت ما بين نهديها نشاوى راقصات
لو أراها.. آه لو أدركت يوماً أمنياتي..
ماتت الشكوى على ثغر تماذى في الشكاة!

لو أراها.. كيف إقبالي عليها لو أراها؟
هل تراني أستطيع السير.. إن حثت خطاها؟
أم سيطعى ذلك الوجد الذي غشى حياتي
كي يحيل الخطو - يوم الملتقى - آهاً فأها؟

أي غاب ساهم الأفياء بسام النخيل
نائم في الضفة السكرى على حلم جميل
يجمع القلبين يوم الملتقى بعد الشتات
في ضحى زانته ربأت الهوى أو في أصيل؟

أيُّ دربٍ عطّرت أنفاسه ريح الشتاء؟
 عَجَّ بالنجوى.. بأهات العذارى.. بالغناءِ
 بابتسامات الأحباء، بشوق العاشقات
 ألقيها فيه من بعد التجافي والتنائي

أيُّ مغنى شاعَ في أنسامه عطّر العذارى؟
 أيُّ روضٍ شاحِبِ الساحاتِ ساجٍ كالصحارى؟
 أيُّ ليلٍ واجمِ الأفلاكِ، مسودّ الشياتِ
 تُسعدُ اللقيا به قلباً جموحاً مستطاراً

لو أراها.. ليّتها يوماً تمنّت لو تراني..
 ليّتها تشتاقُ بعضَ الشوقِ.. يا ويح الأماني!
 أيُّ جدوى في أمانيك العذابِ الباسماتِ؟
 كلما أشرقنَ غاصَّ النورُ عيني واجتواني⁽¹⁾

نبّئني يا سماء الغيب أنباء عذابا
 أسدلي - من بعدها - من دون عيني الحجابا:
 أيُّ يوم تجتلي من ليّلك الداجي حياتي:
 علّني أدري: أما أفنيت بالغمّ الشبابا؟

(1) اجتوى: كره وأبغض. (م)

حسبُ رُوحِي «صورة» إِنَّ هَزَنِي شَوْقُ أَرَاها
نَضَّرَتْها زَهْرَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْها وَجَنْتَها..
وَابْتَسَامَتْ وَالْحَاظُ تُسَاقِي ذَكْرِيَّاتي
خَمْرَةٌ يُفْدَى بِأَمَالِ التَّلَاقِي سَاقِيَّاهَا!!

بغداد بتاريخ 1945/12/28

بعد اللقاء

يا حُبُّ.. ما بالي سئمت الحياة؟ وما لأنفاسي أراها تضيق؟
ما للعيون الحور.. ما للشفاه ظلماءُ ما فيها سنَى أو بريق؟

ما للغرام العفّ، ما للفجور.. لا يرضيان الشاعر المستهام؟
أين الهوى؟ مات الهوى والشعور والقلب؟ أين القلب؟ ذاك الحطام

يا شعر.. ما بالي سئمت الغناء والكون حولي منصت يسمُعُ
غنيت حتّى ضاق صدر الهواء فما للصوتِ عنده مطمَعُ

غنيت حتّى مسَّ قلبَ الحبيب شدوي، وحتّى ثار فيه الهوى
أغفى فلما هجّت فيه الوجيب أمسى لغيري واحتملتُ النوى

يا عمر.. والعشرون تقفو خطاي كالليل سوداء الخطى والثياب
هل هُنَّ لي وحدي؟ أما من سواي ماشٍ، كأن الريح خلف السحاب؟

يا عمر.. ما لي مطمع بالسنين حسبي ثلاث بعد ذاك العذاب
في الريف أقضيهن حتّى يحين يومي، فيؤويني إليه التراب

مأواي كوخ من جذوع النخيل في غابةٍ لقاءً بين التلال
أدعو إليه الصبح بعد الأصيل والليل، ما إن يعترينا ملال

يأتي عليّ الصيفُ بعد الربيع والزهرُ بعد العاصف الزمهرير
والنكبة الهوجاءُ لا تستطيع إطفاء مصباح الشباب النضير

يا شعر.. أنت العمر.. أنت الحياه والحب، ليس الحب شيئاً سواك
فإن سمعت القلب يوماً دعاه فاعطف على قلب كئيب دعاك

يا قلب. بالأمس اشتهيت اللقاء واليوم كان الملتقى، كيف كان؟
واحسرتنا، فيم الأسى والبكاء يا من بلغت الأمنيات الحسان؟

هاتان عيناها، يكاد الحنين يذكي سراجيه بتلك العيون
الدهر ينسى فيهما كل حين أعوامه الجذلى وبعض القرون

إن شاءتا أن تمنحاك الربيع فيناناً يندى، في ليالي الشتاء
عاد الهزيع الجون بعد الهزيع روضاً تحليه الزهور الوضاء

النظرة العجلى شهور طوال.. يحظى بها عمر المحب السعيد
والنظرة المكسال عند الوصال عام، يكر العام وهو الجديد

ما بال قلبي أثقلته الجراح؟ والأرض من تحتي أراها تميد؟
بَلْ ما لطرفي؟ أسبلته الرياح؟ أم غاص في غور الفؤاد البعيد؟

هذي يدي تنسلّ نحو النسيم من غير علمي، لا ملكتُ اليدا
وذاك ثغري عاد طيفاً يهيم.. بين ابتساماتٍ طواها الردى

هذا هواي البكر، عَبَرَ الطريق يدنو.. فيزداد اللظى والغرام
ما بال صدري باشتياقي يضيق؟ وما لروحي تلتظي بالأوام؟

يا ليت أقدامي تشق الثرى عن قبري الداجي فلا أنظرُ
واحسرتا.. ما بالها لا ترى؟ يا خيبة اللقيا.. أما تبصرُ؟

أين التحايا؟ أين أين السلام؟ يا ضيعة الآهات... أين اللقاء؟
أواه... ما لي لا أطيق الكلام مالي... وأنفاسي تهز الهواء؟

يا نظرة الأنثى علام البرود؟ فيم ازدراء العاشق الخائر؟
يا ثغرها الألاق.. فيم الصدود يا من رَوَى أغنيّة الشاعر!

يا للشفاه الصامتات، العذاب يغفو عليهن الكلام المرير
كالكأس دفاقاً بمُرّ الشراب مازته قبل الشرب عينُ الخير

بينني وبين الحب قفرٌ بعيد من نعمةِ المالِ وجاهِ الأبِ
يا آهتي كُفِّي.. ومثْ يا نشيد شتَّان بين الطينِ والكوكبِ

بغداد 1946/1/5.

نشيدُ اللقاء

كان لي عند النوى ثارٌ، وقد أدركت ثاري
وانجلى ليّلُ الشتاءِ الجونِ، عن نورٍ ونار..
أسكرتني ساعةُ اللقاءِ على غير انتظار
يا لوعِدِ صاغه المُرّانِ: شوقي واصطباري
واحتواه الصمت، مخفّي السرى دون الحوار
فهُوَ ما لم يطوه اللفظ فيلقى في إसार..
وهو فوق الناس، والتاريخ، والحين المعار

ذلك الشهرُ الَّذي أفنيتهُ ساعاً فساعاً
في ديار الحبِّ، لا يرضى لنا الدهر اجتماعاً..
خلّته ولى سدى من عمري الداجي. وضاعا
كيف حالي، في غدٍ، إن قال أصحابي وداعاً!؟
كيف حالي يوم لا قلب، إذا نادى، مطاعاً؟
حين ألقى طرفيَّ السهرانَ: ما بين القفار..
في سكون الليل، لا يدري، بما ألقاه، دار

الدجى، والصفحة الرقطاء، والصمْتُ الرهيب
والرمالُ السودُ، والنهر المغشى، والكثيب
أغنياتُ تبعثُ الشكوى، صداهُنَّ الوجيب!
لَهْفَ رُوحِي، يوم يخفيني، عن الناس الجنوب!
أين... أين القريةُ السجواءُ والشطُّ الرحيب
من هوى للروح، في «بغداد» مشبوبِ الأوار؟
أنت داري، أنتِ يا بغداد، ليس الريف داري

آه لولا ملتقى من غير ميعاد أتاننا...
ضمَّ رُوحين، على طهر الهوى فاضاً حنانا
كيف كان الشوقُ، لولا الملتقى؟ بل كيف كانا؟
كيف؟ لا.. قد كنتُ جمَّ الشوقِ وحدي لا كلانا
ليت تلك الساعة العذراء تجتاحُ الزمانا...
لا ظلامُ الليل يثنيها، ولا ضوءُ النهار...
ليت أني أوقفُ الدنيا عليها في المدار!

ها هنا دارُ الهوى، يا عينُ، في هذي الرحاب
ها هنا سال الدم الجاري من القلب المذاب

في الأزاهيرِ، على العشب المندى، في التراب
فانفضي أرجاءها القصوى، وهزّي كلّ باب
وامزجي دمعي وأنفاسي على عطر الجواب
بالندى، بالنسمة السكرى، بأنغام الهزار
بالربيع الطلق، بالأفق الموشى باصفرار!!

أيها الظمآنُ، يا طرفي، أبصرتَ الغديرا؟
دَوَّبَ الأنسامَ، في أمواجه النشوى، هديرا
والظلالَ الفيحَ، في أغواره، يسطعنَ نورا
والزهوَرَ الغينَ، بالأنداء يحرقنَ العبيرا
لو سقى - والعاصفاتُ الهوجُ يوقدنَ الهجيرِ
في رمال الوهدةِ القفراء، ساحاتِ القفار
بثّ في أرجائها، أيار فواحٍ العرار..

ما أرى؟ وافرحتا!! هذا هواي البكر لاحا
أيها القلبُ الذي لم يعشق الغيدَ الملاحا
أو ينثّ الشعرَ عبّاقَ الشدى، إلّا مزاحا
يا فراشاً كان يرتاد الخزامى والأقاحا،

هذه النار التي تهوى، فلا تطوّر الجناحا
دون أن يرتدّ في ذاك اللظى بعُصّ الغبار
واهياً، تلهو به ريحُ الصبَا بين الصحاري..

يا بناناً طاهراً يمتدُّ نحوي بالسلام..
نابضُ الهزاتِ بالشوق المخفَى.. والغرام
ليتني أبقيك في كَفّي ساعاً كلّ عام!
عند ذاك الجدول الساجي.. بعيداً في الظلام
ليتني... حسبي مُنَى يا قلبُ، ما تطفئ أوامي
أمنياتُ جامحاتٍ الشأو، رعناء السفار!
هذه البيداءُ لا يسخو حصاها بالثمار!

يا شفاهاً عطرْتُ بالبسمة الرّبيّ سؤالاً...
كيف حالي؟ ساء - لو لم تسأليني أنت - حالا
سائلي عينيك، والتذكّار عني، والخيالا
والأناشيد اللواتي فُضْنَ شوقاً وابتهاالا
والمقادير التي لم ترَضْ لي إلّا ارتحالا..
وابتعاداً عنك والدنيا، إلى شرّ الديار
آه لو تدرينَ ما حالي على بُعْدِ المزار..

رُبَّ غَابٍ كَبِلْتُ أَنْسَامَهُ شُمُّ التَّلَالِ..
 فِي رُبُوعِ الرِّيفِ، مَكْتُومِ الضَّحَى بَيْنَ الظَّلَالِ
 شَاخِبِ الْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ، مَهْدُومِ الدَّوَالِي
 إِنْ طَوَّانِي فِي غَدٍ، يَا سَوْءَ مَا يُوْحِي خِيَالِي!
 رَنَّ فِي أَنْحَاثِهِ صَوْتُ يَنَادِي كَيْفَ حَالِي
 عَنْ يَمِينِي هَبَّ، مَنْ خَلْفِي تَنَاهَى، عَنْ يَسَارِي
 مِنْ فُرُوعِ الدَّوْحَةِ اللَّفَّاءِ، مِنْ كُلِّ انْحِدَارِ..

حَظُّ شَعْرِي، عِنْدَكَ، الْإِثَارَ وَالْحَبُّ الْجَدِيدَ
 وَالنَّوَى، وَالصَّدُّ وَالنَّسْيَانُ، حَظِّي وَالْجُحُودَ
 وَيَحَ قَلْبِي كُلَّمَا وَافَاكَ لَحْنٌ أَوْ نَشِيدٌ...
 نَالَ مِنْكَ السَّهْدَ وَالْآهَاتِ، شَادِيهِ الْبَعِيدَ
 إِنْ شَرَّ الظُّلَمِ أَنْ تَنْدَى مِنَ اللَّثْمِ الْوَرُودِ..
 وَالْغُصُونِ الْوَاهِبَاتِ الْوَرْدَ تَصَلَّى حَرَّ نَارِ!!
 لَهْفَ رُوْحِي.. كَيْفَ تَلَقَّيْنِ انْتِحَابِي بِافْتِرَارِ

اَتْرَكْنِي أَغْرَقِ الدُّنْيَا بِنَبْعِ الذِّكْرِيَّاتِ
 نَاسِيًا عَيْنِي فِي تِلْكَ الْعَيُونِ النَّاعِسَاتِ

آه لو هدهدتها، قَبْلَ الكرى، بالقبلات
 آه لو ذوبتُ في آبادِها السكرى حياتي
 بين أحقابِ ندياتِ عَذَابِ الأمسيات
 غاياتٍ فوق شطآنِ نقياتِ البحار..
 شاعَ في أرجائهن الصمْتُ شفافَ الستار..

اللقاءُ البكر لا أنساه ما عاد الخريف!!
 الضحى، والسفرةُ المطرابُ، والصحو الشفيف
 والتفاتٌ يحييها، من القلب، الرفيف...
 حبًّا لو طال بالدنيا عليهن الوقوف!
 أين أنغام على العشاق بالذكرى تطوف؟
 صوتك المغنَّجُ رَوَّاهُنَّ بالوجد المثار؟
 أين نهر في خفاء الغاب منسيُّ المجاري؟

ذلك النهر الذي أدنيت مني وهو ناء..
 لاح لي ينثال، عذبا، من ينابيع الغناء!
 لجَّ في الأبعاد، منساباً إلى غير انتهاء..
 والصفاف الغين⁽¹⁾ تطويهن آهاتُ الرعاء..

(1) غين: جمع أغين، والأغين من الشجر والنبات: الأخضر والطويل. (م)

عابراتٍ، في سكون الريح، آمادَ الفضاءِ
حبذا نهر، به غنيتٍ، يهتاج ادكاري!
يا «سواني»⁽¹⁾ آه لو أنا جُمِعْنَا في جوار..

إن سجا ليل، وأغفى في ذراع الريح غاب..
وارتمى، في هالةِ البدر الموشاةِ، شهاب
خائياً يفنى.. كما يفنى على الماء الحباب
مثل مصباحٍ وراء الشط غشاها الضباب
شعّ وهو الفضة البيضاء في المجرى تذاب
واختفى يُلقِي عليه البدرُ أثوابَ النضار
هاج لي شوقاً إلى واديك دفاقَ المجاري

تلك. تلك الضفّة الخضراء.. ها إني أراها!
نضرتُها ليلةً قمراء، رفافٌ سناها..
والنجوم البيض، في الأمواج ذوّبنَ الشفاها

(1) سواني، نهر في أمريكا الجنوبية، وأغنية «نهر سواني» لناظمها «فوستر» من أشهر أغاني الغرب وأروعها، وهي عندي أحبُّ الأغنيات وأشهاها. (ش)
** يبدو أن التباساً وقع في مكان النهر، فالصحيح أنه يقع بين جنوبي شرق جورجيا وشمال فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية. (م)

مالثاتِ غورك المسحورَ آها، ثمّ.. آها..
 خاتماتٍ منه منسياً وراء الموج تاهاً!!..
 ليت أني كنتُ في ساحاتِهِ بعض الحجار!!..
 في رباك الفيح ميلادي وفي السهلِ احتضاري

يا حياتي كُلّها، يا شقوةَ الروحِ المهان..
 إن طواني عنك، دون الناسِ، أحداثُ الزمان
 فاجعليني - كلما رجّعتِ لحناً في «سواني» -
 نَغْمَةً، خفاقةً، تفنى على صدر البيان!
 أسمعيني صوتك المطراب، تنثالُ الأمانى
 منه في قلبي، إذا غنيتُ في يوم انتصاري:
 كان لي عند النوى ثار وقد أدركت ثاري!

بغداد 1946/4/7

لحنٌ جديد

أرعرش الأوتارَ باللحن الجديد
هذه الدنيا.. هوى مستنزف
هذه الدنيا شبابٌ دافقٌ
إنه الطرفُ المغشى بالدجى
أرسل اللحم ارتعاشاً ظامئاً
حامٍ فاستوفى نهايات المَدَى
هذه العذراءُ نَبْعُ فائِرٍ
مَرَّعِ الماضي على أقدامها
نظرةٌ ملكتها فيها.. كَمَا
يا جناحاً في سمائي ضارباً
يا ندى ساقى سرايى فارتوى
بَتْ أخشى أن تشكِّي وحشةً
بَتْ أخشى غدرةً عودتها
يا فتاةَ اليومِ كوني منْ غدي
راوِحيني زهرةً مخبوءةً
أنتِ حلمٌ من رقادي هاربٌ
الفرَّاشُ المرتمي فوق الثرى
يا بقايا من جناحيه اخفقي

إنه اليوم المرجى.. يومٌ عيدي
قوة الشادي، وأنفاس النشيد
في شبابي، وانبثاق في وجودي
فضَّ عنه النورُ أختامَ الجمودِ
يشربُ الآفاقُ، مجنونَ الصعودِ
نائرًا حوليه أشلاء الحدودِ
بالتفتاتِ الأمانى والوعودِ
كلّ ما في ذكرياتي من حدودِ
يملكُ النهْرُ ابتسامات الورودِ
خافقاً آناءً، وأنا في ركودِ
منه جذبي وانتشى، واخضرَّ عودي
بين آفاقي وأن تخفيك بيدي
من صباباتي، وأيامي، وغيدي
رشفةً الظامي ونبعَ المستزيدِ
في خريفي من نضيراتِ العهدِ
لاحَ لي في يقظتي بعدَ الشroudِ
ملّ مثواه المغشى بالجليدِ
واحلمي نحو اللظى جسمَ الشهيدِ

ليت لي يا هذه الدنيا فماً لم يكبِّله ارتعاشي بالقيود
 آه لولا رهبةً تحبو على سُلمٍ من أضلع الشادي، عتيد
 كلما شام التي غنى بها أرجع الشكوى إلى الغور البعيد
 طاف بالنجوى على إصغائها لو أعانته انتفاضات القصيد
 يا لموجٍ صاحبٍ مستأسرٍ في غديري ظالم الشاطي عنيد.

بغداد 1946

حبُّ يموت

اليوم.. بين مَصَارِعِ الزَّهَرِ والصَّبْحُ يطفئُ جانبَ القمرِ
 حبي يموت.. وأنتِ لاهية لم يذرِ سمْعُكَ ضِجَّةَ الخبرِ
 الكوخة القفراءِ عَنْ كُثْبِ تلقي كآبتها على النهر..
 والدوحةُ اللقاء، رَنَحَهَا أنَّ الربيعَ يهْمُ بالسفرِ
 والجدولُ المحزون قد سرقَتْ منه التآلق، ظلَّةُ الشجرِ
 فكأنَّ هذا الكونَ صنعُ يدي ذوبَتْ في جنباته عمري!!
 اليوم أوهنُ كلَّ خاطرة تجلو هوائك، وكلَّ مذكرِ
 واليوم أكفرُ باللقاء وما صَبَّ اللقاء عليَّ من فِكر..
 واليوم أطلقُ من منَابعه ماضي.. بين مخالبِ القدرِ
 حتَّى يضلَّ بكلِّ قاحلة تاه الزمان بها بلا أثرِ
 نسي السراب زمانَ مولده فيها وماتَ تنقلُ البصرِ
 بين الصلالِ يضيع أوله ويجفُّ آخره على الحجرِ

واليوم بين توهجِ السحبِ وخبْوَهْنٍ، وضِيعَةِ الذهب..
 وتموجِ الأنغامِ في أفقِ ذاب الغناءُ به ولم يذَبْ،
 والطير نازعةً إلى سَكَنِ عبر الفضاء تصيحُ من طربِ
 يَقْضي هواي.. وأنتِ ضاحكةٌ للنجمِ، والظلماتِ، والشهبِ

عنها بقية ضوئها الشحب
 طيرٌ.. فخرٌ.. ومات في العشب
 ألقاه ثم مضى... ولم يؤب
 لفح الهجير، وجامع الحطب
 يبكي ويقذف بالدم السرب
 وعصبت باصرتيه بالذهب
 في جامح، حنق، من الغضب
 ريفٌ يفيض بفتنة عجب!

هو لو - علمت - سحابة نفضت
 هو صيحة في الليل أطلقها
 وهو الوداع، مسافرٌ تعب
 هو زهرة ضحكت فعاجلها
 وهو الشهيد على يدك هوى
 مزقت بالطعنات جانبه
 الذكريات غداً سأحرقها
 وأرجع النغمات يلهمها

والريح ترعشهن بالقبل..
 غاب النخيل وموحش السبل
 يلهو بخصرك ساعد الأمل
 بين اثنتين معلق الأجل:
 روضاً يعل ثراه بالقبل
 خر الشقي على شفا طلل،
 لا تقتليه بصامت الغزل!
 وأعود أثقل بالأسى رُسلي؟
 جاد البخيل به على عجل؟
 وأصبرُ الآهات بالعلل؟
 أني أراك.. برئت من أملي
 فيه الأنوثة عزة الرجل

واليوم.. بين أزاهر الدُفل
 والليل يختم بالسكون، على
 حبي يموت.. وأنت نائمة
 ما كان غير هوى وكل هوى
 قلبان، إن خفقا معاً هبطا
 وإذا استطار الوجد بعضهما
 وافاك ينطق بالجوى غزل
 أظلل أذكر منك ناسية
 وأراك باخلة علي بما
 أين الرسائل بت أرقبها
 إن طاف بين جوانحي أمل
 أعرضت عامدة فما احتملت

واليومَ حيثَ تمرَّغَ الحُلُمُ
 مات الغرامُ فهل حلمت به
 العاصفاتُ نسجنَ لي صَوْرًا
 ألوانهنَّ تشفُّ عن أرج
 والعطر تنبعُ من نسائمه
 يبدينَ طيفك حائرًا شحبا
 نادى.. فما صعدتُ على فمه
 فرفعتُ مصباحي، يفيض دما
 يا للذبال.. أكاد أعرفه..
 هذي رسائلُ حبيّ احترقت
 ذاب الظلام فما رأيتُ سوى
 تطوي ذراعَ فتى يقولُ لها:

في ناظريْنِ طواهما أَلَمُ
 أو سالَ منه على رؤاكِ دم؟
 يمشي بهنَّ من الردى نغم
 بؤسُ القبورِ عليه ينسجم
 سودُ الشياتِ، وتولدُ الحمم
 تنزو، وتطفِر، دونه الظلم
 إلا مقاطعَ خانهن فم
 أبصرتُ فيه دمي، ويضطرم
 ويكادُ يعرفه معي القلم
 وأعزُّ شعري غاله العدم
 أنشئ تنائُرُ حولها الرمم
 لا تذكره.. وأُطفئَ الحُلُم!

أبو الخصيب 1946/4/15

ما مات حبي

... لا النأي أطفأ سالف الحرق
 «أهواك» ما خمدت على شفتي
 «أهواك» ملء جوانحي ودمي
 أنت الفضاء، فما سعت قدم
 قالوا: تنقل كالنسيم، فما
 هل للنسيم — على تنقله
 أنت الوجود فحيثما انطلقت
 سيان عندي.. مت من ظمأ
 سيان عندي.. كنت في سحر
 روحي فداؤك، بت راضية
 لا يغضبك من أسير هوى
 فهو الحريص على الغرام إذا
 في جانبي، ولا يد الأرق
 أو مات حبي، فاعذري نزقي
 صوت يظل.. وينتهي رمقي
 بي حيث كنت فغاب عن طريقي!
 يصفو هواه، وطاف كالألقي
 حرّ الوثاق، تجاوز الأفق؟
 بي مقلتان ملكت منطلقتي!
 - ما دمت عبد هواك - أو غرق
 - ما زلت أنت سماي - أو غسق
 أني فديتك.. أو على حنق!!
 هز القيود، وثورة القلب
 ظن الغرام قضى.. فمن فرق⁽¹⁾

أبو الخصيب 16/4/1946

اسم «لباب»

السموات، بالسواد المذاب، ضائعات المدى، فيا لاكتثابي
 لم تطرُ خلفَ كلِّ نجمٍ شرود نظراتي، وإثر كلِّ شهاب..
 وتطفُ في السماء، إلَّا لكي ترسمَ بين الكواكب اسمَ «لباب»
 وصلتُ بين كلِّ نجمٍ ونجمٍ بشعاع من الهوى والشباب..
 فَهِيَ في روضة من اسمِ التي تهوى، وفي مدرجٍ وضيء الشعاب
 كيف أنساك يا لباب وأسلوك وضوء النجوم ليس بخاب
 كلما ارتادهنَّ طرفي، تذكرتك فاستتبع اذكاري عذابي
 وتجرعنَّ من سناهن كأساً تنكأ الجرحُ في الفؤاد المصابِ
 أين نهر النسيان يا أنجم التذكار يا من يهجن من أوصابي
 يبدل القلب ماؤه العذب ورداً وشراباً، بمورد وشرابِ



ملأتُ سمعي باسمك العذب يا عذراء شعري، تنهداتُ الرباب...
 فاسمك العذبُ كلَّ ما تسمع الروح من الطير هائماً في الروابي
 في سُرى كلِّ نسمة أو شعاع في لُغى كلِّ جدولٍ منساب
 في حفيف النخيل من كلِّ روضٍ في اختلاج الشراع فوق العباب
 واسألني السامرين كم بُتُّ والليلُ وضوء السماء، غص الأهاب

لا يعي مسمعايَ غيرَ حروف جمعها فكانت اسم لباب
أنا أهواك لستُ أرجو على الحبّ ثواباً، فإنّ حبي ثوابي

أبو الخصيب بتاريخ 6 حزيران 1944

زهرةٌ ذاوية⁽¹⁾

أتحيين عند انتهاء الربيع وتذوينَ يوم احتضار الشتاء؟
 كحِبُّ أتى بعد حين الشباب زواه الردى عن بلوغ الرجاء
 كعذراء.. ما زال يشكو هواه إليها، فتى جرعته الجفاء..
 فلما سلاها وكان الفراق رمى قلبها الحبُّ.. يا للشقاء
 أتذوينَ؟ ما ظلّ دون الربيع ومغدها، إلّا نجوم المساء..
 تمنيتُ يا أختُ لو تمسكين إلى مطلعِ الفجرِ، هذا الذماء..

تفردت كالشاعر المستهام إذا راح طَلَقَ الخطى في العراء
 يجوب الصحارى صده الرخيمُ فيهفو على الرمل صدرُ السماء
 تلفت والغابُ قفر الجهات، كثيباً يغني لحونَ الرثاء..
 توافيك غربائه بالنعيب وتأتيك أغصانه بالبكاء..
 إذا جالَ في جانبه الأصيل برُودَ الخطى، عاصفيّ الجواء
 وأبصرت أوراقه الذاويات أباديذُ يُثقلنَ ركبَ الهواء
 تذكرت بالشوق عهدَ الخريف كما يذكُر المبعدونَ اللقاء
 لأشبهت آماليَ الظامئات إلى زشفةٍ من رحيق البقاء
 تفتحنَ بعد ابتعاد الحبيب وصوْحُنَ؛ واحسرتا، حين جاء

(1) وردت القصيدة من دون تاريخ في الطبعة الأولى للدويان، غير أن تاريخ كتابتها ورد في كتاب «رسائل السياب» تحرير: ماجد السامرائي، والتاريخ: 1946/2/7 (م).

نهر العذاري⁽¹⁾

يا نهر، لولا منحناك وما يشابك من فروع
لاقتافت⁽²⁾ البسمات، في عيني، آثار الدموع⁽³⁾

حَجَبْتُ، بالشأو البعيد تسدّ بابيه الظلال،
وجهاً تلاقى في محياه الوداعة والجمال

مرآتك السجواء⁽⁴⁾، منذ جلوتها تحت السماء،
ما لاح فيها مثل ذاك الوجه.. في ذاك الصفاء

إن أوقد الليل العميق، نجومه في جانبيك
لماحة الأضواء، تغمر بالأشعة ضفتيك

(1) أعاد السياب نشرها في مجموعة «أزهار وأساطير» مع جملة تغييرات، نبّتها أدناه. (م)

(2) أصبحت في طبعة «أزهار وأساطير»: ما كانت. (م)

(3) أصبح البيت في طبعة «أزهار وأساطير» على هذا النحو: «ما كانت البسمات في عيني تطفأ بالدموع». (م)

(4) أصبحت: الخضراء. (م)

حدثت عنه النجم، والآهات يقطعن الخرير،⁽¹⁾
والنجم يشكو، مثلما تشكو هواك، إلى الأثير

ناشدت ألحاظ الكواكب، وهي تخترق الظلام،
ألا ينمن - وإن تشهين الكرى - حتى تنام

«أنتن أسعد ما أظّل الكون»⁽²⁾، يا زهر النجوم
أنتن أبصرتن ذاك الوجه، في الليل البهيم

حتى إذا ما رنّح النجم الأخير سنا الصباح
فانقض، تحت القبة الزرقاء، محترق⁽³⁾ الجناح

وانساب في الوادي شتات الزارعين أو الرعاه⁽⁴⁾
فالجوّ تنبض في نسائمه الندية ألف آه

أصبحت فوق المعبر المهجور، أرقب منحناك
فأبوح بالشكوى.. وتسكت عن شكاتي صفتك

(1) حذف السياب البيت هذا والذي يليه.

(2) وردت في نسخة القصيدة في كتاب «رسائل السياب» لماجد السامرائي: «أنتن أسعد ما يضم

الكون...». (م)

(3) غيرها السياب إلى: مقصوص.

(4) حذف السياب البيت هذا والذي يليه.

يا نهر (جيكور) الجميل، ومنتهى شكواك نور⁽¹⁾،
لا الشمس مطفئة جواي، ولا الكواكب والبدور

لا الصبح يوهن لاعجات الليل والوجد المثار
في مقلتي، ولا يهيض الليل أحقاد النهار

الفتنة السمرء تسرقها مياهاك بعد حين:
الشعر والعينان.. والشعر المفلج.. والعجين⁽²⁾

فإذا الهجيرة أطلقتها زرقة الأفق البعيد
فالظل مقصوص الجناح يفرّ من عود لعود

والجوسق المستوحد، المهجور، في غاب النخيل⁽³⁾
تأوي إليه الغادة السمرء لاهبة الغليل

والدوحة اللفاء تحتبس البرودة في الظلال
مهد لأطفال الحقول، وملعب رجب المجال

(1) حذف السياب البيت والأبيات الثلاث التي تليه.

(2) غير البيت الى النحو التالي: «الشعر، والعينين والشعر المنضر والعجين»

(3) حذف الشاعر هذا البيت والأبيات الثلاث التي تليه. (م)

سارت إليك بطيئة الخطوات، ذابلة الشفاه
جاءتك ظمأى.. بالبنان الرخص تغترف المياه

كم عدت مخمور الفؤاد بموعد المدّ القريب
جذلان أقتحم الظهيرة بالتطلّع والوثوب

التوت فوق الشاطئ الغربيّ، والسعف الصموت
لا يجهلان تنهداتي وهي بينهما... تموت

والغاب ساعتَي الحبيبة.. من ظلالٍ عقرباها
كم أنبأتني أنّ طرفي بعد حين قد يراها!

واليوم يسقي مدك العاتي أواخر كلّ جَزُر
لا ذاك يجلوها، ولا هذا بما أرجوه يجري

واليوم إن سكر الخريز وعاد يحتضن الجراراً
لم ألق عذرائي.. فكيف الصبر يا نهر العذارى؟

المحبة المدنسة⁽¹⁾

أُتِيبُ خَائِنَةً وَأَنْتَ الشَّاعِرُ؟ وَتَوَدُّ هَاوِيَةً وَأَنْتَ الطَّائِرُ؟
أَحْبَبْتُهَا وَجْهَلْتُ كُلَّ مَغِيبٍ مِنْ فَعْلُهَا، وَكَذَا الْغَرَامَ الْعَاثِرُ
مِمَّا يَغْصُ الْقَلْبَ فِي خَفَقَاتِهِ، وَيَرُدُّ طَرْفِي وَهُوَ بِكَ حَائِرٌ..
أَنَّ الَّتِي خَفَقَ الْفُؤَادَ بِحَبِّهَا عَامِينَ، دَنَسَهَا خَلِيعٌ فَاجِرُ
أَحْبَبَهَا أَسْفَاً وَتَحْتَ ثِيَابِهَا، مِنْ أَمْسِهَا الدَّنَسِ الْوَضِيعِ، مَقَابِرُ؟
وَنَوَاطِرَ كَانَتْ نَوَاطِرَ لِلْخَنَا وَالْعَارِ، صَيَغَ لَهَا الْقَصِيدُ الطَّاهِرُ
كَانَتْ تَغْضُضُ مِنَ اللَّذَازَةِ بَلْ كَفَى كَمْ يَسْتَطِيرُ بِكَ الْخِيَالُ الْعَاهِرُ؟
يَا مِنْ حُرْمَتٍ عَلَى الْهُوَى تَقْبِيلُهَا حَيْثُ ارْتَضَيْتَ بِمَا يَصِيبُ النَّاضِرُ
فِيمَ الْهُوَى الْعَذْرَى؟ وَيَحْكُ إِنَّهَا كَانَتْ وَجَالِبَ عَارِهَا تَتَأَمَّرُ..
وَرَفَعْتُ لِلْحَمَامِ الدَّنِيءِ عِبَادَةً عَلَوِيَّةً وَأَنَا الذَّلِيلُ الصَّاعِرُ
صَاغَ الْخِيَالُ مِنَ التَّرَابِ كَوَاكِبَا فَأَفَادَهَا أَلْقَاً، سَنَاهُ الْبَاهِرُ
لَوْلَا اتِّبَاعِي لِلْخِيَالِ وَجَدْتَنِي وَأَنَا - عَلَى مَا شِئْتُ مِنْهَا - قَادِرُ..
أَوَاهُ «بَيْرُن»⁽²⁾ أَنْتَ مِنْ عَرَفَ الْهُوَى رُوحِي فِدَاؤُكَ وَالْهُوَى يَا شَاعِرُ
الْحُبِّ تَقْضِيهِ الْمَارَبُ وَالْمَنَى مَا أَمَكْتُكَ مِنَ الْحَبِيبِ مَقَادِرُ

(1) المعنية هنا، لم يرد ذكرها في غير هذا الموضع، من هذا الديوان (ش).

(2) لورد بايرن - الشاعر الإنكليزي الشهير، ما اتصل بحسناء إلا قضى وطره منها، ونبذها بعيداً عن أجواء هواه (ش).

لا أن تُحَرِّقَ لوعةً وصباةً وتذيبَ قلبك وهو غَضٌّ زاهرٌ..
 شغفاً بغادرة سواك ينالُ من ثمراتها ما يبتُّ عنه تزاور..
 كم تخذع الشعراء روحانيةً الوهمُ حاكَّ حجابها والخاطرُ
 ما في رحاب الأرض من حوريةٍ أو في مداها الطلق روحٌ طاهرُ

أبو الخصيب - بتاريخ 1944/7/20

في يوم عابس

الريح تجأرُ بالشكَاة إلى الجداول والنخيل
والسُحْبُ واهية النقاب، تحفُّ بالصحو القتيل
تُلقي على الغاب الكثيب، عبوسَ الضجر الملول
والشمس كالأمل البعيد يذوبُ في الشجن الهزيل
أو كالغرام يغيب خلفَ حوادثِ الدهر الثقيل
أو كالحياء تغورُ بين دموعِ ذي سقم، عليل
كالبدر يكسفه النهار، كنجمة عند الأفول

ضاقَت بي الدنيا، وضقتُ بها.. كأني في رحيل..
في وهدية قفراء بُحَّ بجوها صوتُ الدليل
لا شيء لي، مما تناثر تحت عيني، في سبيلي
لا عاصفاتُ الريح، لا جردُ الأباطح والسهول
لا ظلمة الليل البعيد الغور، لا سحرُ الأصيل
لا نعمة الحادي تطير بها شجيات الهديل
حتى السراب زواه عن عيني ريان الغليل
فظللت، لا أمل يسامرني على الدرب الطويل
فيضيء ساعاتي... ولا ذكرى من الأمس الجميل

رباه والعشرون من عمري تسير إلى الذبول
سوداً، مكفنة الأهله بالتنهد والعويل
كانت تمرّ جريحة الأيام، رعناء الخيول
ظلماء مظفأة السراج، كأنها بعض الطلول...
كانت تمرُّ على الجراح السود في القلب العليل
فالجرح يهوي فوق جرحٍ والقَتيلُ على قتيل
والنار تصلى حَرَّ نارٍ غير مظفأة الغليل
ماذا جنيتُ من الزمان سوى الكآبة والنحول؟
أو أرقب الليل الطويل يذوب في الصبح الطويل..!
وأتابع الشمسَ المرتحة الشعاعِ. إلى الأفول..!
وأشيعُ البدرَ السؤوم يغيب ما بين النخيل..!
لا مأملٌ لي بالكثير ولا رجاء بالقليل!؟
وأعد أيامي لأسلمها إلى الهمّ الثقيل..?
وأعيش محرومَ الفؤاد من الهوى عيشَ الذليل؟
وأسرحُ الطرف الكئيب من التلال إلى السهول..
لأصعد الآهات داميةً وأمعنُ في عويلي!؟
ضاقَت بي الدنيا وضقت بها، كأنني في رحيل..
في وهدة قفراء بح بجوها صوت الدليل

أبو الخصيب بتاريخ 1946/1/31.

خواطرٌ حائرة

الجدولُ السلسالُ والظلُّ المرتحُ بالمياه
والشاعر الهيمانُ يشرق بالوداعة ناظراه
يستشرف الأفقَ البعيد فيستحيل على مداه
روحاً محلقةً ولحناً يهمس الوادي صده
ماذا وراءك يا حياه؟

تلك الغصونُ الشاحبات وقد ختمن على الحفيف
ينظرنَ ناحية الشتاء ويلتفتن إلى الخريف
فيرين في الأفقِ البعيدِ غضارةُ الصحو الشفيف
والموقدُ المجنون يرمقهن باللحظ المخيف..!
ألى احتراق أم رفيف
تلك الغصون؟ سل الحياه

ذاك الجناح.. أما تراه يكاد يغرق في الفضاء؟
يطفو ويرسب، مثل نجم بين ومض وانطفاء
أو كالرجاء، لو أنّ في الأكوان أجمعها رجاء

ذاك الجناح، أَلِثْرَى هو في غدٍ أم للسماء؟
 ما بين نشر وانطواء..
 أكذاك شأنك يا حياه؟

يا للتلال.. أكاد أهتف دون وعي بالسؤال:
 ماذا وراءك؟ أهو نور ما وراءك أم ظلال؟
 سهلٌ يطوف به النداء فلا يرجعُ، أم تلال؟؟
 القبح خلف الشاهقات الشم غاب، أم الجمال
 إنَّ الحقيقة كالخيال!
 والموت من صور الحياه..

تلك الزهور الداويات أكنَّ يعرفن الغرام..؟
 ما حبهن؟ نوى وصدّ، أم عناق والتثام؟
 والغدر - يا غدرَ الزهور!! أهنَّ يشبهن الأنام؟
 الحب مصباحُ الحياة، فما لقلبي في ظلام؟
 مالي حُرمت من الهيام؟
 أولستُ زهراً يا حياه؟

يا دوحَةً بين الرمال تكاد ترتشف الغدير،
 إنَّ نَشَرَ الليلُ البهيمُ ذوائبَ النجم الأخير
 بين الغصونِ الحالماتِ المصغياتِ إلى الهدير،

حتّى خفّقنَ على المياه كخفقةِ النَّفْسِ البهير -
 ما حال عاشقك الصغير؟
 هل كان يثبّتُ في هواه؟

بالأمس كنتُ أفيض بالشَّعر النديّ على تراب!!
 فنفختُ من روح الربيع به ومن سحر الشباب
 ظلّلتُهُ زمناً بأجنحة الفراش وبالسحاب
 واليوم أضحي ما غرستُ لِقَى لمنقار الغراب
 واحسرتنا لي؟ كيف خاب
 في النبات ظنّي يا حياه؟

هو جدولٌ ضحلٌ المياه يلوح ظلُّ النجم فيه
 فتبين أبعادُ السماواتِ الفساح لناظريه
 حتّى إذا بسط الأوامُ عليه أيدي وارديه
 فر القرار من الأكُفّ وعاد يسقي شاريه
 طيناً... فليس يقول إيه⁽¹⁾

غير المفجع في صده
 لست المفجع يا حياه!!

مريضة في الربيع

«إلى صديقتها المريضة في الربيع»

أختاه.. كيف خبا ضياؤك والوجود يفيض نورا؟
 عاد الربيع ندَى يذوب على السنابل، أو غديرا
 عاد الربيع فراشةً بيضاء تسترق العبيراً..
 حامت هنا.. وهفت هناك - تدغدغ الزهر النضيرا
 وترف فوق الجدول الفضي.. أنداء ونورا

عودي إليّ، كما عهدتك، جدولاً مرح المياه..
 متعانق الأمواج، ترعشه أناشيد الرعاه..
 يجلو شقائق.. عربدت جذواتهنّ على الشفاه
 يلثمن وهماً في الهواء.. ييث في دمها صداه
 ضرّجن أنفاس النسيم فأظهرتهن المياه..

عودي إليّ تحدث الساعات عن أمس الطروب
 هل تذكرين ضحى شفيف النور مكسأل الطيوب؟
 رحنا هناك.. هناك.. بين سنابل السهل الرطيب

وأنا.. وأنت.. و«من تشاء» مرنحون على السهوب
أنسيَتِ أنتِ ولا أزال أعيش بالأمس الطروب؟

والجدولُ النعسانُ يلمع في غلائل من ضباب
تُسَجَّتْ من النار الندية.. والأزاهر.. والسحاب
كالهالة القمرء يصبغها لظى نجم مذاب
والغاب عن بعد يموج.. كشاعر قَلَقَ الرغاب
أو طائرٍ نفَضَ الجناح وراح يضرب في ضباب

هل تذكرين؟! يكاد ينفجر الصدى: (هل تذكرين)
جياشة الإيقاع.. تصهر ما تُصَادَفُ، بالرنين
وقادة مثل الشهاب تشق آماد السنين
نقشتُ على أعجالهن⁽¹⁾ بأحرف اللهب الحزين
وتظللُ. مركبة الزمان تسوقها (هل تذكرين)

تلك الطبيعة في انتظاركِ.. وهي تهمس «يوم عيدي..
رقصتُ معطرة الخطى ساعاته.. رَقَصَ الورود..
والساعةُ العذراءُ تسأل أختها لِمَ لَمْ تعودِي!
والرياح تبحث عن مياه النهر.. عن ظل الخدود
عن ثغركِ الطلق الضحك يقول: هذا يوم عيدي!

(1) أعجالهن: عجلائهن - الهامش للشاعر، وهذا البيت والذي يليه يتمثل فيها الشاعر الأسطورة الإغريقية.. أسطورة فايثون وعربة الشمس (راجع على سبيل المثال، مسخ الكائنات - أوفيد - ترجمة د. ثروت عكاشة).

أختاه.. بعدَ غدٍ إلى دفء الربيع سترجعان
وأظُلُّ وحدي في شتاءٍ ليس يخضع للزمان
هيهات.. لست بمن يعود إلى الجداول والجنان
أنا جدول ختم الجليد على خطاه بأفعوان!!
غلّ.. يكاد صليله المسموم يهتف: ترجعان

أنفاسي المتجمدات على ضفافي كالصخور
يصرعن أزهارَ الغرام بمنجل البرد النثير
هيهات يصهر ظلهن كيان مائي، بالعبير!
لكن أنفاسي، إذا مازجن أنفاس الهجير
ذابت فزلزل سيلُها الفوّارُ أقدامَ الصخور!

1947/4/18

في أخريات الربيع⁽¹⁾

يا ضياءَ الحقول، يا غنوة الفلاح في الساجيات من أسحاره
أقبلني، فالربيع ما زال في الوادي، فبلي صدالك قبل احتضاره
لا تصيبُ العيونُ إلّا بقاياها، وغير الشرود من آثاره:
دوحةً عن جدولٍ تنفض الأفياء عنها وترتمي في قراره
وعلى كلّ ملعبٍ زهرةٌ غيناء فرّت إليه من أيّاره

المساء الكئيب، والمعبرُ المهجورُ، والعباساتُ من أحجاره⁽²⁾
مصغياتٌ، تكاد من شدة الإصغاء أن توهمَ المدى بانفجاره
ترمق⁽³⁾ الدربَ، كلما هبّت الريحُ وحفّ العتيقُ من أشجاره
كما أذهل الربى نوحُ فلاحٍ يبثُ النجوم شكوى نهاره
صاح: «يا ليل»، فاستفاق الصدى الغافي على السفح والذي في جواره

(1) نشر السيّاب هذه القصيدة في «أزهار ذابلة»، لأوّل مرّة، ثم عاد لنشرها في «أزهار وأساطير»

مع تغييرات نوردها للقارئ في الهوامش التالية. (م)

(2) أضاف الشاعر الحرف «في» في أوّل الشطر الشعري.

(3) غيّر الفعل من «ترمق» إلى «أرمق».

فإذا كلُّ ربوةٍ وهي ⁽¹⁾ «يا ليل»... ونامَ الصدى على قيثاره!
 أين منهم ظل ⁽²⁾ أقدامك البيضاء بين الحشيش فوق اخضراره
 مثلَ نجمين أفلتا من مدارين فجال الضياءُ في غير داره
 أو فراشين أبيضين استفاقا يسرقان الرحيق من خماره!!

أنتِ في كلِّ ظلةٍ ⁽³⁾ موعِدٌ وسنانٌ، ما زال يومُهُ في انتظاره

(1) غير الضمير «وهي» بكلمة «رجع».

(2) غير كلمة «ظل» إلى «خفق».

(3) غير «ظلة» إلى «ظلمة».

أمنيات

أمنياتٌ دغدغتُ حسيّ بإغماء طروب
وانتشاء فاتر الآماد، نعسان الطيوب..
الأريج الدافئ المغناج، منغوم الهبوب
أسكرته الليلة القمرء في سهل رطيب

والنداء الهامس المسحور، لو أصغيت حيناً،
طافَ بالأرواحِ أشواقاً ووافها حيناً..
فاض ملء المخدع المعطارِ شدواً أو رنيناً
شفَّ حتى قالت العذراء: ناداني حبيبي

أنت يا من تحسبُ الحبَّ اعتناقاً وابتساماً
لا ضراماً يجعلُ الأرواحَ تشتاق الضراما
لا خلوداً خالقاً من هزة القلبين عاما
مائج الأزهار دفاً بشدو الغندليب

أنت يا حلم الربيع الطل ما بين الأقاحي
يا عروساً في الأساطير مندأة الوشاح

نافضاً (طفلُ الهوى)⁽¹⁾ من فوقها ظلّ الجناح
وهي وسنى تسرقُ الأنفاسَ من ريح الجنوب

أقبلني.. فالضفة القمراء تندى بالفتور
والضياء الحالم استرخى على دفء العبير
مرعشاً ظلّ الأزاهير النشاوى، في الغدير
أقبلني.. ما كانت القمراء كي لا تستجيبني

أسبلي، كالجدول المكسال، هاتيك الشعور
واتركها ترشف الأنسام والأضواء نورا
وليعبّ الكوكبُ العريبدُ منهن العطورا
ذائباً فيهن... يدعو. يا نجوم الليل ذوبي!

ثم فيضي أغنياتٍ لا أعني منهن معنى..
ربما حدثنَ عن آذار أو خبرنَ عنا..
ربما حركن في الدنيا مني أو هجنَ حزنا!!
غير أنني سامعٌ فيهن أنغامَ القلوب

ربما أطلقنَ في قلبي جناحَ الذكريات
ربما أوحينَ لي بالخاطرات الموجعات
عن هواك البكر.. عن ماض خفي الحادثات
ربما أنطقنَ في ثغري سؤال المستريب؟

(1) طفل الهوى: كيوبيد إله الحب (ش).

أرعشي، بالضمّ والتقييل، في ثغري سؤالا
 كاد أن ينساب ملء الليل آهاتٍ طوالا
 أحرقي ألفاظه الحمراء بالنار اشتعالا
 ربما كان انتحاراً لهواناً أن تجيبي

واهتفي، ولتهتف الدنيا إلى حين الصباح
 اهتفي حتى يهبّ الطيرُ مطلقَ الجناح
 باحثاً عن عاشقين استلقيا بين الأقاح:
 «عانقيني يا إلهاتِ الهوى.. هذا حيبي!!»

أقداح وأحلام⁽¹⁾

أنا لا أزال وفي يدي قدحي يا ليل.. أين تفرق الشرب؟
 ما زلت أشربها، وأشربها حتّى ترنح أفقك الرحب
 الشرق عُقْر بالضباب فما يبدو، فأين سناك يا غرب؟
 ما للنجوم غرقن - من سأم - في ضوئهنّ وكادت الشهب؟
 أنا لا أزال وفي يدي قدحي يا ليل - أين تفرق الشرب؟

الحنّ بالشهوات مصطخب حتّى يكاد بهنّ ينهار
 وكأنّ مصباحيه من ضرج كفّان مذهبهما ليّ العار
 كفّان!! بل ثغران قد صبغا بدم تدفق منه تيار
 كأسان ملؤهما طلى عصرت من مهجتين رماهما الحب
 أو مخلبان عليهما مزق حمراء تزعم أنّها قلب!!

الخمير جمعت الدهور، وما فيهن بين جوانب الحان⁽²⁾

(1) نشرت القصيدة في ديوان السياب «طبعة دار العودة»، فصل «قصائد لم تنشر في دواوينه»، وهذا غير صحيح، إذ أنها نشرت في الطبعة الأولى لديوان «أزهار ذابِلة»، ص (53). ومن ثم نشرها في «أزهار وأساطير» مع جملة تعديلات أبيتها في الهوامش التالية. (م)
 (2) حذف الشاعر هذا المقطع كاملاً.

يا ويحها! أسكرتُ أم سكرتُ أم نحن في السكرات سيّان؟
 رمت العوالم والدهور على ثغري، وفوق يدي.. وأجفاني
 كقفي تمّدّ فما تناولني كأساً لعيني خمرها نهب
 وأصافح الدنيا.. فيا عجا البعدُ لأنّ.. وأعرض القرب!

يا ليل أين تطوف بي قدمي؟ في أيّ منعرج⁽¹⁾ من الظلم؟
 تلك السبيل⁽²⁾.. أكاد أعرفها! بالأمس خاصر طيفها حلمي!
 هي غمد خنجرك الرهيب وقد جردته ومسحت عنه دمي
 تلك السبيل⁽³⁾، على جوانبها تتمزّق الخطوات أو تكبو
 تتشاءب الأجساد جائعة فيها... كما يتشاءب الذئب!

حسنا يلهب عريها ظمأي فأكاد أشربُ ذلك العريا
 وأكاد أخطمُه فتحطمني عيانان جائعتان، كالدينا
 غرسْتُ يدُ الحمى على فمها زهراً طوى شهواتها طيا⁽⁴⁾
 إن فتحته بحرّها شفة سكري⁽⁵⁾ يعربد فوقها ندب
 رقص اللهيب على كمائمه ومشى الطلاء يهزه الوثب!

(1) أبدلها بكلمة «منعطف».

(2) أبدلها بكلمة «الطريق»، وأبدل «خاصر» بـ«عتم».

(3) أبدلها بـ«الطريق».

(4) أبدل الشطر الثاني بـ«زهراً بلا شجر فلا سقيا».

(5) أبدلها بكلمة «ظمأي».

عين يرنح هذبها نفسي وفلم يقطع همسه الداء
 ويدُّ على كتفي ملجلجة ربا.. ويك! أتلك حواء؟!
 لا كنت آدمها ولا لفحت فردوسي الخمرى صحراء!
 صوت النعاس يرن في أفقي فتذوب ناعسة به السحب
 إن الفراش يقيك يا قدمي سوء العثار إذا دجى درب⁽¹⁾

أنا حائرٌ... متوجف... قلق كالظلّ بين جوانب البحر⁽²⁾
 المدّ قرّبني إلى شبحي والآن تبعدني يد الجزر
 وأنا الضياء تخيفني دجن وأخاف أن سأضيع في الفجر
 يا نوم كلّ عوالمي حجب ولو التقيتك ذابت الحجب
 وانثال من سهري على سهري ينبوعك المتثائب الرطب

أثملت بين جوانحي أملا ما كنت أعلم أنه أمل⁽³⁾
 مثل الفراشة عاد⁽⁴⁾ يحبسها دوح بذائب طلّه خضل
 لولا خفوق جناحها غفلت بيض الأزاهر عنه والمقل
 أنا من ظلالك بين أودية عذراء، كلّ مهادها⁽⁵⁾ عشب

(1) أبدل البيت كاملاً الى النحو التالي

«وانثال من سهري على سهري ينبوعه المتثائب الرطب».

(2) حذف الشاعر هذا البيت والأبيات الثلاث التي تليه.

(3) غير البيت الى النحو التالي

«يا نوم، بين جوانحي أمل لم أدر، قبلك، أنه أمل». (م)

(4) أبدلها بكلمة «بات».

(5) وردت «سهادها» في طبعة دار «العودة»، والأصل «مهادها» في الطبعة الأولى للديوان (م).

هام الضباب على جوانبها⁽¹⁾ طلّ الوشاح... كنجمة تخبو

أنا كوكبٌ ظمآن ترعشه نطف مؤرجة⁽²⁾ من السحر⁽³⁾
أنا غير جسمي - عالمي حلم بكر الظلال، ولمحة عمري
قلبي تغربّ عن أحبّته وانسلّ من نغماته وتري
فلإذا لثمت فغير خادعة باتت لكلّ مخادع تصبو
وإذا شدوت أرّن، في أفقٍ عبر السماء، غنائي العذب

هو يا فؤادي طيفها مسحتُ عنه الترابَ أناملُ الغسق
هو غير تلك... أما ترى ألقا؟ هو من دمائك أنت من حرقني
هو غيرها... غدرت، وبادلني⁽⁴⁾ حبي، وضمد بالسنا أفقي
ومن المهازل أن يرى أمداً بين الخيانة والهوى هذب!⁽⁵⁾
أين العوالم؟! كيف غيرّها نوم يرف وخاطر صب!⁽⁶⁾

خفقت ذوائبها على شفتي وسنى، فأسكر عطرها نفسي
نهر من النفحات أرشفني ريحاً تريب مجامر الغلس

(1) أبدلها بكلمة «رفارفها».

(2) أزعج: أزعج النار، أشعلها. (م)

(3) حذف الشاعر المقطع كاملاً.

(4) غير الشاعر الشطر الأول الى «هو ما نحن اليه، بادلني». (م)

(5) أصبح البيت على هذا النحو: «فلإذا لثمت فغير خادعة باتت لكل مخادع تصبو»

(6) أصبح البيت على النحو التالي: «أفكان سورا قام بينهما - بين الخيانة والهوى - هذب؟»

فكأنَّ نايأَ ضمخته يدا آذَارَ، ناعِمَ ليلةَ العرس
فغفا وما زالت ملاحنُهُ ملءَ الفضاء، يعيدها الحب
أو أنَّ سوسنةً يراقصُها رجع الغناء، بشعرها تربو

يا قبلة أخذت على عجل أفدي بعمرى ذلك العجلا⁽¹⁾
الشعر سَتَرَ بالظلال فمي فهوى على الوجنات واشتلا
فعلى جوانبهنَّ منه سنا يدعوه من جهل الهوى: خجلا
فضح احمرارك يا خدود فما ما زال يفضحني بما يحبو
هو طفلك اللاهي ينازعه أبداً إلى زهراتك اللعب

يا جسم ذاك الطيف، يا شبحا من ذكرياتي، يا هوى خدعا⁽²⁾
لعناتي الحنقات ما برحت تعتاد خدرك والظلام معا
خفقت بأجنحة الغراب على عينيك تنشر حولك الفزعا
الصبح، صبحك، ضحك شامته دام، وليلك مضجع ينبو
وإذا هلكت غداً.. فلا تجدي قبراً... ومزق صدرك الذئب!

والبوم يملأ عشّه نتفاً من شعرك المتعفّر الضجر⁽³⁾
ويعود ثغرك للذباب لقي ويداك مثقلتان بالحجر!
لا تدفعان أذاه عن شفة بالأمس أخرس لغوها وتري

(1) حذف السياب المقطع كاملاً.

(2) أصبح الشطر الأول على النحو: «يا جسم طيفك، أنت، يا شبحا»

(3) أبدل «الضجر» بـ «النَّخِر». (م)

وليسق من دمك الخبيث غداً دوح تعشّش فوقه الغرب⁽¹⁾
تأوي الصلال⁽²⁾ إلى جوانبه غرثى... ويعوي تحته الكلب

ويعود، من خشباته، نزق جان، بمقبض خنجر دام⁽³⁾
ويعدمنه سرير زانية تهوي فتثقله بأثام
وتظلّ أعواد المشانق من أعواده، كُسيّت بأجسام
حتّى إذا عصف الذبول به وهوى عليه المعول العضب
كان الوقود لقدّر ساحرة بين المقابر شأنها القشب⁽⁴⁾

(14 - 12 - 1946)

(1) الغربان. (ش)

(2) الحيات. (ش)

(3) حذف السياب المقطع كاملاً في ديوان «أزهار وأساطير». (م)

(4) سقي السم. (ش)

عاشقُ الوهم

طيفٌ أزاحته عن جفنيك عذراءُ
 والنجم ينسابُ في ماء الغديرِ صدىً
 طيفٌ مضى مثلما ذاب السحابُ على
 خانتك حواء فاستبك الفؤادَ لظىً
 يا عاشقُ الوهم في جثمان غادرة
 أصبحت تجري وراء العاطفات دماً
 يسري إلى الواحة الريا ويسبقه
 واليوم هذأت من تلك الدماء، فما
 كالجدول الثائر الدفاق منطلقاً
 أهوى على الجدول النائي يعانقه
 تستقبل القبة الزرقاء بينهما
 والجدولان انثيالاً ليس توقفه،
 حتى إذا استوقفته الشمس طالعةً
 واستذكر الماء، في الشطين زنبقةً
 واهتاجت الجدول الطاغى متيمةً
 ذاب اشتياقاً إلى مجراه، واحترقت
 والجدولان انثيالان استحثهما
 عاداً ودون التلاقي من ضفافهما

والصبح فوق السهول الغين أنداء
 مسراه ومضٌ وموسيقاه لألاء...
 صحراء... فانتال من أهدابك الماء
 إن كنت أول من خانت حواء!
 هل تُنبئ النرجس المعطار صحراء؟
 ظمآن ما بل من ناربه إرواء
 حرّ الغليل إليها.. فهي جدباء!
 أبصرت؟ أين الندامى والأحباء
 من شاطئه وقد ساقته أنواء!!
 فالضفتان ارتعاشات وإيماء..
 موشية بالظلال الفيح جلواء
 في لجة الشاطئ المغمور لفاء..
 من مخدع الشرق واسترضته أضواء
 غرقى لها في هدير الموج إصغاء
 من سامر النخل عبر الشط فرعاء
 أمواجه من هواها فهي حمراء
 روحان: راض بما يلقي ومستاء
 شتى موانع أدناهنّ شماء

حاشاك حاشاك يا نفسي فما خُلِقْتُ
 أنت الفراشة ما تهوى سوى لهب
 فليعشق الدم واللحم الأخساء
 وليعبثوا بالنهود المائجات على
 صدر من القلب خالٍ، مثلما شاؤوا
 وليرشف الطلّ من تلك الشفاه فمّ
 لم يُذكِ فيه اللهب الخالد الناء
 ولتشهد الكاعبُ الحسناء مصرعها
 لو أنّها في الغد المنكود حسناء!

بغداد/ 26/ 1/ 1947

اللقاءُ الشاحب

يا قلب.. بالأمس اشتهيت اللقاء
واليوم كان الملتقى كيف كان؟
واحسرتا.. فيم الأسى والبكاء
يا من بلغت الأمنيات الحسان؟

ب. س

فَارَقَ الْوَكْرَ هَازِئاً بِالْدماءِ
يرفان في رحابِ الفضاء
والأنواء.. فوق استطاعةِ الأنواء
الحبِّ وَلَّى - بأغنيات اللقاء!
وعودي بضحكةٍ استهزاء
وهبت «الحياة» كلَّ الوفاء
صامتٍ غير حافلٍ بالبكاء
جوسقي لا يُظِلُّ غيرَ الهواء
على ضفّتيه نجمُ المساء..
على الأرض من خيالِ الشتاء
جذوةٌ من هوىٍ بغير انطفاء
والنأي وانسكاب الغناء
وارتعاشي بفائزٍ من دمائي

الجنّاحُ الطليقُ دونَ انتهاء،
والجنّاح الطليق والجرح، ما زالاً
والجنّاح الطليق، والجرح،
فاصدحي يا قياثري - رغم أن
شيعي، النعش، بالزهور، إلى اللحد..
لستُ مَنْ ضَيَّعَ الوفاءَ ولكنّي
أُضَيِّعُ الدمعَ ما جرى فوق رمسٍ
غاب عن مقلتي ريفي وأضحى
أيها الجدولُ الذي كان يلقاني
أيها الدوحُ يحرقُ الصيفُ ما يَلْقَى
كنتُ في جنةٍ من الريف، لولا
الدجى والنخيل، والسامر المطراب،
وارتعاشُ النجوم في قاع كاسي

وانبجاسُ الدموع في عيني العبرى
فاعذر الطرفَ كلما جفت الأقداحُ
واعذرَ العاشقَ المعنَى إذا باحَ،
.. وإخفاؤهن خلف الأناة
فامتدَّ وجهةً (الزوراء)⁽¹⁾..
بما يعتريه، للصهباء!!

ربما طاف بي، وقد نامت الأفياءُ
هاتفٌ أنطقَ السكونَ وأحى
من وراء النخيل، يعلو.. وقد
صوتُها ذاك.. جنحته ارتعاشاتُ
فهو خفقُ الشراع نادى غريباً
والخريف الطروب في حلمٍ ظمآنَ
والحداء البعيد تُلقني به البيداءُ
والغناء الشرود وأقى به الموتى
والحفيف الوليد أصغى إليه
والجناح الذي يرفُّ.. فيعطو⁽²⁾
قرب الشوق من لغاها، وأدنى
ما دخانُ الشقيق⁽³⁾ من (فارس)
فاح فانجابَ عن عيون السكارى
واستفاض الوجود بالعطر والأطياف
وانطوى ساعد على خصرٍ عذراءَ

فوق الوسادة الخضراء
وترأفي مقابر الأصداء!
ذاب بلفح الهجيرة الحمراء
تحدّينَ عاصفاتِ التنائي
حائرأفي الجزيرة القفراء
تهاوى على الثرى من عياء
في سَمْعٍ تائه في عماء
صدى عابرٍ من الأحياء
جدولٌ جمدته ريحُ الشتاء
أزغبَ الريش بعد طولِ الرجاء
من خطاها توهمي وافترائي
البيضاء ملءَ المجامر البيضاء
عالمٌ حاقدٌ على الأشقياء
يسن في شفيف الجواء
سَرَتْ في غلالةٍ من هباء

(1) الزوراء: بغداد (ش).

(2) عطا الشيء، وإليه: تناوله، أخذه. (م)

(3) الشقيق: الأفيون - (ش)

وانتشى لائتم.. وأهوى على نهد
 ما دخان الشقيق من (فارس)
 يمنح الناشقين ما تمنح المشتاق
 أصبح الريف دارها فهي روح
 همسها وارتماؤها في ذراعي،
 مئة يا خيال.. هيهات أنساها،
 مئة يا خيال أن يصبغ النائي
 مئة يا خيال أن يلثم النجم
 من النور مولع بالنساء
 البيضاء ملء المجامر البيضاء
 أوهاهم حبه من عزاء!
 خافق فوق ساعدي كالضياء:
 وهمسي.. وصرختي.. وارتمائي!
 ولولاك.. أين كان التجائي؟
 ببغداد وهو في (الفيحاء)⁽¹⁾
 اندفاقات نوره ثغر ماء!

عدت.. بل عادت الجراح الدوامي
 لا أريد الضماد من هذه الأيدي
 لا أريد الضماد منهن.. حسبي
 كنت إن أفرغ ارتكاض الليالي
 فاعذرني إذا تشوقت - ما تحلو
 كيف أشتاق حين لا دارها داري،
 كيف يهتاجني خريرو وأجفو
 يا لقاء هوث له الكأس من كفي
 أنت أحرست صيحة الشوق في
 حرك الوجد من يدي فهي تمتد..
 والتحايا⁽²⁾ على فمي ذاهلات
 فاحذري لمسهن قبل الشفاء
 فإن الضماد من كبريائي
 نجوة من تحرش واعتداء
 أكؤس الصبر أترعها دمائي
 لي الكأس من يد شلاء
 وأجفو وناظراها إزائي؟؟
 جدولاً؟ ليس ذاك شأن الظماء
 فأدمى حطامها من إبائي
 ثغري وخيبت مأملي باللقاء
 فلا تلتقي بغير الهواء
 يابسأت الرنين فوق «المساء»

(1) الفيحاء: البصرة (ش).

(2) من التحية المعهودة: مساء الخير (ش).

أين أين السلام ينساب في عينيك
أين يَمْنَاكِ وهي تهتز في يَمْنَايَ
قبل انطلاقه لالتقائي؟؟
لحناً من الهوى والوفاء؟؟

وانبساط الأَكْفِّ بالأصفر الرنّان
والتقاء العيون في قاع كأس
شاحب ذلك أَلْقَى فَكْفَيَّ
اسكتي.. حسبك.. اسكتي، إن عيني
اهزئي.. واعبئي بقلبي.. فما أنت
أنت.. ما أنت؟ عابر في طريقي
كنت أدعوك فتنة الشعر،
هان قلب غشاؤه أصفر التبر
غير انبساطها بالرجاء
أين منه التقاؤها في السماء؟!
عن حديث مررت بالرياء
تلمح الموت خلف ذاك الطلاء!
سوى غادة ككل النساء
لاح لي ثم غاب فيما ورائي
واليوم سأدعوك فتنة الأغنياء
ودقائه رنين الغشاء!

إصدحي يا قياثري.. أنصت
إصدحي!! قبضة الخلود ستهوي،
نبئي ذلك الحطام الذي أولته
أنني قد نثرت زهري على أرضي..
الكون انتظاراً للنغمة عذراء
بعد حين، على قيود الفناء!
روحاً ضلالة الشعراء
وأطلقت بليلي في سمائي!

.1946/10/15

عينان

«إلى ذات العينين اللتين لا يعرف لونهما»

نامَ في مُقلَّتَيْكَ بحرانِ يتالان
بالضباب الشفيفَ يَفْنَى شعاعُ
يلثم الموج راعشاً خافقَ الأنفاس..
أرشفني ناظريَّ دفء العذارى
قطرة أو أقل. ثمَّ اتركيني
ذاهلاً.. مثل كوكب رتحتَه
بالدفءِ، والندى، والضيءِ
البدرِ فيه.. وناسماتُ الهواء
حتَّى يذوب دون ارتواء
وانبثاق الهوى، ولون السماء
ناعس الحسن.. خادر الأعضاء
نسمة.. في الغدير.. عند المساء

إنَّ في مُقلَّتَيْكَ دنيا من الأحلام
الأماسيِّ، والحبيبان، والساعاتُ
قبل أن تحرق الشفاه التقاءً
قبل أن تمس السموات والأبادُ
خفقة ترمي على خفقة سكرى..
بالحبِّ، والنوى، واللقاء:
يهربن قبل ريِّ الظماء
وابتعاداً مرشحاً بالتقاء
بعض العناق.. بعض الغناء
وقلباً لإلفه في ارتماء!

ذلك اللون.. ذلك السرِّ في العينين..
الدجى، والمروج في الضحوة
ماذا وراء ذاك الخفاء؟
السجواء، والبحر، ذوبت في هباء

في سماوين تشربان السموات بكأسين صيغتا من نقاء
 هذه الذكريات يلمحن في عينيك ما بين ومضة وانطفاء..
 هنَّ يرقصن ذلك اللون أو هذا على ناظريك دون انتهاء
 فهو لون الحياة هيهات يُدرى وهو لون السراب في الصحراء!

1946/12/23

هل كان حباً⁽¹⁾

هل تسمين الذي ألقى هياما؟
 أم جنوناً بالأمانى، أم غراما؟
 ما يكون الحب؟! نوحاً وابتساما؟
 أم خفوق الأضلع الحرى، إذا حان التلاقي
 بين عينينا.. فأطرقت، فراراً باشتياقي
 عن سماء ليس تسقيني، إذا ما
 جئتها مستسقياً، إلّا أواماً؟⁽²⁾

هل يكون الحبّ أني⁽³⁾
 بستّ عبداً للتمني؟!
 أم هو الحب إطراح الأمنيات
 والتقاء الشجر بالشجر، ونسيان الحياة؟
 واختفاء العين في العين انتشاء

(1) هذه القصيدة نشرت أولاً في ديوان «أزهار ذابلة» - ص 68، وهي مؤرخة بتاريخ: بغداد 1946/11/29، ثم أعاد السياب نشرها في ديوان «أزهار وأساطير»، بعد اجراء تعديلات عدة على النص نبيها هنا. (م)

(2) عطشاً. (ش)

(3) حذف السياب المقطع الكامل بين السطر الثامن «هل يكون الحبّ أني» إلى السطر الرابع عشر «أو كظل في غدير» (م)

كانشال عاد يفنى في هدير
أو كظل في غدير...
أمس.. بالأمس التقينا في سفار⁽¹⁾
هاج ذكرى كاد ينساها وينساني زماني
كان يوم آمنت فيه الآماني بالأماني
كان يوم فكّ عن ساعاته غلّ المدار⁽²⁾
ثمّ أمسى تحت أقدام الليالي
مثل جرح في الرمال
داسه الركب وسارا...

يومك المرموق... لا يوم تقضى قبل عام⁽³⁾
فاسمعيني، فالأماني كلها أن تسمعيني:
أذكرتني فرحة اللقيا بصهبائي وجامي
أن أن تحسى على نخب العيون!
بت أسقاها دهاما
أحسب الشرب اعتناقا
بيننا، هل كان حباً ما أعاني؟

(1) حذف السياب المقطع الكامل بين السطر الخامس عشر « أمس بالأمس التقينا في سفار » إلى السطر الحادي والعشرين « داسه الركب وسارا ». (م)

(2) في هذه القصيدة محاولة جديدة، في الشعر المختلف الاوزان والقوافي، وهي كأغلب الشعر الغربي (وخاصة الإنكليزي) تجمع بين بحر من البحور ومجزوآته أي أن التفاعيل ذات النوع الواحد يختلف عددها من بيت إلى آخر. (ش)

(3) حذف السياب المقطع بين « يومك المرموق.. » إلى « بيننا هل كان حباً ما أعاني ». (م)

العيون الحور، لو أصبحن ظلاً في شرابي
جفت الأقداح في أيدي صحابي
دون أن يحظين حتى بالحباب
هيئي يا كأس من حافاتك السكرى مكانا
تتلاقى فيه يوماً شفتانا
في خفوق والتهاب
وابتعاد شاع في آفاقه ظل اقتراب!

أهي حب كل هاتيك الأمانى؟⁽¹⁾
أم روى سكران مجنون اللغى طلق المعاني⁽²⁾
غارق الألاحظ في غور من الأقداح... ناء
راسم بالإصبع الحمقاء، في عرض الفضاء
كل أسماء الحبيبات الحسان
كلمان نادى... أتاه الساقيان
بالطلى آنأ... وأنا بالأغاني؟

كم تمنى قلبي المكلم لو لم تستجيب
من بعيد للهوى أو من قريب
آه لو لم تعرفي، قبل التلاقي من حبيب!

(1) حذف السياب المقطع بين «أهي حب كل هاتيك...» ولغاية «بالطلى أنا... وأنا بالأغاني». (م)
(2) همست صاحبها في أذنها «لقد أحبك الشاعر»، فقالت «أبهذه السرعة؟ لا أصدق. إنه أثر
الخمرة والغناء». (ش)

أي ثغر مسّ هاتيك الشفاها
 ساكباً شكواه آهاً ثمّ آهاً؟؟
 غير أنّي جاهل معنى سؤالي عن هواها
 أهو شيء من هواها... يا هواها!؟

أحسد الضوء الطروبا
 موشكاً، مما يلاقي، أن يذوبا
 في رباط أوسع الشعر التثاماً
 السماء البكر من ألوانه أنا وأنا
 لا ينيل الطرف إلّا أرجواناً
 ليت قلبي لمعة من ذلك الضوء السجين.
 أهو حُبٌّ كلّ هذا؟؟ خبريني!

بغداد 1946/11/29

السائلةُ السوداء

لَيْتَ الْخَلِيِّ وَمِنْهُ شِكْوَاكَ أَصْمَاهُ خَطْبُكَ حِينَ أَصْمَاكِ
 سُودَاءُ وَيَحْكُ أَيُّ فَاجِعَةٍ سُودَاءُ تَكْمُنُ تَحْتَ مَرَاكِ!
 يَا مَنْ تَهَضُّمُهَا، عَلَى كِبَرٍ، فَقْرِي كَرُّ بَقَلْبِ سَقَاكِ
 فَلَوَاتُ (أَفْرِيْقِيَّة) انْتَفَضَتْ لَمَّا تَرَدَّدَ صَوْتُكَ الْبَاكِ
 جُنَّتْ مَغَاوْرُهَا لَمَّا سَمِعَتْ وَهَفَّتْ خَمَائِلُهَا لِلْقِيَاكِ
 وَبِكَلٍّ مَنَعُطَفَ بَكْيٍ أَثَرُ قَدْ أَرْضَعْتَهُ الْعَيْشَ رَجْلَاكِ
 فَعَلَى الْغَدِيرِ غَشَاوَةٌ عَبَثَتْ بِالْمَوْجِ فَهُوَ مَفْجَعٌ شَاكِ
 وَعَلَى الْأَزَاهِرِ هَجَعَةٌ وَدَمٌّ سَاجٌ تَطْلَعُ مِنْهُ عَيْنَاكِ
 وَالْغَابَ هَزَّ جَنَاحَ طَائِرِهِ جَرَحَ تَمَرٍّ عَلَيْهِ كَفَاكِ
 وَجَرَتْ دُمُوعُكَ فِي دَجَى هَرَمٍ وَاهِي السَّمَاءِ، بَنَاهُ خَدَاكِ

يَا مَنْ تَمُدُّ يَدَ الْبَرِّاءِ وَتَظِلُّ تَتَبِعُ شَخْصَهُ النَّظْرَا
 يَا مَنْ تَعْدُ خَطِيئَتِي تَمَرًّا شَتَّى تَزْعَزَعُ صَبْرٌ مِنْ صَبْرَا
 مَا بَيْنَ لَاهِيَةٍ، مَرْنَحَةٍ مِنْ فَرَحَةٍ، جَلَبَتْ لَهَا الْكُدْرَا
 وَبِطِيئَةٍ كَسَلِيٍّ، يُنْقِلُهَا وَاهِي الْفُؤَادِ يِعَاتِبُ الْقُدْرَا
 مَا بَيْنَ عَاجِلَةٍ إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنْهَا تَسْلُلُ رُبُّهَا حَذْرَا
 وَشَجِيئَةٍ وَقَفَتْ بِجَانِبِهَا لَتَنَالُ مِنْ وَقَفَاتِهَا ثَمْرَا

يا قصّة دميّت ومربّها قلبُ الغنيّ ضحى فما شعرا
حركت خافقَ شاعرِ حنق فمضى يبت الشعر مستعرا
وأقامها حرباً مضرجةً تُصمي القساءَ وتفلقُ الحجرا
وتهزُّ بابَ القصرِ صارخةً هوجاءَ تقذف حولها الشررا

بالأمس كنت ضحية الرق واليوم أنتِ ضحية العتق
الرقُّ زالَ فأنتِ مُطلقةُ في عالمٍ متهلّلٍ الأفقِ
السيدُ القاسي غداً حلماً والقيدُ لأنّ لقبضةِ الحقِّ
وشقيتِ أنتِ، فأَيّ فاجعة صدعتِ فؤادكِ يا ابنةَ الشرقِ؟
يا من عريتِ وأنتِ خالعةُ عن منكبيكِ مطارفَ الرقِّ
يا من ظمئتِ وأنتِ عائفةُ كأسَ العبيدِ وذُلّ ما تسقي
يا من سغبتِ وأنتِ تاركةُ زادَ الأسيرِ بغير ما شوقِ
الرقُّ فجَرَّ راحتيكِ دماً يغلي، وصاحَ تناولي رزقي
والعتقُ مهلكةُ، معالِمها سوّد، تعجُّ بكل ما يُشقي
غلانٍ مضطربان ما اختلفا يغريهما بك ألأمُ الخلقِ

يا من رأيتُ بحالها حالي ورثيْتُها فرثيْتُ آمالي
إنّا لمثلُك في مواطننا نشقى وينعمُ كلُّ محتالٍ
نحن العبيدُ تبيعُنا أممٌ غشّمي، بمالٍ خابَ من مالٍ
شرقٌ يبيع لمغربٍ جشع خالي الجوانح، فارغ البالِ
ومتوجان تهادياً درراً غواصُهُنَّ دفينُ أسمالِ
ولّى شبابُكِ ما انتفعت به وذوى ربيعِ شبابنا الحالي

ما بينَ مغتصبٍ يجرُّعنا كأسَ الهوانِ وقلْبُهُ خالي
 وأخي ثراءٌ لا تحرَّكه حشراتُ زَرَّاعٍ وعمَّالِ
 لولا هـما لأمنَّتْ مسغبةٌ تخشى، وبِتَّ بخير ما حالِ
 لولا هـما لخلأ ثرى وطني من كادحينَ سدى، وسؤالِ

بغداد عام 1945

حاطم الأغلال

«عمّت الولايات المتحدة الأميركية، موجة عارمة
من اضطهاد الزوج فأعدموا لغير ما سبب، وطوردوا
دون جريرة منهم - وتآلف وفد من الزوج يترأسه المغني
الزنجي الشهير «روبسن» - قابل ترومان واحتجّ عليه
فإلى الفنان الغاضب، الثائر على الظالمين، إلى روبسن،
أرفع هذه القصيدة!».

املاً الكونَ اربداداً واضطراماً
يا سواداً سامه الخسفُ الحماما
يا زنوداً خلّفت شمسُ الضحى
فوقها، من نورها الحامي، ظلاماً
أطلعي من ليلكِ الفجرَ الَّذي
يترع الدنيا صفاءً وسلاماً
الدم الحرُّ الَّذي فيكِ، انتضى
من مذلات الأرقاء الحساما
خاطبي الجلّادَ، يوم الملتقى
واجعلي بارودك الفظ كلاماً..
ذلك الطاغى أما هاجَ الصدى
منه صوتٌ، والوغي تذكي ضراماً؟

وأدعى - يا بعد ما كان ادعى
 أنه المنجي من الذلّ الأناما؟!
 نصره الموعودُ عرسٌ ضاحكٌ
 للتأخي! ليت ذاك العرس داما!
 حاطم الأغلال - يا للمنتهى -
 صاغ غلاً ثانياً ذاك الحطاما!
 قصة (العِرْق) انطوى سفرٌ لها
 تحت أقدام الثكالي واليتامي
 أي هذا النابش القبر الذي
 ضمَّ «هاماتٍ» ملأَن الكون هاما
 لست بالمحيي يبدأ سفاحةً
 أوسعتها قبضةً (الحق) انتقاما
 قصة (اللون) التي استحدثتها
 قد تحيلُ الأبيض الصافي قتما
 غابُ «أفريقية» السمرء غاما
 من خطوبٍ شرّدت عنه المناما
 ودّ لو أنّ الثرى - في ساحه -
 جامعُ البارود يغتال اللئاما..
 والحصا، في كلّ مجرى ناغم،
 من رصاصٍ يفجرُ اللحن احتداما
 والغصون استرقصتها هبةً
 للصبأ، عادت قسيّاً وسهاما!

همهم الدوخُ المنْدَى، والسنا
 ينزغُ الطلّ اختلاساً واهتضاماً،:
 «إيه يا شمس اتركي حمراً الخطي
 في مراقبيها الفسيحات نياما...
 واسمعي شكوى من الشرق، امتطي
 لفحُها من ذروة الغيظِ السناما!
 فيم هيأت «الطلاء المجتوى»!
 تابعاً بين الرحابِ الجون (حاما)؟
 أهو ختمٌ خلفه الرقُّ اختفى؟
 أم وقاءٌ يقهر الموت الزؤاما؟»

أيها الشادي⁽¹⁾ وقد بات الهوى
 يُرْعشُ الأنخابَ في أيدي الندامى
 يا سليلَ الغابةِ الشكلي بكى
 قلبها السمع السليل المستضام
 غَنَّ باللحن المدمى، واللفظي
 يحرقُ الأجسادَ - لا ريح الخزامى
 واشتكِ الجورَ الذي يُرْمَى به
 قومك الأحرارُ لا تشكُ الغراما
 أين صاحٍ عاد لا يلقي هوى
 من سقيمٍ عاد لا يلقي طعاماً؟!
 فارو، لا عن مخدعٍ ظلّ الشذى
 حائراً يرعى «ملاكاً» فيه ناما..

(1) الشادي: المغني روبسن (ش).

واحسك، لا عن غانيات نُزَّقِ
يتطارحن اعتناقاً والتثاماً...
لا.. فما أبقى صليل القيد في
مسمع المأسور للسلوى مقاما
فاترك اللحنَ «الموشى» للغنى
والطغاة الصيد يهتاجُ العراما
إنك الحرُّ الذي لا يرتجي
مِنْ يَدَيْ جَلَادِهِ القاسي، وساما
إنك الجرحُ الذي لا يحتمي
بالمُدَى يمتاح منهن التثاماً..
أيها الشادي وقد راح الردى
مُسْلِمًا للأهوجِ الفظَّ الزماما.
فَجَرِّ الأَلْحَانِ مَنْ ينبوعها:
مهجَّةُ الطاوي، وأضلاعُ الأيامي
هذه الأَلْحَانُ، خيرُ الفنِّ ما
حرَّكَ المأسورَ واهتاجَ المُضَامَا
نحن في حالين ساوَى منهما
ظالمٌ سام الملايين الحماما
نحن في حالين ساوَى منهما
أَنَّ لَلَّيلِ انتهاءً وانصراما
الزنودُ استنهضتها هزَّةُ
بعد حين تترك الطاغي حطاما!

أهواء...⁽¹⁾

«إلى المتطرة...»

أطلي على طرفي الدامع خيالاً من الكوكب الساطع
وظلاً من الأغصن اللاعبات على ضفة الجدول الوادع
وطوفي أناشيد في خاطري يناغين من حبي الضائع
يفجّر من قلبي المستفيض ويقطرن في قلبي السامع!

لعينيك للكوكبين اللذين يصبان في ناظري الضياء
لنبيين، كالدهر، لا ينضبان ولا يسقيان الحيارى الظماء
لعينيك ينثال بالأغنيات فؤاد أطال انثيال الدماء
يود إذا ما دعاك اللسان على البعد، لو ذاب فيه النداء

أحقاً أناديك؟ ماذا أقول؟ أأدعو التي ما عرفت اسمها؟
وأنت انبثاق وراء الشعور ودنيا تحوك الطلى وهمها
وروح.. بعيداً، وراء الضباب أضاع انحدار الدجى جسمها
نعم.. بت أدعوك.. أنت الحياة فيا فرحتا! قد عرفت اسمها

(1) أعاد السيّاب نشر القصيدة في «أزهار وأساطير» مع تغييرات واسعة، ولكثرة التعديل فيها، ابقينا على متنها في الديوانين معاً ثلثا نصنع للقارئ أرباكاً يفسد متعة القراءة. (م)

يطول انتظاري لعلِّي أراك لعلِّي ألاقيك بين البشر
سألقاك.. لا بدّ لي أن أراك وإن كان بالناظر المحتضر!
فديت التي صورتها مناي فأضحت أمانِي، تلك الصوَر!
أطلي على من حباك الحياة فأصبحت حسناء ملء النظر!

أطلي فتاة الهوى والخيال بسحر العذارى على الخالق..
بعشرين من ريقات السنين عبرن المدارات في خافقي
بعشرين كُلاً وهبتُ الربيع وما فيه، من عمريّ العاشقِ
فما ظلّ إلا ربيع صغير أخبّيه للموعد الرائقِ

سأروي على مسميك الغداة أحاديث سمّيتهن الهوى!
وأنباء قلب غريق السراب، شقيّ التداني، كئيب النوى
أصيحخي. فهذي فتاة الحقول وهذا غرام هناكَ انطوى
أتدريْن عن ربّة الراعيات؟ عن الريف؟ عن ذائب في الجوى؟

هو الريف.. والغاب غاب النخيل وتلك الأغاني ما تسمعين
وذاك الفتى شاعرٌ في صباه وهاتيك.. هاتيك.. هل تُبصرين؟
هي الفن أو نبعة المستطاب هي الحب.. حب الشقيّ الحزين
رأها تغني وراء القطيع كبنلوب⁽¹⁾ تستمهل العاشقين

(1) بنلوب، زوجة أوديسيوس بطل «الأوديسة» رمز الوفاء والإخلاص، غاب زوجها في الحرب، فحاصرها العاشقون فأهتتهم عنها، حتّى عاد. (ش)

فما كان غير اعتناق القلوب على خفقة تلتقي ثانية
وما كان غير افترار الشفاه بما يشبه البسمة الحانية
وكان الهوى.. ثمّ كان اللقاء لقاء الحبيبين في ناحية
فما قال: أهواك، حتّى ترمى عياء على ضفة الساقية

وأوفى على العاشقين الشتاء بيوم طوى أفقه بالسحاب
خلا الغاب، ما فيه إلّا هما ولّا السكون الشيف النقاب
فهذا على جانب (الشط)⁽¹⁾ يشدو وهذي وراء الغصون الرطاب
فما كان غير انتفاض البروق وغير ارتواء الربوع الجداب

ويأوي إلى دوحة أنصتت إلى جدول، (وهي) تقفو خطاه
رأها وقد بلّ من ثوبها رذاذ، فمدّت إليها يدها
على الجذع يستدفئان الصدور فإن نددت الآه، فاهأ بأه
سلي الجذع.. كيف بهزاتها وابتعاد الشفاه؟!
التصاق الصدور

وكيف ارتشاف العيون العيون؟ وكيف احتضان اليدين اليدا؟
وما تنطف الأغصن الباكيات، على أغصن حاشهن الردى؟
تناثرن فوق الثرى ورقات يئسن، فما يرتجين الغدا
إذا وطأتهن أقدامنا تأوّهن، والآه رجع الصدى

(1) شط العرب: من أنهار العراق الجميلة. (ش)

وهاتيك هاتيك نار تلظى وقد أدفأ الصحو غاب النخيل
خفقنا عليها خفوق الفراش نعيد ادكار اللقاء الجميل
ورقّت على ثغرها قبلتان تذوبان شوقاً إلى المستحيل
وما زال في شعرها لؤلؤ من الماء والآن ماء يسيل

أشاهدت يا غاب رقص الضياء على قطرة بين أهدابها؟
تساءلت عن سرها: ما تكون؟ وما شأنها بين أترابها؟
وفي أي ماء رأتها السماء فمدّت إليها بأسبابها؟
أفي الجدول الناعس المستنيم حيث التصقت بجلبابها؟

وما أمرها قبل أن تستحيل قليلاً من الغيمة الهائمة؟
أرفّ على نهرها المستفيض، خيال من المقلة الحالمة...؟
فلم تهجر الأرض صوب السماء ولم تسهر الليلة الغائمة
ولم تهو إلا لتفنى هناك، على عين حسائي الباسمة؟

وما كان، يوم انطلاق الربيع جناحين ملء المدى يخفقان؟
وأين الأضاميم والياسمين يندى شذاهنّ والأقحوان؟
هدايا فؤادين يستمهلان ربيع الهوى في ربيع الزمان
وأختاك، يا روح - إذ تبنيان بيوتاً فنحظى بما تبنيان؟

وذاك الخصام الذي لو يفدى لفديت ساعاته بالوئام
أفديه - لا بالوئام الذي جنيناه أيام ذاك الغرام

ولكن بأيامي التاليات وحبّ اللواتي خفرن الذمام
بغمازتيها على عهدها وحبّي لها لا أقول السلام!

خصاماً ولم نعلّ الكؤوس؟ أحطّمتها قبل أن نسكرا؟
خصاماً وما زال بعض الربيع ندياً على الصيف، مخضوضراً؟
خصاماً؟! فهل تمنعين العيون إذا ضمّك الغاب، أن تنظرا؟
وهل توقفين انعكاس الخيال من النهر أن يملك المعبرا

أغاني شبابتي تستبيك وتدنّيك مني، فقيم الجفاء؟
كأنّ قوى ساحر تستبد بأقدامك البيض، عند المساء
فتسعين مذهولة لا تعين، إلى موعدي بين ظلّ وماء
هناك على (الشط)، حيث الشراع يناجي شراعاً، يكون اللقاء

وحجبت خديك عن ناظري بكفّيك حيناً وبالمروحات
سأشدو.. وأشدو، فما تتقين إذا احمرّ خدّك للأغنيات؟
وأرخت كفّيك مبهورتين وأومات، سكرانة الحس: هات
إلى أن يموت الشعاع الأخير على الشرق، والحب، والأمنيات

وهيهات. إنّ الهوى لن يموت ولكن بعض الهوى يأفل
كما تأفل الأنجم الخافقات كما يغرب الناظر المسبل
كما تستجمّ البحار الفساح ملياً، كما يرقد الجدول
كنوم اللظى.. كانطواء الجناح كما يصمت الناي والشمال

أعام مضى والهوى لا يزال كما كان، لا يعتريه الفتور؟
 أهذا هو الصيف يوفي علينا فنلقاه ثانيةً كالزهور؟
 ولكنهنّ زهور الخلود فلا أظمأت ريهن الدهور!
 ولا نالَ من لونهن الشتاء! ولا استنزفت عطرهنّ الحرور!

أغانيّ والغاب قَفْرُ الوكون حبسُ النسائم تحت الدوالي
 ترى ماءه، لا تقاد الهجير، حريقاً بما فوقه من ظلال
 وفوق التعاشيب، حيث الغصون ينؤن بأفئائهن الثقال
 لها مضجعٌ هدهته العطور أبصرت كيف اضطجاع الجمال؟

وتلك الصبايا بنات الحقول تجمعن من حولها أربعا
 فهذي تُغني بأقصوصة عن الحبّ تستقطر الأدمعا
 وتلك استباها خفوق الظلال على ناهد حير المضجعا
 فألقت بمروحتيها ذهولاً وأرخت على ثغرها إصبعاً

أمسيت أستحضر الذكريات وقد كنّ بالأمس كلّ الحياه؟
 أضاعت حياتي؟ أغاب الغرام؟ أماتت، على الأغنيات، الشفاه؟
 أنغدو - وما جفّ ماء الغدير ولم يذبل الغاب، غاب الرعاه -
 حديثاً يغني به العاشقون «أحباً.. وخاباً.. فوا حسرتاه»؟

أناديك.. لو تسمعين النداء وأدعوك.. أدعوك؟! يا للجنون!
 إذا رنّ في مسمعك الغداة من المهد صوت الرضيع الحنون

فما نفعها صرخة من حشاي تبثّ الجوى؟! من عسى أن أكون؟
محّب طواه الزمان العنيد وقلب أضاعت مناه السنون

أأدميت من كبرياء النداء؟ وأرجعت آمادي الفهقري؟!
نسيت التي صورتها مناي وناديت أنثى ككل الوري...
وأعرضت عن مسمع في السماء إلى مسمع في تراب القرى!
أتصغي فتاة الهوى والخيال وأدعو فتاة الهوى والثرى؟

دع الأرض يا مرسل الذكريات أغاريد مستنزفات الرنين
وبثّ الأحاديث عبر الفضاء وناج التي أذكرتك السنين..
وعاهدتها أن تقص الغداة عليها حديث الهوى والحنين!
ألا فاسمعيني، وما لذتي بشغري إذا كنت لا تسمعين؟

وودعت سجواء بين الحقول ودنيا عن الشرفي معزل
وخلفت، في كلّ ركن خضيل من الريف ذكرى هوى أول
قصاصات أوراقى الهامسات بشعري على جانب الجدول
وباقات زهر سفكن العبير، ونياياً يغني مع الشمال

أبغداد هاتيك أم عالمٌ بنته الرؤى من غبار الزمن
أهاتيك دنياي؟ أين الحقول؟ وأين المراعي؟ وأين الفن؟
ويا حسرتاً أين أين الرفاق؟ رفاق الهوى والطلّى والشجن؟
وأين الأحاديث من سامرين على التلّ يستضحكون المحن؟

ويا شاعراً⁽¹⁾ علّمته النخيل وحسناؤهن، الهوى والغزل
 أما زلت حيران فوق الضفاف شجياً تنادي فتاة الجبل؟
 إذا المذّ وافى تبعت الجرار بعينين تستغفلان المقل!!
 إذا كنت منك اقتبست النشيد فمن أصغري اقتبست الشعل.

ومن هذه الغداة المجتباة لعيني؟ من هذه الساحره؟
 أما كنت أبصرت تلك العيون؟ كأني.. وهل تصدق الذاكرة؟!
 كأني ترشفت، قبل الغداة، سنى هذه النظرة الأسرة!!
 أما كان في الريف شيء كذاك؟ أما تشبه الرّبة الغابره؟؟؟

مشى العمر ما بيننا فاصلاً فمن لي بأن أسبق الموعدا؟
 ومن لي بطيّ السنين الطوال ستمضي دموعي وحيي سدى!
 أراها فأنفض عنها السنين كما تنفض الريح برد النداء...
 فتغدو، وعمري أخو عمرها ويستوقف المولد المولدا!

تخطّيت سبعاً - من المثقلات بما لست تدري - إلى حبّها،
 تركت الأهله عن جانبك حيارى تشكي إلى ربّها!
 أكانت سدى كلّ تلك السنين وقد هدّنا السير في دربها؟
 أيطوي مداها إلى حبّه فتى ما رأيناه في ركبها؟

(1) شاعر قروي نابغ، من أصدقاء صاحب الديوان. (ش)

وهل تسمع الشعر إن قلته وفي مسمعيها ضجيج السنين؟
أطلت على السبع من قبل عشرين عاماً وما كنتُ إلا جنين
وأمسى - ولم تدر أنت الغرام - هواها حديث الورى أجمعين
لقد نبئوها بهذا الهوى فقالت وما أكثر العاشقين

غرام خبانوره في العيون وغابت له خفقة في الفؤاد
ليال تطيل انتظار النجوم وأيام حيران بين الوهاد
لقد عاد بعد احتراق الربيع بحرّ الضحى، كيف يا ريف عاد؟
أضاع الغرامين واحسرتاه فوارى بعاد الهوى بالبعاد

من الغاب، حيث استدار الكئيب تراءى له الأمس في الحاضر
خطاه اللواتي أذعن الغرام على مسمع الجدول السادر
وأهات عذرائه الهائمات مع النور في الموكب الساحر
وذكرى من الأمسيات العذاب تغاديه بالوعة الذاكر

وتلك المرايا ينام الخريف عليهنّ والظلّ في مضجع
إذا صدئت صفحة بينهن جلتها يد المذّب بالأدمع
يخبئن بين الظلال الرطاب خيالاً تأبى على البرقع
فيغرقن عينيه في مقتلين تهزان مهداً من الأضلع

وآفاق بغداد بعد النخيل وآذار بعد انطفاء الهجير

وبعد الغرام اندفاق الفؤاد ينابيع مستعجلات المسير
فعذراء وهم، وأخرى هوى شقي، وعذراء وجد قصير
وحيران حيران مثل الفراش وظمانَ ظمانَ مثل السعير

وسمراء من عاشقات الرجال تغاديه بالعاطفات الكذاب
سفار أُمال اصفرار الخريف ربيعاً رباً فيه زهر الشباب
وجواً من الأغنيات الرطاب شفيف الرؤى، شاعريّ الرحاب
وعينين تستعجلان القلوب إلى الملتقى تحت ستر الضباب

أمن أصغريه استفاض النشيد إليها؟ إلى الذئبة الضاريه؟
ولولم يكن فيه طعم الدماء لما احتاج أضلاعها الخاويه
وما زال تسببه غمازتان تبوحان بالبسمة الخافيه
وما زالتا تذكran الخيال بما كان في الأعصر الخاليه

بأنباء «كمباسب»⁽¹⁾ المجتابة وطفل الهوى يلعبان الورق
وكيف استكان الإله الصغير فألقى سهام الهوى والحنق
رهان رمى فيه غمازتيه وورد الخدود، ونور الحدق
لك الله.. كيف اقتحمت القرون ولم يخب في وجنتيك الألق؟

(1) أسيرة الإسكندر المقدوني، أهداها إلى المصور «أيلوس» الذي جنّ بها حباً، والتلميح هنا إلى قصيدة للشاعر الإنجليزي «جون ليلي» (1554 - 1650) م «من مسرحيته أكامباسيه»، يذكر فيها أنّ «كامباسب» لاعتبت «كيويد» الورق وربحت مرجان شفاهه، وورد خديه وغمازتيه وعينيّه. (ش)

كأنّ ابتساماتها والربيع
أآذار ينثر تلك الزهور
لقد نام في الثغر كلّ الزمان
وبالروح فدبت تلك الشفاه
أشقاء لولا ذبول الزهر
على ثغرها أم شعاع القمر؟
وما عمر آذار غير الشهر!
وإن أذكرتني بكأس القدر!

ويا ليت أنفاسي الموغلات،
تباع ارتعاشاتهن الظماء
بذاك النسيم الملم بغمازتيها
سواء لدى ابتسام طروب،
إلى المتهى، في خفاء السنين..
بذاك العبير الندي السجين
إذا انداحت كلّ حين
إذا افترتا، وابتسام حزين

إلى يأسك الصامت المكفهر
سرى زورق الموت في لجة
بآمالك الشحب الباردات
سها فوق تكشيرهن الردى
كنهر الجحيم البعيد البعيد⁽¹⁾
و«شارون» يشدو رهيب النشيد
جلا ظلّهن الخضم البليد...
كما اصفرّ بين القبور الجليد.

إذا ما أضاء الظلام الرهيب،
تراءت على الأعين الخاويات،
وأكفان موتى من الغابرين
تلوى على صاريات العظام
من البرق ومض سريع الشعل
ظلال الردى في كهوف المقل...
علا حافتيها شحوب الأزل
شراعاً يشق الدجى كالأجل

(1) في الميثولوجيا اليونانية، أنّ هذا النهر «ستكس» يفصل بين عالمنا هذا وعالم الأموات، وشارون ملاح الزورق الذي ينقل أرواح الموتى من هذه الضفة إلى تلك.. إلى عالم الأموات.
(ش)

أنادي بشارون هاك الفؤاد فما نفعه بعد موت المنى؟!
 على الشطّ وحدي، يشق الظلام ندائي، فصاح الردى من هنا؟!
 ولوّحت - والريح مثل الفحيح - بأغصان سدر ظماء الجنى⁽¹⁾
 فما رقّ لي زورق الشاحين ولم يرحم الميتّ المشخنا

جناز الهوى، يا جناز الهوى أما للغرام انبثاق جديد؟
 أما زال موج الصبى في الخدود طليق السنى، أم طواه الجليد؟
 سل الكوكب الشاحب المستنيم سل الصبح عبر الفضاء البعيد
 سل العالم القاسي المستبد، أما فيه مأوى لهذا الشريد؟

أما فيه «قلب»؟ أما فيه «روح»؟ أما فيه «حب»؟ أما فيه «نور»؟
 وتلك العذارى.. وتلك العيون وتلك الحنايا.. وتلك الصدور..
 وذاك الجمال الذي في الدروب وذاك الشباب الذي في الخدور،
 إذا كنت منهن صفر اليدين فسيّان عندي ظلام ونور!!

بغداد، 1 - 2 - 1947

(1) السدر، في أجوائنا القروية، رمز الموت والرعب والفناء، يُغرس في المقابر، وتُغسل به أجساد الموتى. وتأوي إليه الجنّ!! (ش)

أساطير

(1950)

إشارة

صدر هذا الديوان عام (1950) عن منشورات دار البيان/ مطبعة الغري الحديثة في النجف. وكتب له السياب مقدّمة ظلّت هي الوحيدة بين دواوينه المعروفة، إذ لم يكتب بعدها مقدّمة لدواوينه سوى ما وضعه تمهيداً لقصيدة «فجر السلام» المطولة. وقد تصدرت الصفحة الأولى للديوان صورة للشاعر، بدا فيها وكأنه في أول العشرينيات من عمره، فيما ضمّت الصفحة الثانية اهداءً كتبه السياب:

«إلى أخوّي الكريمين

علي الخاقاني

وأكرم الوتري

كنتُ برماً بالحياة، يائساً منها، عشية رأيتهما في مقهى من مقاهي بغداد. فقط ظننتُ أنها خلّو من الحبّ ففر من الوفاء. ولكنني رأيت الحبّ والوفاء فيكما، فرغبتُ في الحياة، وحمدتُ تلك الليلة المباركة.»

الديوان يتكوّن من (26) قصيدة، أختار منها السياب لاحقاً (23) قصيدةً ليضمها لديوانه «أزهار وأساطير»، ولأن أغلب قصائد هذا الفصل ستكرر ذاتها في الفصل الخاص بـ«أزهار وأساطير»، آثرنا عدم

إدراج متن ديوان «أساطير» في هذه الطبعة، والاكتفاء بإيراد قصائده في الفصل اللاحق، منعاً لتكرار قد يشتت القارئ ويربكه، وسنضع هامشاً مع كل قصيدة تدلُّ على عائديتها.

يجد القارئ مقدّمة السياب لهذا الديوان، والصورة الشخصية النادرة، في الملحق الخاص بالوثائق آخر الكتاب الثاني من هذه الطبعة.

المحقق

أزهار وأساطير

(1963)

إشارة

كما أشرنا في المقدمة العامة، هذا الديوان هو حصيلة دمج ديواني «أزهار ذابلة» و«أساطير»، حيث قام السيّاب باختيار قصائد من المجموعتين المذكورتين وأجرى على بعضها تغييرات متباينة.

الديوان، هنا، نسخة طبق الأصل عن طبعته الأولى، وقد أجريتُ مُقابلةً للقصائد على نسخها (قبل الدمج) ووجدتُ شيئاً من التعديل والحذف، فحصرتُ كلّ تعديل أجراه الشاعر وثبته في هوامش مرفقة مع كلّ قصيدة، حسب موضع التعديل.

الطبعة الأولى للديوان صدرت عن دار «مكتبة الحياة»، واللافت أنها جاءت خلواً من تاريخ الإصدار. وقد ذكر لي السيّد غيلان السيّاب، نجل الشاعر، أنه يتذكّر طبع دار «مكتبة الحياة» لديوان «أزهار وأساطير» مع ديوان «منزل الأفنان»، وقد كانت لديهم، في منزل الشاعر، رزم من نسخ الشاعر للديوانين مع بعض كما أرسلتها الدار. وفي رسالة لاحقة وردتني من السيّد غيلان، ذكرَ فيها: «إن هناك نسخة أولى أصليّة من «أزهار وأساطير» عليها توقيع الوالد وبخطّه بتاريخ 22/10/1963». من إشارة السيّد غيلان الهامّة، نستنتجُ أن ديوان «أزهار وأساطير» كان قد صدر برفقة ديوان «منزل الأفنان»، تحديداً في شهر آذار من عام 1963، وبهذا يحلُّ لغز سنة الإصدار المفقودة لهذا الديوان.

ثمة ملاحظة يهمني ذكرها هنا، حين اختار الشاعر قصائد ديوان «أساطير» لغرض إعادة نشرها في هذا الديوان، استثنى ثلاثاً منها لم يُدرجها في الكتاب الجديد. وهذه القصائد هي: «يا ليالي، خطاب إلى يزيد، إلى حسناء القصر»، ولم ينشر السيّاب هذه القصائد الثلاث في أي ديوان لاحق بعدها. ولغرض توثيقها، قمت بإدراج القصائد المذكورة في كملحق خاص في هذا الديوان، إذ لم أُفضّل دمجها مع متنه.

المحقق

في السوق القديم

1

الليل، والسوق القديم
 خفتت به الأصوات إلا غمغات العابرين
 وخطى الغريب وما تبثُّ الريح من نغم حزين
 في ذلك الليل البهيم.
 الليل، والسوق القديم، وغمغات العابرين؛
 والنور تعصره المصابيح الحزاني في شحوب،
 - مثل الضباب على الطريق -
 من كلِّ حانوت عتيق،
 بين الوجوه الشاحبات، كأنه نغم يذوب
 في ذلك السوق القديم.

2

كم طاف قبلي من غريب،
 في ذلك السوق الكئيب،

فرأى، وأغمض مقلتيه، وغابَ في الليل البهيم.
وارتجّ في حلق الدخان خيال نافذة تضاء،
والريح تعبثُ بالدخان...
الريح تعبثُ، في فتور واكتئاب، بالدخان،
وصدى غناء...

ناءٍ يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل؛
وأنا الغريب... أظلّ أسمع وأحلم بالرحيل
في ذلك السوق القديم.

3

وتناثر الضوء الضئيل على البضائع كالغبار؛
يرمي الظلال على الظلال؛ كأنها اللحن الرتيب،
ويُريق ألوان المغيب الباردات، على الجدار
بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب.
الكوب يحلم بالشراب وبالشفاة
ويدتلونها الظهيرة والسراجُ أو النجوم.
ولربما بردتْ عليه وحشرجت فيه الحياة،
في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح؛
في مخدع سهر السراج به، وأطفأه الصباح

4

ورأيت، من خلل الدُّخان⁽¹⁾، مشاهد الغد كالظلال:
 تلك المناديل الحيارى وهي تومئ بالوداع
 أو تشرب الدمع الثقيل، وما تزال
 تطفو وترسب في خيالي - هوّم العطر المضاع
 فيها، وخضّبها الدم الجاري!
 لون الدجى وتوقّد النار
 يجلو الأريكة ثم تخفيها الظلال الراعشات -
 وجه أضاء شحوبه اللهبُ
 يخبو، ويسطع، ثم يحتجبُ
 ودم يغمغم وهو يقطر ثم يقطر: مات.... مات!

5

الليلُ، والسوق القديم، وغمغات العابرين،
 وخطى الغريب.
 وأنت أيتها الشموع ستوقدين
 في المخدع المجهول، في الليل الذي لن تعرفيه،
 تلقين ضوءك في ارتخاءٍ مثل أمساء الخريف

(1) كانت: «من خلل الزمان» في النسخة المنشورة بديوان «أساطير». (م)

- حقل تموج به السنابل تحت أضواء الغروب
تتجمعُ الغربان فيه -
تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أوراق الخريف
في ليلة قمراء سكرى بالأغاني، في الجنوب:
نقر [الدرايك] من بعيد
يتهامسُ السعف الثقيل، به، ويصمت من جديد!

6

قد كان قلبي مثلكن، وكان يحلم باللهيب،
حتى أتاح له الزمان يداً ووجهاً في الظلام
نار الهوى ويد الحبيب -
ما زال يحترق الحياة، وكان عام بعد عام
يمضي، ووجه بعد وجه مثلما غاب الشراع
بعد الشراع - وكان يحلم في سكون، في سكون:
بالصدر، والفم، والعيون؛
والحبّ ظلّله الخلود... فلا لقاء ولا وداع
لكنه الحلم الطويل
بين التمطي والثاؤب تحت أفياء النخيل.

7

بالأمس كان وكان - ثم خبا، وأنساه الملال
 واليأس؛ حتى كيف يحلم بالضياء - فلا حنين
 يغشى دجاءه، ولا اكتئاب، ولا بكاء، ولا أنين
 الصيف يحتضن الشتاء، ويذهبان... وما يزال
 كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح،
 كالسلم المنهار، لا ترقاه في الليل الكئيب
 قدم، ولا قدم ستهبطه إذا التمع الصباح.
 ما زال قلبي في المغيب
 ما زال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساء،
 حتى أتت هي والضياء!

8

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام
 عند المساء، وطوقتني تحت أضواء الطريق
 ثم ارتخت عني يداها وهي تهمس - والظلام
 يحبو، وتنطفئ المصابيح الحزاني والطريق :-
 «أتسير وحدك في الظلام؟»

أتسير؛ والأشباح تعترض السبيل، بلا رفيق؟
 فأجبتها والذئب يعوي من بعيد، من بعيد
 «أنا سوف أمضي باحثاً عنها، سألقاها هناك
 عند السراب وسوف أبني مخدعين لنا هناك».
 قالت - ورجّع ما تبوح به الصدى «أنا من تريد!»

9

«أنا من تريد، فأين تمضي؟ فيمَ تضرب في القفار
 مثل الشريد؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار.
 أنا من تريد..» وقبّلني ثم قالت - والدموع
 في مقلتيها - «غير أنّك لن ترى حلم الشباب:
 بيتاً على التلّ البعيد يكاد يخفيه الضباب
 لولا الأغاني، وهي تعلو نصف وسنى، والشموع
 تلقى الضياء من النوافذ في ارتخاء؛ في ارتخاء!
 أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل:
 حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل،
 لا يأس فيه ولا رجاء

10

أنا أيها النائي القريب،
لك أنت وحدك؛ غير أنني لن أكون
لك أنت - أسمعها؛ وأسمعهم ورائي يلعنون
هذا الغرام. أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب⁽¹⁾
لعنات أُمِّي وهي تبكي. أيها الرجل الغريب
إنني لغيرك... بيد أنك سوف تبقى، لن تسير!
قدماك سُمِّرتا فما تتحركان؛ ومقلتاك
لا تبصران سوى طريقي، أيها العبد الأسير؟

« - أنا سوف أمضي فاتركيني: سوف ألقاها هناك
عند السراب»
فطوّقتني وهي تهمس: «لن تسير!»

11

«أنا من تريد؛ فأين تمضي بين أحداق الذئاب
تتلمّس الدرب البعيد؟»

(1) كان الشطر، في طبعة «أساطير»، على هذا النحو: «هذا الغرام. أكاد أسمع أيها الطيف
الغريب». (م)

فصرختُ: سوف أسير، ما دام الحنين إلى السراب
 في قلبي الظامي! دعيني أسلك الدرب البعيد
 حتى أراها في انتظاري: ليس أحداق الذئاب
 أقسى عليّ من الشموع
 في ليلة العرس التي تترقبين، ولا الظلام
 والريح والأشباح، أقسى منك أنتِ أو الأنام!
 أنا سوف أمضي! فارتخت عني يداها، والظلام
 يطغى...
 ولكنني وقفتُ وملء عينيّ الدموع!

اللقاء الأخير⁽¹⁾

والتفّ حولك ساعداي، ومال جيدك في اشتها،
كالزهرة الوسنى - فما أحسستُ إلا والشفاه
فوق الشفاه. وللمساء
عطر، يضوع فتسكرين به، وأسكر من شذاه
في الجيد والفم والذراع،
فأغيبُ في أفق بعيد، مثلما ذاب الشراع
في أرجوان الشاطئ النائي وأوغل في مداه!

شفتاك في شفتيّ عالقتان - والنجم الضئيلُ
يُلقي سناء على بقايا راعشات من عناق -
ثمّ ارتخت عني يداك، وأطبق الصمت الثقيل.

(1) من قصائد ديوان «أساطير» وكان السياب قد صدّرها بها يلي: «كانت غارقة في نشوة القبلة الأولى واستفاقت منها، لتخبر إن هذا آخر لقاء بينهما، لأنهم يمنعونها أن تخف إلى لقاءه»، وحين أعاد نشرها في «أزهار وأساطير» حذف التصدير. (م)

يا نشوةً عبرى؛ وإغفاءً على ظلّ الفراق⁽¹⁾
 حلواً؛ كإغماء الفراشة من زهول وانتشاء...
 دوماً إلى غير انتهاء!

يا همسةً فوق الشفاه
 ذابت فكانت شبه آه،
 يا سكرةً مثل ارتجافات الغروب الهائمات
 رانت كما سكن الجناح وقد تناءى في الفضاء
 غرقى إلى غير انتهاء
 مثل النجوم الأفلات.

- «لا... لن تراني. لن أعود
 هيهات. لكنّ الوعود
 تبقى تُلحّ.. فحفّت أنت، وسوف آتي في الخيال
 يوماً، إذا ما جئت أنت. وربما سال الضياء
 فوق الوجوه الضاحكات - وقد نسيّت؛ وما يزال

(1) أبدل السياب ترتيب هذا البيت بالبيت السابق له. (م)

بين الأرائك موضعٌ خال يحدق في غباء!
 هذا الفراغ! أما تحسّ به يحدّق في وجوم؟
 هذا الفراغ.. أنا الفراغ، فخفّ أنت لكي يدوم!»

هذا هو اليوم الأخير؟!
 واحسرتاه! أتصدقين؟ ألن تخفّ إلى لقاء؟!
 هذا هو اليوم الأخير. فليته دون انتهاء!
 ليت الكواكب لا تسير؛
 والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تفيق!
 خلقتني وحدي - أسير إلى السراب بلا رفيق.

يا للعذاب! أما بوسعك أن تقولني: «يعجزون
 عنّا. فماذا يصنعون؟
 لو أنني - حان اللقاء
 فاقتادني نجم المساء،
 في غمرة لا أستفيق
 ألا وأنت تلف خصري تحت أضواء الطريق؟!»

ليل، ونافذة تُضاء.. تقول إنك تسهرين.
 إني أحسُّك تهمسين
 في ذلك الصمت المميت: «ألن تخفَّ إلى لقاء؟»
 ليل، ونافذة تضاء
 تغشى رؤاي، وأنتِ فيها... ثمّ ينحل الشعاع
 في ظلمة الليل العميق
 ويلوح ظلُّك من بعيد وهو يومئ بالوداع،
 وأظلّ وحدي في الطريق!

أساطير

وقف اختلافهما في المذهب حائلاً بينهما
وبين السعادة.. فألى هو أن يلعن الأوثان!
[قصة حب في اليونان الوثنية]

أساطيرُ مِنْ حَشَرَاتِ الزمان

نسيجُ اليد البالية،

رواها ظلامٌ من الهاوية

وغنّى بها مِيتَان.

أساطيرُ كالبيد، مآجِ السراب

عليها، وشَعَتْ بقايا شهاب،

وأبصرتُ فيها بريقَ النُّصار⁽¹⁾

يُلاقِي سدى⁽²⁾ مِنْ ظلالِ الرغيف،

وأبصرتُني والستارُ الكثيفُ

(1) الذهب. (ش)

(2) السدى: الخيوط الاصيلة في النسيج «العمودية». (ش)

يُواريك عني فضاء انتظار،
وخابت مُنى، وانتهى عاشقان.

أساطيرُ مثل المُدى⁽¹⁾ القاسيات
تلاوينها من دم البائسين،
فكمْ أومضت في عيون الطغاة
بما حُمِلت من غبار السنين،
يقولون: وحي السماء؛
فلو يسمعُ الأنبياء
لما قَهَقَهَتْ ظُلْمة الهاوية
بأسطورةٍ بالية،
تجرُّ القرون
بمركبةٍ من لظى، في جنون
لظى كالجنون!

وهذا الغرامُ اللَّجوج
أيرتدُّ من لمسةٍ باردة...

(1) جمع مدينة وهي السكين. (ش)

على إصبعٍ من خيال الثلوج
 وأسطورةٍ بائدة؟
 وعَرَافَةٍ أَطَلَّتْ فِي الرمال
 بقايا سؤال،
 وعَيْنَيْنِ تَسْتَطْلِعَانِ الْغُيُوبَ،
 وَتَسْتَشْرِفَانِ الدُّرُوبَ،
 فَكَانَ ابْتِهَالٌ... وَكَانَتْ صَلَاةُ
 تُعَقِّرُ وَجْهَ الْإِلَهِ،
 وَتَحْثُو عَلَيْهِ انْطِبَاقَ الشِّفَاهِ.

تَعَالَيْ فَمَا زَالَ نَجْمُ الْمَسَاءِ
 يُذِيبُ السَّنَا فِي النَّهَارِ الْغَرِيقِ،
 وَيَغْشَى سَكُونَ الطَّرِيقِ
 بِلَوْنَيْنِ مِنْ وَمُضَةٍ وَانْطِفَاءِ.
 وَهَمْسُ الْهَوَاءِ الثَّقِيلِ
 بِدَفٍّ الشَّدَى وَاكْتِثَابِ الْغُرُوبِ،
 يُذَكِّرُنِي بِالرَّحِيلِ:
 شَرَاغُ خِلَالِ التَّحَايَا يَذُوبُ،
 وَكَفُّ ثُلُوحٍ. يَا لِلْعَذَابِ!

تعالَيّ فما زالَ لون السحاب

حزيناً... يُذكّرني بالرحيل

رحيل؟!!

تعالَيّ، تعالَيّ... نُذِيب الزمان،

وساعاته، في عناقٍ طويل،

ونصيف بالأرجوان

شراعاً وراء المدى،

وننسى الغدا

على صدركِ الدافئِ العاطر

كتهويمة الشاعر.

تعالَيّ؛ فملء الفضاء

صدى هامسٍ باللقاء،

يوسوسُ دون انتهاء.

على مُقلتيكِ انتظاركِ بعيد

وشيءٌ يريد:

ظلال

يُغمغم في جانبيها سؤال،

وشوقٌ حزين
يريد اعتصار السراب،
وتمزيق أسطورة الأولين
فيا للعذاب!
جناحان خلف الحجاب.
شراعٌ ...
وغممةٌ بالوداع!

1948/3/24

اتبعيني

اتبعيني

فالضحى رانتُ به الذكرى على شطِّ بعيد
 حالم الأغوار بالنجم الوحيد،
 وشرع يتوارى، و«اتبعيني»
 همسة في الزرقة الوسنى... وظلُّ
 من جناح يَضْمَحَلُّ،
 في بقايا ناعساتٍ من سكونٍ،
 في بقايا من سكونٍ
 في سكونٍ!

هذه الأغوارُ يغشاها خيالُ
 هذه الأغوار لا يسبرها إلا ملأُ
 تعكس الأمواج في شبه انطفاءٍ
 لونه المهجور في الشطِّ الكثيب،

في صباحٍ ومساء
وأساطيرُ سُكاري ... في دروبٍ
في دروبٍ أطفأ الماضي مداها
وطواها
فاتبعيني ... اتبعيني

اتبعيني ... ها هي الشُّطآن يعلوها دُهلٌ^(١)
ناصلُ الألوانِ كالحلمِ القديمِ
عادتِ الذكرى به، ساجٍ كأشباحِ نجومٍ
نسيَ الصبحُ سناها والأفولُ
في سُهادٍ ناعسٍ ... بين جُفون!
في وجوم الشاطئ الخالي، كعينيكِ انتظاركُ
وظلالٌ تصبغُ الريح ... وليلاً ونهاراً.

(١) كان ترتيب هذا المقطع هو الرابع في القصيدة، لكن الشاعر قدّمه الى الثالث في ديوان «أزهار وأساطير» وحذف ثلاثة أبيات وردت قبل هذا البيت في نسخة ديوان «أساطير»، والأبيات هي:

«اتبعيني!

أمسي الخالي هوى في لجة الغيم العميق
يشرب الظلمة في القاع السجين
يشرب الظلمة من ليل غريق». (م)

صفحة زرقاء تجلو، في بُرود
 وابتسامٍ غامض، ظلَّ الزمان
 للفراغ المُتعب البالي على الشطِّ الوحيد.
 اتبعيني ... في غدٍ يأتي سوانا عاشقان،
 في غدٍ، حتى وإن لم تتبعيني،
 يعكس الموج، على الشطِّ الحزين
 والفراغ المُتعب المخنوق، أشباح السنين.

أمس جاء الموعدُ الخاوي ... وراحا
 يطرق الباب على الماضي ... على اليأسِ ... علياً!
 كنتُ وحدي ... أرقب الساعةَ تقطأت الصباحاً
 وهي ترنو مثل عين القاتل القاسي إلَيَّا⁽¹⁾

(1) حذف السَّيَّاب، بعد هذا البيت، خمسة أسطر وردت في نسخة ديوان «أساطير»، هي:
 «قطعت دقائق الخوف انتظاري.

أي إعصار من الأشباح فيها، ساق روجي
 بين أطلال الدجى، خلف النهار!
 دَقَّت الساعة في الصمت الجريح
 فتلفت وناديت: اتبعيني». (م)

أَمْس ... فِي الْأَمْسِ الَّذِي لَا تَذْكُرِيهِ
ضَوْأَ الشُّطَّانِ مُصْبَاحُ كُتَيْبٍ ... فِي سَفِينَةٍ
وَاخْتَفَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ قَلِيلًا فَقَلِيلًا
وَتَنَاءَتْ، فِي ارْتِخَاءٍ وَتَوَانٍ
غَمْغَمَاتُ مُجْهَدَاتٍ، وَأَغَانِي
وَتَلَاشَتْ، تَتَبَعُ الضُّوْءَ الضَّئِيلًا.
أَقْبِلِي الْآنَ ... فَبِالْأَمْسِ الَّذِي لَا تَذْكُرِيهِ
ضَوْأَ الشُّطَّانِ مُصْبَاحُ كُتَيْبٍ فِي سَفِينَةٍ
وَاخْتَفَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ قَلِيلًا فَقَلِيلًا.

1948/4/21

رئةٌ تتمزق

الداءُ يُثْلِجُ راحتيَّ وَيُطْفِئُ الغد في خيالي
ويشُلُّ أنفاسي، وَيُطْلِقُهَا كَأَنْفَاسِ الذِّبَالِ
تهتزُّ في رثتين يرقُصُ فيهما شبحُ الزَّوَالِ
مشدودتين إلى ظلامِ القبرِ بالدمِّ والسُّعالِ

واحسرتاه؟! كذا أموتُ؟ كما يجفُّ ندى الصباحِ؟
ما كادَ يلمع بين أفوافِ الزنابق والأقاجي
فتضوُّعُ أنفاسُ الربيعِ تهزُّ أفياءَ الدوالي
حتى تلاشَى في الهواءِ كأنه خَفَقَ الجناحُ!⁽¹⁾

كم ليلةٍ ناديتُ باسمِكَ أيها الموتُ الرهيبُ
ووددتُ لا طلعَ الشروقُ عليَّ إن مالَ الغروبُ
بالأمس كنتُ أرى دُجاءَكَ أحبَّ من خفقاتِ آلِ

(1) حذف الشاعر، بعد هذا البيت، مقطعاً كاملاً كان قد ورد في نسخة ديوان «أساطير»، والمقطع هو:

«يا موت خل يدي على الأوتار ترعشها رثاءا

لحناً يقطعه سعالي ثم يصبغه دماءا

حتى ابث القشعريرة والبرودة في الهلال

فيضل يرجف والنجوم، كأن ملء الجو ماءا». (م)

راقصن آمال الظَّماءِ فبلَّها الدَّمُ واللهيبُ!

بالأمس كنتُ أصبح: خذني في الظلام إلى ذراعك
واعبر بي الأحقاب يطوِّيهن ظلٌّ من شراعك
خذني إلى كهفٍ تهوِّمُ حوله رِيحُ الشمالِ
نامَ الزمانُ على الزمانِ، به، وذابا في شعاعك

كان الهوى وهماً يُعذِّبني الحنينُ إلى لقائه
ساءلتُ عنه الأمنياتِ، وبِتُّ أحلمُ بارتماثه
زهراً ونوراً في فراغٍ من شكاةٍ وابتهاالِ
في ظلمةٍ بين الأضالِعِ تشرِّبُ إلى ضيائه

واليوم حبَّبت الحياةَ إليَّ وابتسم الزمانُ
في ثغرها، وطفأ على أهدابها الغدُّ والحنانُ
سمراء تلتفت النخيل الساهمات إلى الرمالِ
في لونها ... وتفرُّ وزقَاءٌ ويأرج أقدحُوانُ

شعَّ الهوى في ناظرَيْها فاحتواني واحتواها
وارتاح صدري، وهو يخفقُ باللحون، على شذاها
فغفوتُ أسترَّقُ الرؤى والشاعرية من رؤاها
وأغيبُ في الدفءِ المعطرِ كالغمامةِ في نداها

عينانِ سوداوانِ أَصْفَى من أَمَاسِيّ اللقَاءِ
وَأَحَبُّ من نجمِ الصَّبَاحِ إلى المِراعِي والرَّعَاءِ
تتلا لآنَ عن الرِّجاءِ كَلِيلَةً تُخْفِي دُجَاهَا
فَجراً يُلَوِّنُ بالندى دَرَبَ الرِّيعِ، وبالضياءِ

سمرَاءُ يا نَجْماً تَأَلَّقَ في مَسَائِي ... أَبْغِضِينِي
واقِسي عَلَيَّ ولا تَرَقِّي للشِّكَاةِ وعَذِّبِينِي
خَلِي احتقاراً في العُيُونِ، وقَطِّبِي تلكَ الشِّفَاهَا
فالداءُ في صَدْرِي تحَفَّزَ لافتِراسِكِ في عِيونِي!

يا مَوْتَ يا رَبَّ المَخَافِ والِدِيامِيسِ الضَّرِيرَةِ
اليومَ تَأْتِي؟! مَن دَعَاكَ؟ وَمَن أَرَادَكَ أَنْ تَزُورَهُ؟
أنا ما دَعَوْتُكَ أَيُّهَا القَاسِي فَتَحَرَّمَنِي هَوَاهَا
دَعْنِي أَعِيشُ على ابْتِسَامَتِهَا وإنْ كَانَتْ قَصِيرَةً

لا! سَوفَ أَحْيَا سَوفَ أَشْفَى، سَوفَ تُمَهِّلَنِي طَوِيلًا
لن تُطْفِئِ المِصْبَاحَ لَكِنْ سَوفَ تُحَرِّقُهُ فَتِيلًا
في لَيْلَةٍ في لَيْلَتَيْنِ سَيَلْتَقِي آهًا فَآهًا
حَتَّى يَفِضَّ سَنَى النِّهَارِ فَيُغْرِقَ النُّورَ الضَّئِيلَا!

يا لِلنِّهَايَةِ حِينَ تُسْدِلُ هَذِهِ الرِّثَّةَ الأَكِيلُ

بين السعال، على الدماء، فيُخْتَمُ الفصلُ الطويلُ
والحفرة السوداء تَفْغُرُ، بانطفاء النور، فاهَا
إني أخافُ أخافُ مِنْ سَبَحِ تُخْبِئُهُ الفصولُ!

وغداً إذا ارتجَفَ الشتاءُ على ابتساماتِ الربيعِ
وانحلَّ كالظِّلِّ الهزيلِ وذاب كاللحنِ السريعِ
وتفتَحَتْ بين السنايلِ، وهي تحلُمُ بالقطيعِ
والناي زَنْبَقَةً، مَدَدْتُ يدي إليها في خشوعِ

وهويْتُ أنشقها فتصعدُ كلما صعد العبيرُ
من صدري المهدوم حشْرَجَةً فتحترقُ العطورُ
تحت الشفاهِ الراعشاتِ ويُطفأُ الحقلُ النضيرُ
شيئاً فشيئاً في عُيُونِي ثم يَنْفِلِتِ الأسيرُ!

سوف أمضي

سوف أمضي. أسمعُ الريح تُناديني بعيداً
 في ظلام الغابة اللّقاء... والدَّربُ الطويلُ
 يتمطّي ضَجَرًا، والذئبُ يعوي، والأفولُ
 يسرقُ النجم كما تسرقُ روحي مُقلتكِ،
 فاتركيني أقطعُ الليلَ وحيداً
 سوف أمضي فهي ما زالت هناك.
 في انتظاري.

سوف أمضي. لا هديرُ السيل صخباً رهيباً
 يُغرِقُ الوادي، ولا الأشباحُ تُلقِيها القبورُ
 في طريقي تسألُ الليلَ إلى أين أسير؟
 كلُّ هذا ليس يُثني، فعودي واتركيني،
 ودعيني أقطعُ الليلَ غربياً.
 إنها ترنو إلى الأفق الحزينِ
 في انتظاري.

سوف أمضي. حوّلِي عينيكِ لا تَرْنِي إلَيَّا!
 إن سحرًا فيهما يأبى على رجلي مسيرا.
 إن سرًّا فيهما يستوقف القلبَ الكسيرا.
 وارفعني عني ذراعيكِ ... فما جدوى العناق
 إن يكن لا يبعث الأشواقَ فيَّ؟
 اتركيني، ها هو الفجرُ تبدَّى، ورفاقي
 في انتظاري.

1948/2/30

هوى واحد⁽¹⁾

على مقلتيك ارتشفتُ النجوم وعانقتُ آمالي الآيبه
وسابقتُ حتى جناحَ الخيال بروحي إلى روحكِ الوائيه
أطلتُ فكانت سناً ذائباً بعينيكِ في بسمه ذائبه

أأنت التي ردَدْتها مُناي أناشيدَ تحت ضياءِ القمر
تُغنيَ بها في ليالي الربيع فتحلُمُ أزهاره بالمطر
ويمضي صداها يهزُ الضياء ويغفو على الزورقِ المُتَنَظَّر؟

(1) كان النشر الأول لهذه القصيدة في مجلة «البيان» العراقية، العدد (63) 21 نيسان 1949، ثم نشرها في ديوان «أساطير» ثم في «أزهار وأساطير». النص المنشور في مجلة «البيان» صدره السيّاب بأربعة أبيات من شعر لميعة عباس عمارة، والأبيات هي:

وها أنا ألقاك لكنني عرفتكَ بعد فوات الألوان
طوى الشك عن ناظريك الهوى وجمّد قلبك غدر الحسان
أتيتك ظمأى فواحسرتي لقد خلت الكاس من خمرها
سقيت تراباً ولم تدخر لروحي الشقّة من سحرها «هي»
وبعد نشر القصيدة في ديوان «أساطير» قام السيّاب بنشر هذه الأبيات وجعلها تتصدر قصيدته، ثم عمد لحذف التصدير نهائياً حين نشر القصيدة في ديوان «أزهار وأساطير» فلم تبقى الأبيات، ولا الأسطر المنشورة. (م)

خُذِي الكأسُ بُلِّي صَدَاكَ العميقَ بما ارتجَّ في قاعها من شراب
خُذِي الكأسَ لا جَفَّ ذَاكَ الرحيقَ ولم يَبْقَ إلا جنونُ السَّراب
وإلا صَدَى هامسٌ في القرار: ألا ليتني ما سَقَيْتُ التراب

خُذِي الكأسُ إني زرعْتُ الكرومَ على قبر ذاك الهوى الخاسر
فأعراقها تستعيدُ الشراب وتشتَفه من يدِ العاصِر
خُذِي الكأسُ إني نسيتُ الزمان فما في حياتي سوى حاضِر

أنا الدوح ماتت ليالي الشتاء فأوفى عليه الربيع السعيد⁽¹⁾
نسيت الفصول الثلاث البطاء على خفقة من شذاكَ الوليد
كأنني — وأذار في ساعدي يعد الأزهير — خلق جديد

وكان انتظاراً لهذا الهوى جلوسي على الشاطئ المُقْرِ
وإرسالُ طرفي يجوبُ العُباب ويرتدُّ عن أُنْفقه الأسمَر
إلى أن أهْلَ الشراعُ الضحوكُ وقالت لكِ الأمنيات: انظري

أنكرت حتى هواك اللُّجوج وقلبي وأشواقكِ العارمه؟
وضللت في وهدة الكبرياء صداها فيا لكِ مِنْ ظالمه
تجنَّيتِ حتى حسبتِ النعاسَ ذبولاً على الزهرة النائمه

(1) حذف السَّيَّاب هذا المقطع لاحقاً حين نشر القصيدة في ديوان «أساطير» ثم «أزهار وأساطير». (م)

أَتَنْسِينَ تَحْتَ التَّمَاعِ النُّجُومَ حُطَّانَا وَأَنْفَاسَنَا الْوَاجِفَةَ
وَكَيْفَ احْتَضَنَّا صَدَى فِي الْقُلُوبِ تُغْنِي بِهِ الْقُبْلَةَ الرَّاجِفَةَ
صَدَى لَجَّ قَبْلَ احْتِرَاقِ الشَّفَاةِ وَمَا زَالَ فِي غَيْهَبِ الْعَاطِفَةِ

وَرَأَيْتُ عَلَى الْأَعْيُنِ الْوَاقِمَاتِ ظِلَالٌ مِنَ الْقُبْلَةِ النَّائِيَةِ
تُنَادِي بِهَا رَغْبَةً فِي الشَّفَاةِ وَيَمْنَعُهَا الشُّكُّ وَالْوَاشِيَةِ
فَتَرْتَجُّ عَنْ ضَغْطَةِ الْيَدَيْنِ جَمَعْنَا بِهَا الدَّهْرَ فِي ثَانِيَةِ

«شَقِيقَةُ رُوحِي أَلَا تَذْكُرِينَ» نِدَاءٌ سَيَبْقَى يَجُوبُ السَّنِينَ
وَهَمْسًا مِنَ الْأَنْجُمِ الْحَالِمَاتِ يَهْزُ التَّمَاعَاتُهَا بِالرَّيْنِ
تَسْلُلُ مِنْ فَجْوَةٍ فِي السَّتَارِ إِلَيْكَ وَقَالَ: أَلَا تَذْكُرِينَ؟

تَعَالِيْ فَمَا زَالَ فِي مُقْلَتِيْ سَنَا مَا جَ فِيهِ اتَّقَادُ الْفَوَادِ
كَمَا لَاحَ فِي الْجَدُولِ الْمُطْمَتْنِ خِيَالُ اللَّطْيِ وَالنُّجُومِ الْبَعَادِ
فَلَا تَزْعُمِي أَنْ هَذَا جَلِيدٌ وَلَا تَزْعُمِي أَنْ هَذَا رَمَادٌ

أهواء⁽¹⁾

«إلى المنتظرة...»

أطلّي على طرفي الدامع خيالاً من الكوكب الساطع
 وظلاً من الأغصن الحالمات على ضفة الجدول الوادع
 وطوفي أناشيد في خاطري يناغين من حُبّي الضائع
 يفجرن من قلبي المستفيض ويقطرن في قلبي السامع

لعينيك، للكوكبين اللذين يصبان في ناظري الضياء
 لنعين، كالدهر، لا ينضبان ولا يسقيان الحيارى الظماء
 لعينيك ينثال بالأغنيات فؤاد أطال انشبال الدماء
 يودُّ، إذا ما دعاك اللسانُ على البُعدِ، لو ذاب فيه النداء

يطول انتظاري، لعلّي أراك لعلّي: ألاقبك بين البَشَرِ
 سألقاك. لا بدّ لي أن أراك وإن كان بالناظر المحتضر
 فديتُ ألتي صورتها مناي وظلُّ الكرى في هجير السَّهَرِ

(1) نشر السياب هذه القصيدة أولاً في ديوان «أزهار ذابلة» وأعاد نشرها في هذا الديوان بعد تغييرات عديدة، ولكثرة التعديل فيها، ابقينا على متنها في الديوانين معاً ثلثاً نصنع للقارئ أرباكاً يفسد متعة القراءة. (م)

أطلي على من حباك الحياة فأصبحت حسناء ملء النظر!

أطلي فتاة الهوى والخيال على ناظرٍ بالرؤى عالقٍ
بعشرين من ريقات السنين عَبَرْنَ المِدارات في خافقي
بعشرين كُلاً وهبْتُ الربيعَ وما فيه، من عُمرِي العاشقِ
فما ظلُّ إلا ربيعٌ صغير أُخْبِيهِ للموعِدِ الرائقِ

سأروي على مسمِعِك الغداةَ أحاديثَ سَمِيتُهُنَّ الهوى
وأنباءَ قلبٍ غريقٍ السرابِ شَقِيَّ التَداني، كئيبِ النوى
أصِخِي.. فهْذِي فتاةُ الحقولِ وهذا غرامٌ هناك انطوى
أتدريْن عن ربةِ الراعياتِ؟ عن الريفِ؟ عما يكونُ الجوى؟

هو الريف، هل تبصرين النخيل؟ هذي أغانيه، هل تسمعين؟
وذاك الفتى شاعرٌ في صباه وتلك التي علّمتَه الحنين
هي الفنُّ من نبعه المستطاب، هي الحبُّ من مُستَقاهُ الحزين
رأها تغني وراء القطيع ك(بَنلوب) تستمهلُ العاشقين

فما كان غيرُ التقاءِ الفؤادَيْنِ في خَفَقَةٍ مِنْهُمَا عَاتِيَه
وما كان غيرُ افترارِ الشفاهِ بما يُشبهُ البسمةَ الحانيه
وكان الهوى، ثمَّ كان اللقاءُ لقاءَ الحبيبتَيْنِ في ناحيه
فما قال: أهواك، حتّى ترامى عِباءَ على ضفةِ الساقيه

وأوفى على العاشقين الشتاء
 خلا الغاب ما فيه إلا النخيل
 وبين الحبيبين في جانبه
 فما كان إلا وميض أضاء
 ويوم دجا في ضحاه السحاب
 وإلا العصفير، فهو ارتقاب
 من السعف في كل ممشى، حجاب
 ذرى النخل، وانحل غيم وذاب

ويا سدره الغاب كيف استجارا
 رآها وقد بل من ثوبها
 على الجذع يستدفنان الصدور
 سلي الجذع كيف التصاق الصدور
 بأفنانك الناطفات المياه
 حياً زخ، فاستقبلتها يدها
 على موعدي، كل آه بآه
 بهزاتها، وابتعاد الشفاء؟

أشاهدت يا غاب رقص الضياء
 تُرى أهي تبكي بدمع السماء
 ولكنها كل نور الحقول
 وأفراح كل العصفير فيها
 على قطرة بين أهدابها؟
 أساهها وأحزان أترابها؟
 ودفع الشذى بين أعشابها
 وكل الفراشات في غابها

وذاك الخصام الذي لو يُفدى
 أفديه من أجل يوم ترف
 ومن أجل عنيين لا تستطيعان
 تذوب له قسوة في الأسارير،
 لفديت ساعاته بالوئام
 يد فيه أو لفته، بالسلام
 أن تنظرا دون ظل ابتسام
 كالصحو ينحل عنه الغمام

خصاماً ولما نعل الكؤوس؟
 أحطمتها قبل أن نسكرا؟

خصاماً، وما زال بعض الربيع ندياً على الصيف مخضوضراً؟
 خصاماً؟ فهل تمنعين العيون إذا لالألأ الثور، أن تنظراً؟
 وهل توفقين انعكاس الخيال من النهر، أن يملك المعبرا؟

أغاني شباتي تستبيك وتُدنك مني، ففيم الجفاء؟
 كأن قوى ساحر تستبد بأقدامك البيض، عند المساء
 ويُفزي بك الدرب حيث استدار، إلى موعدي بين ظل وماء
 على الشط، بين ارتجاف القلوع وهمس النخيل، وصمت السماء

وحجبت خديك عن ناظري وكفك حيناً، وبالمروحات
 سأشدو، وأشدو، فما تصنعين إذا احمرّ خدك للأغنيات؟
 وأرخت كفيك مبهورتين وأصغيت، واخضل حتى الموات
 إلى أن يموت الشعاع الأخير على الشرق، والحب، والأمنيات

وهيهات، إن الهوى لن يموت ولكن بعض الهوى يأفل
 كما تأفل الأنجم الساهرات، كما يغرب الناظر المُسبَل،
 كما تستجم البحار الفساح ملياً، كما يرقد الجدول
 كنوم اللظى، كانطواء الجناح كما يصمت الناي والشمأل!

أعام مضى والهوى ما يزال كما كان، لا يعتريه الفتور؟
 أهذا هو الصيف يوفي علينا فنلقاه، ثانية، كالزهور؟

ولكنَّهنَّ زهور الخلود فلا أظمأت رِيَّهنَّ الحرور
ولا نال من لونهنَّ الشتاء ولا استنزفت عطرهنَّ الدهور

أغاني، والغاب قَفَرُ الوكون حبسُ النسائم تحت الدوالي
تري ماءه، لآتقاد الهجير، حريقاً بما فوقه من ظلال
وفوق التعاشيب، حيث الغصون ينؤنَّ بأفيائهنَّ الثقال،
لها مضجعٌ هذذته العطور؛ أبصرت كيف اضطجاع الجمال؟

أمسيْتُ أستحضر الذكريات وما كان بالأمسِ كلَّ الحياه؟
أضاعت حياتي؟ أغاب الغرامُ؟ أمانتُ، على الأغنيات، الشفاه؟
أنمسي، وما زال غابُ النخيل خضيلاً وما زال فيه الرعاه
حديثاً على موقد السامرين: أحبّاً، وخاباً، فوا حسرتاه؟!

أناديك، لو تسمعين النداء وأدعوك - أدعوكِ؟! يا للجنون!
إذا رنّ في مسمعيك الغداة من المهد صوتُ الرضيع الحنون
ونادى بك الزَّوجُ أن ترضعيه ونادى صدى أخفته السنون
فما نفعتها صرخةٌ من لهيب أدوي بها؟ من عساني أكون؟!

أعقرتُ من كبرياء النداء؟ وأزجعتُ آمادي القهقري؟
نسيْتُ التي صوّرتها مُناي وناديتُ أنثى ككل الوري؟!
وأعرضتُ عن مسمَعٍ في السماء إلى مسمَعٍ في تُراب القرى!

أُتْصِغِي فتاةَ الهوى والخيالِ وأدعو فتاةَ الهوى والثرى!؟

.. ووَدَّعْتُ سَجَواءَ بَيْنَ الحقولِ ودنيا عن الشَّرِّ في معزلِ
وخلفتُ، في كلِّ ركنِ خضيلِ من الريفِ، ذكرى هوىٍّ أوَّلِ
قصاصاتِ أوراقِي الهامساتِ بشِعْري، على ضِفَّةِ الجدولِ
وجِدْعاً كَتَبْتُ اسمها الحُلُوَّ فيه ونايأً يغني مع الشمالِ

فمنْ هذه المسترقُّ القلوبَ صبىً ملؤها روحه الطافره
أما كنتُ ودَّعْتُ تلكَ العيونَ الظليلاتِ والخصلة النافرة؟
كأنِّي ترشَّفتُ قبل الغداة سنى هذه النظرة الآسرة!
أما كان في الريفِ شيءٌ كهذا؟ أما تُشبه الرِّبَّةَ الغابرة!؟

مشى العُمُرُ ما بيننا فاصلاً فمن لي بأن أسبق الموعدا؟
ولكنه الحبُّ منه الزمانُ ثوان، ومما احتواه المدى
أراها فأنفض عنها السنين كما تَنْفِضُ الرِّيحُ بَرْدَ الندى
فتغدو وعمري أخو عُمُرِها ويستوقفُ المولِدُ المولدا

وهل تسمع الشعرَ إنْ قُلْتِه وفي مسمعيها ضجيجُ السنين
أطلت على السبعِ من قبل عشرين عاماً، وما كنت إلا جنين؟
وأَمسى - ولم تدر أنت الغرام - هواها حديث الورى أجمعين
لقد نَبَّأوها بهذا الهوى فقالت: وما أكثرَ العاشقين!؟

أمن قلبه انثال هذا النشيدُ
ولولم يكن فيه طعمُ الدماءِ
وما زال تسبيه غمّازتانَ
وما زالتا تُذكران الخيالَ
وبالحُبِّ والغادةِ المستبدِ
وكيف استكان الإله الصغيرِ
رهاناً، رمى فيه غمّازتيه
لك الله، كيف اقتحمت القرونَ
إليها، إلى الذئبة الضاريه؟
ما استشعرت رنة القافيه
تبوحان بالبسمه الخافيه
بما كان في الأعصر الخاليه:
صباها به، يلعبان الورقُ
فألقي سهام الهوى والحنقُ
وورّد الخدود، ونور الحدق؛
ولم يخب في وجتتك الألق؟

كأن ابتسامتها والربيعَ
آذارُ ينثر تلك الورودَ
ففي ثغرها افتَرَ كلُّ الزمانِ
وبالروحِ فدّيت تلك الشفاهَ
شقيقان، لولا ذبول الزهرِ
على ثغرها؟ أم شعاع القمر؟
وما عُمرُ آذارٍ إلّا شهرِ
وإن أذكرتني بكأس القدر!

أطلي على طرفي الدامعِ
وظلاً من الأغصن الحالماتِ
وطوفي أناشيد في خاطري
يفجّرُن من قلبي المستفيضِ
خيالاً من الكوكب الساطعِ
على ضفّة الجدول الوادعِ
يناغين من حُبّي الضائعِ
وينقطرن في قلبي السامعِ

لن نفترق⁽¹⁾

هَبَّتْ تُغْمِغِمُ سَوْفَ نَفْتَرُقُ رَوْحٌ عَلَى شَفْتَيْكَ تَحْتَرِقُ
صَوْتُ كَأَنَّ ضَرَامَ صَاعِقَةٍ يَنْدَاخُ فِيهِ وَقَلْبِي الْأَفْقُ
ضَاقَ الْفَضَاءُ وَغَامَ فِي بَصْرِي ضَوْءُ النُّجُومِ وَحَطَّمِ الْأَلْقُ
فَعَلَى جُفُونِي الشَّاحِبَاتِ وَفِي دَمْعِي شَطَايَا مِنْهُ أَوْ مِرْقُ
فَيْمَ الْفِرَاقِ؟ أَلَيْسَ يَجْمَعُنَا حَبٌّ نَظْلَ عَلَيْهِ نَعْتَنِقُ؟
حَبٌّ تَرَفَّرَقَ فِي الْوَعُودِ سَنَا مِنْهُ وَرَفَّ عَلَى الْخُطَى عَبَقُ

أَخْتَاهُ، صَمْتُكَ مَلُؤُهُ الرِّيبُ؟ فَيْمَ الْفِرَاقِ؟ أَمَالُهُ سَبَبُ؟
الْحَزَنُ فِي عَيْنِكَ مُرْتَجِفُ وَالْيَأْسُ فِي شَفْتَيْكَ يَضْطَرِبُ
وَيَدَاكَ بَارِدَتَانِ مِثْلَ غَدِي وَعَلَى جَبِينِكَ خَاطِرٌ شَجِبُ
مَا زَالَ سِرُّكَ لَا تُجَنِّحْهُ آهِ مُؤَجَّجَةٌ وَلَا يَثِبُ
حَتَّى ضَجَرْتُ بِهِ وَأَسَامَهُ طَوْلُ النَّوَاءِ وَأَدَّهُ التَّعَبُ
«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ.» وَاخْتَلَجَتْ شَفَّةٌ إِلَى الْقَبْلَاتِ تَلْتَهَبُ

(1) نشرت القصيدة، لأول مرة، في مجلة «البيان»، العدد (44) 1 نيسان 1948، ثم نشرها السيّاب في ديوان «أزهار وأساطير» مع جملة من التعديلات نبّئها في الهوامش التالية. (م)

ثم انثنت مَهِيضَةً⁽¹⁾ الجلد
وثرَدْدِيْنَ وَأَنْتِ ذَاهِلَةٌ
فتكاد تَنْتثر النجومُ أَسَى
لا تتركي، لَا تتركي لغدي
وإذا ابتسمت اليوم من فرح
ما كان عُمري قبل مَوْعدنا
تتنهَّدينَ وتعْصُرينَ يدي
«إني أخافُ عليكِ حزنَ غدٍ»
في جوِّهنَّ كذائبَ البردِ
تعكير يومي، ما يكون غدي؟⁽²⁾
فلتعبسْنَ ملامحُ الأبدِ⁽³⁾
إلا السنين تدبُّ في جسدِ⁽⁴⁾

أختاهُ لَدَّ على الهوى أَلْمِي
هاتي اللهبَ فَلَسْتُ أَرْهَبُهُ
ما زلتُ مُحترقاً تَلَقَّقُني
سوداءُ لا نور يضيءُ بها
هي ومضة ألقى الوجود بها
هاتي لهيبكِ إِنَّ فيه سَنَا
فاستمِعي بهواكِ وابسمي
ما كانَ حُبِّكَ أَوَّلَ الحَمَمِ
نارٌ من الأوهامِ كالظُّلَمِ
كرقاد حُمَّى دونما حُلَمِ
جذلان يرقص عاري القدمِ⁽⁵⁾
يَهدي خُطايَ ولو إلى العَدَمِ

1948/2/21

(1) كانت «عديمة» في النص المنشور في المجلة. (م)

(2) كان البيت، في النسخة المنشورة في المجلة، على النحو التالي: «معبودتي لا تتركي لغدي

تعكير يومي ما يكون غدي؟». (م)

(3) كان الشطر الثاني على هذا النحو: «فلتخر الأيام بالنكد». (م)

(4) كان الشطر الثاني على هذا النحو: «إلا الشقاء يدب في الجسد». (م)

(5) أبدل السياب ترتيب البيتين الأخيرين وغير كلمة «نظرة» إلى «ومضة». (م)

سرّاب

بقايا من القافلة
تُنيرُ لها نجمةً آفلة
طريقَ الفناء
وتؤنسها بالغناء
شفاهُ ظمأءٍ؛
تهاويلَ مرسومةً في السراب
تمزّق عنها النقاب
على نظرةٍ ذاهلة
وشوقٍ يُذيب الحدود.

ظلالٌ على صفحةٍ باردة،
تُحرّكها قبضةٌ ماردة،
وتدفعها غنوةً باكية،
إلى الهاوية.

ظِلَالٌ عَلَى سُلَمٍ مِنْ لَهَيْبٍ
 رَمَى فِي الْفِرَاقِ الرَّهَيْبِ
 مَرَاتِبَهُ الْبَالِيَةَ
 وَأَرْخَى عَلَى الْهَاوِيَةِ
 قِنَاعَ الْوُجُودِ.
 سَنَمْضِي ... وَيَبْقَى السَّرَابُ
 وَظِلُّ الشِّفَاهِ الظَّمَاءِ.
 يُهَوِّمُ خَلْفَ النِّقَابِ
 وَتَمْشِي الظُّلَالُ الْبِطَاءُ
 عَلَى وَقْعِ أَقْدَامِكَ الْعَارِيَةِ
 إِلَى ظُلْمَةِ الْهَاوِيَةِ
 وَنَنْسَى عَلَى قِمَةِ السُّلَمِ
 هَوَانًا ... فَلَا تَحْلُمِي
 بَأَنَّا نَعُودُ!

وداع⁽¹⁾

أريقني على ساعديّ الدموع وشديّ على صدريّ المُتعبِ
فهيّهاتْ أَلَا أجوبَ الظلام بعيداً إلى ذلك الغيبِ
فلا تهمسي: غابَ نجمُ السماء (2) ففي الليل أكثرُ من كوكبِ

وهلْ كانَ حُلُمٌ بغير انتهاء وهلْ كانَ لحنٌ بلا آخرِ؟
لكي تحسي أن هذا الغرام أبيدُ الرؤى خالداً الحاضرِ
وأنا سنبقى نعدُّ السنين مواعيد في ظلِّه الدائرِ؟

على مُقلتيك ارتماءً عميق وذكري مساء تقول ارجعي!
نداءٌ بعيدُ الصدى كالنجوم يراها حبيبان في مَخدع!
يكادُ اشتياقي يهزُّ الحجاب وتومي ذراعاي: هيّا معي!

سأمضي فلا تحلمي بالإياب على وَقعِ أقدامي النائبةِ
ولا تتبعيني إذا ما التفتُ ورائي إلى الشمعةِ الخابيةِ
يُرَنِّحُها في يديكِ النحيبُ فتَهْتَزُّ من خلفكِ الرابيةِ

(1) من قصائد «أساطير»، أعاد السياب نشرها في هذا الديوان مع تغيير نبيته في الهامش اللاحق. (م)

(2) كانت «المساء» في نسخة ديوان «أساطير».

ستنسِن هذا الجبِنَ الحزِين كما انحَلَّتِ الغِمةُ الشارِدةُ
وغابت كحُلُمٍ وراء التلال بعيداً سوى قطرةِ جامِدةُ
ستنثرها الرِّيحُ عَمَّا قليل وتشربها التُّربةُ الباردةُ

ورُبَّ اكتئابٍ يُسِيلُ الغروب على صمته الشاحب الساهِم
وأغنية في سكون الطريق تلاشت على هدأة العالم
أثارا صَدَى تهمس الذكريات إذا ما انتهى همسة الحالم

غداً حين يَبْلَى وراء الزجاج كتابٌ عليه اسمي الذابلُ
وتنفض كَفْأكَ عنه الغُبار ويخلوبك المَخْدَعُ القاجِلُ
سيلقَاكَ وجهي خِلال السطور كما يسطَعُ الكوكبُ الأفلُ

إذا ما قرأت «اللقاء الأخير» تمنَّيتُ، في غفلةٍ هاربة
لو استرجعت قبضتاك السنين لو استرجعت ليلةً ذاهبة!
ولكن شيئاً حواه الجدار تحدَّى أمانِيكَ الكاذبة

تلَقَّتْ عن غير قصدٍ هناك فأبصرتِ بالانتحار الخيال!
حروفاً من النار، ماذا تقول؟ لقد مرَّ ركبُ السنينَ الثِّقال
وقد باح تقويمهن الحزين بأن اللقاء المُرجَى مُحال!

لا تزيديه لوعة⁽¹⁾

لا تزيديه لوعةً فهو يلقاك لينسى لديك بعض اكتسابه
 قربي مُقلتيك من وجهه الداوي تَرِي في الشحوب سرّ انتحابه
 وانظري في غضونه⁽²⁾ صرخة اليأس أشباح غابر من شبابه
 لهفة تشرق الخطى بين جفنيه وحلم يموت في أهدايه

واسمعيه إذا اشتكى ساعة البين وخاف الرحيل يوم اللقاء
 واحجبي ناظريه في صدرك المعطار عن ذلك الرصيف المضاء
 عن شراع يراه في الوهم ينساب وموج يحسّه في المساء
 الوداع الحزين! شدي ذراعيك عليه، على الأسى والشقاء

حدثني، حدثه عن ذلك الكوخ وراء النخيل بين الروابي
 حلم أيامه الطّوال الكثيات فلا تحرميه حلم الشباب
 وأهميه بأنه سوف يلقاك على التّهر تحت ستر الضباب
 وأضيئي الشموع في ذلك الكوخ وإن كان كله من سراب

(1) من قصائد «أساطير»، أعاد السياب نشرها في «أزهار وأساطير» مع تغيير واحد نبيته في

الهامش التالي. (م)

(2) كانت «في عيونه» في نسخة «أساطير».

كُلَّمَا ضَجَّ شَاكِيًّا فِي ذِرَاعَيْكَ انْتِهَاءَ الْهَوَى صِرْخَتِ انْتِهَارَا
 فَارْتَمَى، أَيْنَ يَرْتَمِي صَدْرُهُ الْجِيَّاشُ حُزْنًا وَحَيْرَةً وَانْتِظَارًا؟
 اغْضَبَنِي وَادْفَعْنِي عَنْ صَدْرِكَ الْقَاسِي وَأَرْخِي عَلَيَّ هَوَاهُ السُّتَارَا
 أَوْصِدِي الْبَابَ خَلْفَهُ وَاتْرَكِيهِ مِثْلَمَا كَانَ لِلدُّجَى وَالصَّحَارَى!

1948/4/8

عبير

عَطَّرْتَ أَحْلَامِي بِهَذَا الشَّدَى من شَعْرِكَ المُسْتَرَسِلِ الْأَسْوَدِ
 الْجَوُّ مِنْ حَوْلِي رَبِيعٌ جَبَا من خِدره النَّائِي إِلَى الْمَوْعِدِ
 هَذَا عَبِيرُ الْحَبِّ فَجَّرْتَهُ يَبْحَثُ عَنْ مَجْرَى لَهُ فِي غَدِ
 نَبْعٌ أَثِيرِي الْخُطَى حَالَمٌ بِالظِّلَّةِ الْخَضِرَاءِ وَالْمَسْنَدِ
 وَالْعَاشِقُ السَّكَرَانُ يُحْصِي عَلَى ثَغْرِكَ مَا فِي اللَّيْلِ مِنْ فَرْقِدِ
 أَوْقَدْتَ مَصْبَاحَ الْهَوَى بَعْدَمَا خَبَا وَلَوْلَا أَنْتِ لَمْ يُوقِدِ
 هَبَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَجْنُونَةً محلولة الشَّعْرِ خَضِيبَ الْيَدِ
 الزَّيْتُ مِنْ هَذَا الشَّدَى وَاللَّظَى من قُبْلَةٍ فِي الْغَيْبِ لَمْ تُوَلِّدِ
 تَطْفُو عَلَى الْعِطْرِ خِيَالًا فَلَا تَرُسُبُ إِلَّا فِي الْفَوَادِ الصَّدِي

أَهْمُ أَنْ أَهْتَفَ: أَنْتِ الَّتِي مَثَلْتُهَا فِي أُمْسِي الْأَبْعَدِ
 وَأَنْتِ مَنْ تَحْلُمُ رُوحِي بِهَا عَلَى ضَفَافِ الزَّمَنِ الْمُزْبِدِ
 تُسَائِلُ الْمَوْجَ وَتُؤْمِي إِلَى كُلِّ شَرَاةٍ عَلَّهَا تَهْتِدِي
 أَهْمُ أَنْ أَهْتَفَ لَوْلَا خُطَى عَابِرَةً فِي الْخَاطِرِ الْمُجْهَدِ
 أَطْيَافُ حَسَنَاتِي اسْتِيقَظَتْ هَاتِفَةً: يَا ذَكْرِيَا تُشْهَدِي؟
 مَا نَالَ مِنَّا غَيْرَ أَسمَانَا تَسْخَرُ مِنْ آمَالِهِ الشُّرْدِ
 مَكْتُوبَةٌ بِالنَّارِ فِي شِعْرِهِ كَالصُّورَةِ الْخَرَسَاءِ فِي مَعْبِدِ

عينان زرقاوان

عينان زرقاوان ينْعَسُ فيهما لونُ الغديرِ
 أرْئُوفٍ ينسابُ الخيالُ ويُنْصِتُ القلبُ الكسيرُ
 وأغيبُ في نَعَمٍ يذوبُ وفي غمائمٍ من عبيرِ
 بيضاء مكسال التلوِّي تستفيقُ على خَريرِ
 ناءٍ يَمُوتُ وقد تَنَثَّاءَ كوكبُ الليل الأخيرِ
 يَمْضِي على مهل وأَسْمَعُ همستين وأُستديرُ
 فأذوبُ في عَيْنَيْنِ يَنْعَسُ فيهما لونُ الغديرِ

حسناء، يا ظِلَّ الربيع، مللتُ أشباح الشتاء
 سُوداً تُطْلُ من النوافذ كُلِّمَا عَبَسَ المساءُ
 حسناء، مَا جدوى شَبَابِي إنْ تَقْضَى بالشقاءِ
 عيناك، يال للكوكبَيْنِ الحَالَمَيْنِ بلا انتهاء
 لولاهُمَا مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ أَضْوَاءَ الرجاءِ
 زرقاءُ ساجيةٌ وَأَنَّ النورِ مِنْ صُنْعِ النساءِ
 هي نَظْرَةٌ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وبَسْمَةٍ تَعِدُ اللقاءِ
 وَيُضِيءُ يَوْمِي عن غَدِي وتَفِرُّ أشباحُ الشتاءِ

عَيْنَاكَ أَمْ غَابَ يَنَامُ
 سَاحَ تَلْتَمَّ بِالسَّكُونِ
 إِلَّا صَدَىَّ وَاهِ يَسِيلُ
 إِنِّي أَحَسُّ الذِّكْرِيَّاتِ
 فِي مَقْلَتَيْكَ مَدَى تَذُوبٍ
 وَغَفَا الزَّمَانُ فَلَا صَبَاحَ
 أَنِّي أَضِيعُ مَعَ الضُّبَابِ
 عَيْنَاكَ أَمْ غَابَ يَنَامُ
 عَلَى وَسَائِدَ مَنْ ظِلَالُ؟
 فَلَا حَفِيفَ وَلَا انْثِيَالُ
 عَلَى قَيَاسِ فِي الْخِيَالِ
 يَلْفُهَا ظِلُّ ابْتِهَالِ
 عَلَيْهِ أَحْلَامُ طَوَالِ
 وَلَا مَسَاءَ وَلَا زَوَالِ
 سَوَى بَقَايَا مَنْ سُؤَالِ
 عَلَى وَسَائِدَ مَنْ ظِلَالُ؟!

1948/1/6

في ليالي الخريف

في ليالي الخريف الحزين،
 حين يطغى عليّ الحنين،
 كالضباب الثقيل،
 في زوايا الطريق،
 في زوايا الطريق الطويل،
 حين أخلو وهذا السكون العميق
 تُوقَد الذكريات،
 بابتساماتك الشاحبات،
 كُلُّ أضواء ذاك الطريق البعيد
 حيثُ كان اللقاء.

في سكون المساء
 هل يعود الهوى من جديد؟
 عاهدني إذا عاد ... يا للعذاب!

عاهدِني ... ومَرَّتْ بقايا رياح
 بالوَرَيقات، في حَيْرَةٍ واكتئاب،
 ثُمَّ تهوي حِيَالُ السَّراجِ الحزين.
 انتهينا ... أما تذكرين؟
 انتهينا ... وجاء الصَّباح
 يسْكُبُ النورَ فوقَ ارتخاءِ الشفاه
 وانحلالِ العناقِ الطويل،
 أين آلام يوم الرحيل؟
 أين: لا «لستُ أنساكِ»، وا حسرتاه؟

في ليالي الخريف
 حين أُصغي، ولا شيء غيرُ الحفيف
 ناحلاً كانتحَابِ السجين
 خافَ أن يُوقِظَ النائمين،
 فانتحى في الظَّلام،
 يرقُبُ الأنجُمَ النائيات،
 حجبَتها بقايا غَمَام،
 فاستبدَّتْ به الذُّكريات؛
 الغناءُ البعيدُ البعيدُ
 في ليالي الحَصَاد،

أوجهُ النسوة الجائعات...
 ثُمَّ يَعلو رنينُ الحديدِ
 يَسْلُبُ البائِسَ الرُّقاد!
 في ليالي الخريف
 حين أصغى وقد مات حتى الحَفيف
 والهواء
 تعزف الأمسيات البعاد
 في اكتئابٍ يُثير البكاء،
 شهرزاد⁽¹⁾

في خيالي فيطغى عليَّ الحنين،
 أين كُنَّا؟! أما تذكُرِين؟
 أين كُنَّا؟! أما تذكُرِين المساء؟!!

في ليالي الخريف الطُّوال،
 آهِ لو تَعَلِّمين
 كيف يَطغى عليَّ الأسى والمِلال؟!
 في ضلوعي ظلامُ القُبورِ السجين،
 في ضلوعي يصيح الرَّدَى
 بالتراب الذي كان أُمي: «غداً

(1) قطعة موسيقية، للموسيقار الروسي «ريمسكي كورساكوف». (ش)

سوف يأتي، فلا تُقلقي بالنحيب
 عالم الموت، حيث السكونُ الرهيب!
 سوف أمضي كما جئتُ وا حسرتاه!
 سوف أمضي ... وما زال تحت السماء
 مُستَبِدُّونَ يستنزفون الدماء،
 سوف أمضي وتبقى عيون الطُغاة
 تستمدُّ البريق
 من جذى كل بيتٍ حريق
 والتماعُ الحراب
 في الصحارى، ومن أعين الجائعين،
 سوف أمضي ... وتبقى، فيا للعذاب!
 سوف تحيين بعدي، وتستمتعِين
 بالهوى من جديد،
 سوف أنسى وتَنسِينَ، إلَّا صدى
 من نشيد
 في شفاه الضحايا، وإلَّا الردى.

أغنية قديمة⁽¹⁾

1

في المقهى المزدحم النائي، في ذات مساء،
 وعيوني تنظرُ في تعبٍ
 في الأوجه، والأيدي، والأرجل، والخشب⁽²⁾
 والساعة تهزأ بالصَّخَبِ.
 وتدقُّ، سمعتُ ظلالَ غناء ...
 أشباحَ غناء
 تنتهّدُ في الحاكي، وتدور كإعصار
 بالِ مَصْدور،
 يتنقَّسُ في كهفٍ هارٍ
 في الظُّلْمَةِ مُنذُ عَصُور!

(1) من قصائد «أساطير»، وكان السيّاب قد أعاد نشرها في «أزهار وأساطير» مع تغييرات بسيطة نوردها في هوامش لاحقة. (م)
 (2) كانت: «الذهب»، في نسخة ديوان «أساطير». (م)

2

أُغنية حب ... أصداء
 تنأى ... وتذوب ... وترتجف
 كشرعٍ ناءٍ يجلو صورته الماء
 في نصف الليل ... لدى شاطئٍ إحدى العُجُر،
 وأنا أُصغي ... وفؤادي يعصره الأسفُ:
 لم يسقط ظلُّ يدِ القدرِ
 بين القلبين؟! لم أنتزع الزمنَ القاسي
 من بين يديَّ وأنفاسي
 يُمنالك؟ وكيف تركتُك تبتعدين ... كما
 تتلاشى الغنوة في سمعي ... نغمًا نغمًا؟!

3

آه ما أقدم هذا التسجيل⁽¹⁾ الباكي
 والصوت قديم؛
 الصوت قديم

(1) الأسطوانة. (ش)

ما زال يُولولُ في الحاكي.
 الصوتُ هُنا باقٍ، أمّا «ذات» الصوت:
 القلب الذائب إنشاداً
 والوجهُ الساهمُ كالأحلام، فقد عادا
 شبحاً في مملكة الموت -
 لا شيء - هُنالك في العدم⁽¹⁾.
 وأنا أصغي ... وغداً سأنامُ عن النغم!
 أصغيتُ ... فمثلَّ إصغائي
 لي وجهٌ مُغنية كالزهرة حسناء⁽²⁾
 يتماوج⁽³⁾ في نبرات الغنوة، كالظلّ
 في نهرٍ تُقلقه الأنسامُ،
 في آخرِ ساعاتِ الليلِ،
 يصحو ويَنَام.
 أأثور؟! أأصرخ بالأيام؟! وهل يُجدي؟!
 إنا سنموت

(1) كانت: «مع العدم» في نسخة ديوان «أساطير». (م)

(2) كان البيت، في نسخة ديوان «أساطير»، على النحو التالي: «لي صورة تلك الحسنة». (م)

(3) كانت: «تتماوج». (م)

وسننسى، في قاع اللحد؟
حُبًّا يحيا معنا ... ويموت!

4

ذرات غبار
تهتز وترقص، في سأم،
في الجو الجائش بالنغم،
ذرات غبار!
الحسناء المعشوقة مثل العشاق⁽¹⁾
ذرات غبار!
كم جاء على الموتى - والصوت هنا باقٍ -
ليل ... ونهار
هل ضاقت، مثلي، بالزمن
تقويمًا خُطَّ على كفنٍ،
ذرات غبار؟!

1948/7/20

(1) كان البيت، في نسخة «أساطير»، على هذا النحو: «الغادة مثل العشاق». (م)

ستار

1

عيناك؛ والنور الضئيل من الشموع الخائبات
والكأس، والليل المظلل من النوافذ، بالنجوم
يبحثن في عيني عن قلب وعن حب قديم
عن حاضر خاو، وماضي في ضباب الذكريات
ينأى، ويصغر، ثم يَفنى، إنه الصمت العميق
والباب تُوصده وراءك في الظلام يدا صديق!

2

كالشاطئ المهجور قلبي، لا وميض ولا شراع
في ليلة ظلماء بل فضاءها المطر الثقيل
لا صرخة اللقيا تطيف به ولا صمت الرحيل
يمنالك والنور الضئيل أكان ذاك هو الوداع؟!
باب وظل يدين تفترقان ثم هوى الستار
ووقفت أنظر، في الظلام، وسرت أنت إلى النهار!

3

في ناظريك الحالَمين رأيتُ أشباحَ الدموعِ
أنأى من النّجمِ البعيدِ، تمرُّ في ضوءِ الشموعِ
والياسُ مدَّ على شِفاهكِ، وهي تهمسُ في اكتئابِ
ظِلًّا كما تُلقِي جبالَ نائياتٍ من جليدِ
أطيافهن على غديرٍ تحت أستار الضبابِ
لا تسألِي: ماذا تُريدُ؟ - فلستُ أملكُ ما أريدُ!

4

بابٌ وظلُّ يديْنِ تفتَرِقانِ - ليتكِ تعلمينِ
أنَّ الشَّموعَ سَيَنْطَفِئْنَ، وأنَّ أمطارَ الشتاءِ
بيني وبينكِ سوفَ تَهْوِي كالستار فتصرخينِ
الريخُ تُعوِّلُ عند بابي، لستُ أسمعُ من نداءِ
إلا بقايا من حديثٍ ردَّدْتَه الذكرياتِ
وسنانَ هوَمٍ كالسَّحابةِ في خيالي ثم مات!

5

أنا سوفَ أمضي، سوفَ أنأى، سوفَ يُصبحُ كالجمادِ
قلْبُ قَضِيَّتِ اللَّيْلِ باحِثَةً، على الضوء الضئيلِ
عن ظِلِّه في مُقَلَّتِي فما رأيتِ سوى رماذِ!
أنا سوفَ أمضي - رُبما أنسى، إذا سال الأصيلُ
بالصَّمْتِ، أنكِ في انتظاري تَرُقُبِينَ وتَرُقُبِينَ
أو ربما طافت بِبِي الذُّكْرَى فلم تُذكِ الحنينِ

6

الزَّورْقُ النَّائِي وَأَنَاتُ الْمَجَادِفِ الطُّوَالِ
تَدْنُو عَلَى مَهْلٍ وَتَذْنُو - فِي انْخِفَاضٍ وَارْتِفَاعٍ
حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ يَدَاكَ إِلَيَّ فِي شِبْهِ ابْتِهَالٍ
وَهَمْسَةٍ: «هَا هُوَ ذَا يَعُودُ!» - رَجَعْتَ فَارْغَةَ الدَّرَاعِ!
وَأَفْقَتِ فِي الظُّلُمَاءِ حَيْرَى، لَا تَرَيْنَ سِوَى النُّجُومِ
تَرْنُو إِلَيْكَ مِنَ التَّوَافِدِ فِي وُجُومٍ، فِي وَجُومٍ!

7

قَدْ لَا أَؤُوبُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الْخِيَالِ، وَقَدْ أَؤُوبُ
لَا أَمْسٍ فِي قَلْبِي، وَلَا فِي مُقْلَتَيَّ هَوَى قَدِيمٍ
كَفَّانٍ تَرْتَجِفَانِ حَوْلَ الْمَوْقِدِ الْخَابِي وَكُوبٍ
تَتَرَاقِصُ الْأَشْبَاحُ فِيهِ وَتَنْظُرِينَ إِلَى النُّجُومِ
حَذَرَ الْبُكَاءِ و«كَيْفَ أَنْتِ؟» تَهْزُ قَلْبَكَ فِي ارْتِخَاءٍ
- «عَادَ الشِّتَاءُ...» - فَتَهْمِسِينَ: «وَسَوْفَ يَرْجِعُ فِي الشِّتَاءِ!».

سجين

ذراعاً أبي تُلقِيان الظلالَ على رُوحِي المُسْتَهَامِ الغريب
 ذراعاً أبي والسراجُ الحزين يُطارِدُنِي في ارتعاشٍ رتيب
 وحَقَّتْ بي الأوجهُ الجائعات حَيَارَى فيا للجدار الرهيب!
 ذراعاً أبي تُلقِيان الظلالَ على رُوحِي المُسْتَهَامِ الغريب

وطالَ انتظاري كأنَّ الزمانَ تَلاشَى فلم يَبَقْ إلا انتظار!
 وعيناي ملءُ الشمالِ البعيد فيا ليتني أُسْتَطِيعُ الفِرار
 وأنستَ التقاءَ الثُّرى بالسَّماء على الآلِ في نائباتِ القِفَار
 وطالَ انتظاري كأنَّ الزمانَ تَلاشَى فلم يَبَقْ إلا انتظار!

أَلْقَاكَ؟ تأتي عليَّ النجوم وتمضي وما غيرُ هذا السؤال
 تُغْنِيهِ في مسمعي الرياح وتُلقِيهِ في ناظريَّ الظلال
 وترنو على جَرَسِهِ الأُمْنِيَاتُ إلى ذكرياتِ الهوى في ابتهال
 أَلْقَاكَ؟ تأتي عليَّ النجوم وتمضي وما غيرُ هذا السؤال

أصِخِي! أما تسمعين الرنين تُدَوِّي به الساعة القاسية؟

أصيحخي فهذا صليلُ القيود وقهقهة الموت في الهاوية!
 زمان ... زمان يهزُّ النداء فؤادي فأدعوك يانائية
 أصيحخي! أما تسمعين الرنين تُدَوِّي به الساعة القاسية؟!

أما تُبصرين الدخانَ الثقيل يَجُرُّ الخُطى من فَمِ المَوْقِدِ؟!
 تَلَوَّى فأبصرتُ فيه الظهور وقد قَوَّسَتْهَا عصا السيِّدِ
 وأبصرتُ فيه الحجابَ الكثيفَ على جبهةِ العالمِ المُجهدِ
 أما تُبصرين الدخانَ الثقيل يَجُرُّ الخُطى من فَمِ المَوْقِدِ؟!

ولا بد من ساعة، من مكان لِرُوحَيْنِ ما زالتا في ارتقاب!
 سألقاك، أين الزمان الثقيلُ إذا ما التقينا، وأين العذاب؟!
 سينهارُ عن مُقلَّتَيْكَ الجدار وتفنى ذراعا أبي كالضباب
 ولا بدَّ من ساعةٍ من مكان لِرُوحَيْنِ ما زالتا في ارتقاب!

وكيفَ التلاقي، وبين المُنَى وإدراكِهِنَّ الدُّخانَ الثقيل؟
 تموجُ الأساطيرُ في جانبيه ويحبُّو على صدره المستحيل
 ونحنُ الغريقان في لُجَّه سننسى الهوى فيه عمَّا قليل
 وكيفَ التلاقي، وبين المُنَى وإدراكِهِنَّ الدُّخانَ الثقيل؟

لينهدَّ هذا الجدار الرهيب وتندك حتى ذراعا أبي!
 أحاطتْ بي الأعينُ الجائعات: مرايا من النارِ في غَيْهَبِ

إذا استطعت مَهْرَباً مُقْلَتَايَ تصدَّى خيالان في مَهْرَبِي
فأبصرتُ ظِلِّين لي في الجدار أو استوقفتني ذراعاً أبي

سأبقى وراء الجدار البغيض وعيناي لا تبرحان الطريق
أعدُّ الليالي خلال الكوى وأرعى نجوم الظلام العميق
فلا تيأسي أن تمرَّ السنون ويطفين في وجنتيك البريق
سأبقى وراء الجدار القديم وعيناي لا تبرحان الطريق

1947/7/27

ذكرى لقاء⁽¹⁾

قد انتصف الليل، فاطو الكتاب عن الريح والشمعة الخابية
فعيناك لا تقرأن السطور ولكنها العلة الواهية
فأنت تَرى مُقلَّتِيها هُناك وذكرى من الليلة الماضية
فتطوي على رُكبتك الكتاب وتزُنو إلى الأنجم النائية

هنا أنت بين الضياء الضئيل وبين الدُّجى في الفضاء الرحيب
وكم من مصابيح تَفنى هُناك تُنير الثرى والفراغ الرهيب

مصابيح كانت تذوب

وتنحل في شعرها

خطانا ولون الغروب

وما ضاع من عطرها

وُثِّقي على ذكريات الشتاء ستاراً من الأدُمع الراجفة
فتخبو مصابيحهن البعاد بطيئاً كما تبرُد العاطفة
كما افترقت يومَ حانَ الرحيل يدٌ صافحتها يدٌ واجفة
كرجع الخطى في الطريق البعيد كما انحلت الرغبة الخائفة

(1) من قصائد ديوان «أساطير» التي غيرَ فيها السياب حين أعاد نشرها في «أزهار ذابلة»، وسنين التغيير في هوامش مرفقة. (م)

وَتُصْغِي وَلَا شَيْءَ إِلَّا السَّكُونُ وَإِلَّا حُطِيَ الْحَارِسِ الْمُتَعَبِ
وَالْأَرْتَعَاشِ الضِّيَاءِ الضَّئِيلِ وَخَفَقَ الظَّلَالِ عَلَى الْمَكْتَبِ
وَأَسْفَارِكَ الْبَالِيَةِ

كَأَشْبَاحُ مَوْتِي تَسِيرُ

حَيَارَى إِلَى الْهََاوِيَةِ

- وَحُلُمِ ادِّكَارٍ قَصِيرِ -

وَتَنْسَابُ مِثْلَ الشَّرَاحِ الْكُتَيْبِ وَرَاءَ الدُّجَى رُوحُكَ الشَّارِدَةِ
تَرَى وَجْهَهَا كَالْتِمَاعِ النُّجُومِ وَتَطْوِيهِ عَنْكَ الْيَدَ الْمَارِدَةِ
إِلَى أَنْ يَذُوبَ الضُّبَابُ الثَّقِيلِ وَتَنْهَارَ أَلْوَانُهُ الْجَامِدَةِ
فَهَا أَنْتَ ذَا تَسْتَعِيدُ اللَّقَاءَ كَمَا عَادَتِ الْجُثَّةُ الْبَارِدَةِ

وَتَمْتَدُّ يَمْنَاكَ نَحْوَ الْكِتَابِ كَمَنْ يَنْشُدُ⁽¹⁾ السَّلْوَةَ الضَّائِعَةَ
فَتَبْكِي مَعَ الْعَبْقَرِيِّ الْمَرِيضِ⁽²⁾ وَقَدْ خَاطَبَ النُّجْمَةَ السَّاطِعَةَ:
«تَمْنِيْتُ يَا كَوْكَبُ

ثَبَاتًا كَهَذَا، أَنَامَ

عَلَى صَدْرِهَا فِي الظَّلَامِ

وَأَفْنَى كَمَا تَغْرُبُ»

(1) كانت في طبعة ديوان «أساطير»: «كمن ينشر». (م)

(2) الشاعر الإنكليزي «جون كيتس»، مات مسلولاً في الخامسة والعشرين من عمره، وآخر ما كتبه قصيدته التي يخاطب بها كوكباً في السماء. (ش)

وَيَغْشَى رُؤَاكُ الضِّيَاءُ الْقَدِيمِ بَطِيئًا، كَمَا سَارَتْ الْقَافِلَةُ
تَرَى الْبَابَ مِثْلَ انْعِكَاسِ الْمَغِيبِ عَلَى صَفْحَةِ الْجَدُولِ النَّاحِلَةِ
وَيَغْشَى رُؤَاكُ الضِّيَاءُ الْقَدِيمِ يُنِيرُ لَكَ الْغُرْفَةَ الْآفِلَةَ
وَيَغْشَى رُؤَاكُ الضِّيَاءُ الْقَدِيمِ فَيَا لانتفاضتك الهائلة!

تَرَى الْبَابَ أَلْقَى عَلَيْهِ الْأَصِيلُ ظِلَالًا مِنْ الْكِرْمَةِ الْعَارِيَةِ
فَمَا كَانَ غَيْرُ اعْتِنَاقٍ طَوِيلٍ عَصَرْنَا بِهِ الْقُوَّةَ الْبَاقِيَةَ
وَأَلْقَيْتُ عَبءَ السِّنِينَ

وَرَأْسِي، عَلَى صَدْرِهَا

فَشَدَّتْ عَلَيْهِ الْيَمِينَ

وَأَدْنَتْهُ مِنْ ثَغْرِهَا ...

وَأَيَقَنْتُ أَنْ الْحَيَاةَ؛ الْحَيَاةَ - بَغِيرِ الْهَوَى - قِصَّةُ فَاتِرَةٍ
وَأَنْسِي بَغِيرَ التِّي أَلْهَبَتْ خَيَالِي بِأَنْفَاسِهَا الْعَاطِرَةِ
شَرِيدٌ يَشْقُؤُ ازْدِحَامَ الرِّجَالِ وَتَخْنُقُهُ الْأَعْيُنُ السَّاحِرَةُ⁽¹⁾

(1) كانت في طبعة ديوان «أساطير»: «الأعين الساهرة». (م)

ملال

ليلان غاما بالنجوم الآفلاتِ على سُهادي
يومان. لا وعدٌ ولا لُقيا وتَخَفُقُ يا فؤادي؟!
وغداً سيمتلئ انتظاري بالظلام ولا أراها
وتجولُ عيني في الطريق وتستقرُّ على كتابي
وأكيلُ بالأقداح ساعاتي وأسخرُ باكتابي
وأنامُ أحلم بالشاءِ وأستفيقُ على هواها

سأّم ومصباحٌ وحيدٌ رانَ في أقصى الطريق
مرّت وجوه العابرينَ به فلوّنها قليلاً
مرّت وغابت في الظلام، وليس يبرح في حريق
سأّم ونافذةٌ يطيلُ فضاؤها الدرب الطويلاً
سأّم ومراة تشاءب في قراراتها الوجوم
الغرفة الجوفاء والأقداحُ والبابُ القديم

بالأمسِ كان هوى وكان وكان، ويَحَ الذكريات
«وافرحناه أتصدّقين؟» وقادنا نجم المساء

في ذلك الدربِ البعيدِ وألفُ نجوى واشتكاء⁽¹⁾
 تخبُّو وتنأى، والعناقُ يَعُدُّ أضواء الطريق
 بالأمس كان هوىً وكانَ، وخيمَ الصمتُ العميق

دبَّ الملال إلى فؤادك مثل أوراق الخريف
 «أهواك»؟ ماذا تهمسين؟ أتلِك حشرجة الحفيف
 في دوحه صفراء يُقلِق ظلها روح الشتاء؟!
 لا تنظري! في مقلتيكِ سحابتان من الجليد
 تتأَلَّقان ولا لهيبَ وتزحفان ولا فضاء
 فلَّ العناق على الجفونِ وحطَّ الدرب البعيد!

1948/5/3

(1) حذف الشاعر، بعد هذا السطر، بيتاً كان موجوداً في نسخة ديوان «اساطير» والبيت هو:
 «أهواك والتفت ذراعي والنجوم الشاحبات». (م)

نهاية

«سأهواك حتى تجف الأدمع في عيني
وتنهار أضلعي الواهية..»
«هي»

1

أضيتي لغيري فكلُّ الدروب
سواءً على المقلة الشاردة،
سأمضي إلى مجهلٍ لا أؤوب
فإن عادت الجثة الباردة،
فألقي على الأعين الخاويات
طيب⁽¹⁾ السماء.
لعلَّ الرؤى الخايات
إذا مسَّ أطرافهن الضياء،
يُخبرنَ عن ذلك المجهل:
عن الريح والغاب والجدول
أضيتي لها يا نجوم!

(1) كانت «لهيب السماء» في نسخة «ديوان اساطير». (م)

2

«سأهواك حتى ...» نداءً بعيد
 تلاشتُ على قهقهات الزمان
 بقاياها. في ظلمة، في مكان،
 وظلّ الصدى في خيالي يُعيد:
 «سأهواك حتى سأهوى» نواح
 كما أعولتُ في الظلام الرياح،
 «سأهواك حتى ... س...» يا للصدى
 أصيخي إلى الساعة النائبة:
 «سأهواك حتى ...» بقايا رنين
 تحدّين دقاتها العاتية،
 تحدّين حتى الغدا،
 «سأهواك» ما أكذب العاشقين!
 «سأهوا...» نعم ... تصدّقين.

3

ظلامٌ وتحت الظلام المخيف
 ذراعان تستقبلان الفضاء
 أبعد اصفرار الخريف

تُريدين ألاَّ يَجِيء الشتاء؟
 لقاءً وأين الهوى يا لقاء؟!
 عَوِيلٌ من القرية النائية،
 وشيخٌ ينادى فتاة الغريق،
 بهذا الطريق وذاك الطريق،
 ويمشي إلى الضفة الخالية
 يُسائل عنه المياه،
 ويصرخ بالنهر ... يدعو فتاه،
 ومصباحه الشاحبُ
 يُغني «سُدَى» زيتَه الناضبُ
 «مُحالٌ يراه!»
 ويحنو على الصفحة القاتمة
 يُحدِّقُ في لهفةٍ عارمة،
 فما صادفت مُقلّتاه
 سوى وجهه⁽¹⁾ المكفهرُ الحزين
 تُرجرجه رعدةٌ في المياه
 تُغمغم «لا لن تراه..»

(1) كانت «وجهك» في نسخة «ديوان اساطير». (م)

4

أحَقَّ نَسِيتِ اللقاء الأخير

أحَقَّ نَسِيتِ اللقاء...؟

أكان الهوى حُلْمَ صيفٍ قصير

خبا في جليد الشتاء؟

خبا في جليد

وظلَّ الصدى في خيالي يُعيد:

«خبا في جليد ... خبا في جليد..»

ويا رَبَّ حُلْمٍ يُهِيلُ الزمان

عليه الرؤى والسنين الثقيل

فتمضي ويبقى شُحوبُ الهلال

يلون بالأرجوان

شُحوبَ النجوم وصمتَ القمر،

ويومض في كُلِّ حُلْمٍ جديد،

شُحوبُ الهلال وظلَّ الشجر

وطيف الشراع البعيد؟

في القرية الظلماء

1

الكوكب الوسنان يُطفى ناره خلف التلال،
والجدول الهدّار يُسبره الظلام
إلّا وميضاً، لا يزال
يطفو ويرسب مثل عينٍ لا تنام،
ألقي به النجم البعيد
يا قلب ما لك، لست تهْدأ ساعة؟ ماذا تريد؟
النجم غاب وسوف يُشرق من جديد، بعد حين،
والجدول الهدّار هينم ثم نام،
أما الغرام، دع التشوّق يا فؤادي والحنين!

2

أأظُلُّ أذكرها ... وتنساني؟
وأبيتُ في شبه احتضار، وهي تنعم بالرفقاد؟
شعّت عيون حبيبها الثاني

في ناظرِها المُسبِّكَيْنِ على الرؤى، أمّا فؤادي
 فيظل يهمسُ، في ضلوعي،
 باسم التي خانت هواي ... يظل يهمس في خشوع.
 إني سأغفو ... بعد حينٍ سوف أحلم في البحار:
 هاتيك أضواء المرافئ وهي تلمع من بعيد ...
 تلك المرافئ في انتظار ...
 تتحرَّقُ الأضواء فيها ... مثلَ أصداٍ تبید.

3

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب،
 تتجاوب الأصداٍ فيها مثل أيام الخريف
 جوفاء ... في بطءٍ تذوب،
 واستيقظ الموتى ... هناك على التلال، على التلال
 الريح تُعول في الحقول، ويُصِتون إلى الحفيف.
 يتطلَّعون إلى الهلال
 في آخر الليل الثقيل ... ويرجعون إلى القبور
 يتساءلون متى النشور!
 والآن تُقرَع في المدينة ساعة البرج الوحيد.
 لكنني في القرية الظلماء ... في الغابِ البعيد.

4

دعها تُحِبُّ سواي، تقضي في ذراعِهِ النهار
وترأه في الأحلام يعبسُ أو يُحدِّثُ عن هواه،
فغداً سيهوي ساعده
مثل الجليد، على خطوطِ باهتات، في إطار،
وعلى الرفوف الشاحبات رسائل
عادت تلفُ، على نسيج العنكبوت، بها الوعود
والريح تهمس: لن يعود،
ويُلَوِّنُ المرأةَ ظلَّ من سراجِ ذابل،
وحِيالُه امرأةٌ تُحدِّقُ في كتاب
بالِ، وتبسُّمُ في اكتتاب.

5

الكوكب الوسنان يُطفئ ناره خلف التلال.
والجدول الهدَّار يُسبره الظلام
إلا وميضاً، لا يزال
يطفو ويرسب مثل عينٍ لا تنام؛
ألقي به النجم البعيد.
يا قلبُ، مالك في اكتتابٍ، لستَ تعرف ما تُريد؟!

لقاء.. ولقاء

لست أنت التي بها تحلم الروح، ولست التي أغني هواها،
كان حبُّ يشدّ، حولي، ذراعيك، ويدني من الشفاه الشفاها؛
واشتياق كأنما يسرق الروح - فما في العيون إلا صداها!
وانتهينا، فقلتُ «إني سأنساه» وغمغمت «سوف ألقى سواها»

أمس طال اللقاء؛ حتى تئاءبت، وشاهدتُ في يديك الملا،
في ارتخاء النسيج تطويه يمينك وعيناك ترمقان الشمال،
في الغياب الطويل؛ والمقعد المهجور ترمي يدي عليه الظلال،
في الشفاه البطء تدنو من الكوب.. وترتدّ ثم تلقي سؤالاً

التقينا - أهكذا يلتقي العشاق؟ أم نحن وحدنا البائسان؟
لا ذراعان في انتظاري على الباب، ولا خافق يعدّ الثواني
في انتظاري؛ ولا فمّ يعصر الأزمان في قبلة، ولا مقلتان
تسرقان الطريق والدمع من عيني؛ والداء والأسى من كياني

قد سئمت اللقاء في غرفة أغضى⁽¹⁾ على باب اكتئاب الغروب:
الضياء الكسول، والمزهريات تراءى بهن خفق اللهب
كالجناح الثقيل في دوحة صفراء في ضفة الغدير الكئيب⁽²⁾

واحتشاد الوجوه مثل التماثيل احتواهنّ معبد مهجور،
سمّرت قبلة التلاقي على ثغري... فعادت كما يطلّ الأسير
من كوى سجنه إلى بيته النائي - كما يخفق الجناح الكسير
للغدير البعيد - كالموجة الزرقاء جاشت فحطمتها الصخور!

عزّ حتّى الحديث بين الأحاديث، وحتى التقاؤنا بالعيون،
في فؤادي الشقيّ مثل الأعاصير، وفي ساعديّ مثل الجنون
التقينا؟ أكان شوقي للقياك اشتياقاً إلى الضياء الحزين،
واحتشاد الوجوه في الغرفة الجوفاء؛ والشاي، والخطى، واللحون،

الخطى واللحون، من فجوة الباب تسلّلن والضياء الضئيل،
والأزاهير تشرب النور في بطء ويعكسهن ابتساماً ذليلاً
كابتساماتي الحيارى وإطراقي برأسي وقد ذكرت الحقولا،
والغناء الطروب، والمعبر المغمور بالنور والشذى؛ والنخيل

(1) كانت: «أغضى» في طبعة ديوان «أساطير». (م)

(2) حذف السيّاب بعد هذا البيت ما يلي: «كاhtزاز النجوم تحت المجاديف إذا الزورق اختفى بالغريب!». (م)

لستِ أنتِ التي بها تحلم الروح - ولكنه الغرام المضاع:
الخطى العابرات في النور والأنداء؛ والشطّ والضحي والشرع -
التقينا: يدٌ تُمَدُّ إلى أخرى، وللنور في الشفاء التماع
ترقص القبله المرجاة فيه - ثمّ يدنو فمٌ وتطوى ذراع!

لستِ أنتِ التي بها تحلم الروح - ولكنه انتظار اللقاء:
انتظار التي تحلم بها الروح إذا لَقَّها اكتئاب المساء،
واستبدَّ الحنين، وانثالت الأصداء من كلّ ضفّة قمراء
لا تراها العيون، في عالمٍ ناءٍ؛ ومن كلّ باب كوخ مضاء

إنها الآن في انتظاري، تجيل الطرف حيرى، على امتداد الطريق،
والمساء الكئيب قد مآج بالأصداء تنساب من مكان سحيق:
«اتبعينا... فإنّ في الشاطئ النائي شراعاً يهيم⁽¹⁾ بالتصفيق
والحبيب المجهول ناداك؛ وامتدت ذراعاه في انتظار عميق»

1948/12/14

(1) كانت الكلمة، في نسخة «أساطير»: يهيم. (م)

هل كان حُبّاً⁽¹⁾

هل تُسمّين الذي ألقى هياماً؟
 أم جنوناً بالأمانى؟ أم غراماً؟
 ما يكون الحبُّ؟ نوحاً وابتساماً؟
 أم خُفوقَ الأضلع الحرّى، إذا حان التلاقي
 بينَ عينينا، فأطرقتُ، فراراً باشتياقي
 عن سماء ليس تسقيني، إذا ما؟
 جئتُها مُستسقياً، إلّا أواما

العيون الحور، لو أصبحنَ ظلاً في شرابي
 جفّت الأقداحُ في أيدي صحابي
 دون أن يحظين حتّى بالحباب.
 هيّتي، يا كأسُ، من حافاتكِ السكرى، مكانا
 تتلاقى فيه، يوماً، شفتانا

(1) أعاد السيّاب نشر هذه القصيدة في «أزهار وأساطير» بعد أن كان نشرها، لأول مرة، في «أزهار ذابلة» مع إجراء تعديلات كثيرة بينهاها سابقاً. (م)

في خفوقٍ والتهابِ
وابتعادٍ شاعَ في آفاقه ظلُّ اقترابِ

كم تمنى قلبي المكلوم لو لم تستجيبني
من بعيدٍ للهوى، أو من قريبٍ؛
أه لو لم تعرفني، قبل التلاقي، من حبيب!
أيُّ ثغرٍ مسَّ هاتيك الشفاها
ساكباً شكواه آهاً.. ثم آها؟
غير أنني جاهل معنى سؤالي عن هواها:
أهو شيءٌ من هواها يا هواها؟

أحسدُ الضوء الطروباً
مُوشكاً، مما يلاقي، أن يذوباً
في رباطٍ أوسع الشَّعر التثاماً،
السماء البكر من ألوانه آناً، وأنا
لا يُنيلُ الطرفَ إلا أرجواناً.
ليت قلبي لمحةً من ذلك الضوء السجين؛
أهو حبُّ كلِّ هذا؟! خبّرني.

الموعِدُ الثالث

فرّ النهارُ من البيوتِ النائياتِ، إلى السحابِ...
من سُفرةٍ زرقاءَ تحلم بالكواكب والضباب،
من مقلتين على الطريق. ومقلتين على كتاب

الدربُ تحرقه النوافذُ والنجوم المُستسرة
سكرانُ تزحمه الظلالُ وتشرب الأوهام خمره
هيهات، لا تأتي. وتهمس «فيم تأتي؟» شبه فكرة⁽¹⁾

قد أذكرتني مقلتكِ روىّ رسبَنَ إلى الظلام
زرقاءَ تسبح في ضبابٍ من شحوبٍ وابتسام:

(1) حذفَ السياب بعد هذا السطر، مقطعين كاملين، نوردهما هنا:

« وحدي والوان السحاب يلصّها النجم البعيد
وحدي! سأضحك من أساي، ويشرق الصبح الوليد
الحب! ماذا تهمين؟؟ فليس يلتهب الجليد!

شهران - سوف تمر أيامي وانسجها ستارا
هيهات تحرقه شفاهك وهي تستعر استعارا
لا تلمسيه فانت ظل ليس يخترق القرارا». (م)

الليلة القمراء تركض بين أشباح الغمام.

أفق يذوبُ على الحنين، يكاد يغرقُ في صفائه
يطويه ظلُّ من جناح، ضاع فيه صدى غنائه
أهدأبك السوداء تحمّلني، فأومضُ في انطفائه

من أنت؟! سوف تمرُّ أيامي وأنسجها ستارا⁽¹⁾
هيهات تُحرقه شفاهُك وهي تستعر استعاراً؛
لا تلمسيه.. فأنت ظلُّ ليس يخرقُ القرارا

مات الفضاء، سوى بقايا من مصابيح الطريق
مبهورة الأضواء، تنضبُ في جداول من بريق
صفراء تخنقها الظلالُ على فم الليل العميق

فيمَ انتظاري كال فراغ؟ وفيمَ يأسِي كالرماد؟
لن يسمع الدربُ المملولُ - وإن أصاح - سوى فؤادي
أما فؤادك...

ويح نفسي! أين أنت؟ ومن أنادي؟

(1) واضح أن هذا المقطع هو ذات المقطع الذي حذفه السيّاب وقد بيّناه في الهامش السابق، وقد غيّر السيّاب في مطلع البيت الأول. (م)

ديوان شعر⁽¹⁾

ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل
أنفاسي الحرى تهيم على صفحاته، والحبّ والأمل
وستلتقي أنفاسهنّ بها وترفّ في جنباته القُبَل
ديوان شعر، ملؤه غزل بين العذارى بات ينتقل

وإذا رأينَ النوح والشكوى كلّ تقول: من التي يهوى؟
وسترتمي نظراتهنّ على الصفحات بين سطوره نشوى
ولسوف ترتجّ النهود أسى ويشيرها ما فيه من نجوى
ولربما قرأته فاتنتي فمضت تقول: من التي يهوى؟

ديوان شعري.. ربّ عذراء أذكرتها بحبيبها النائي
فتحسست شفة مقبلة وشتيت أنفاس وأصداء
فطوتك فوق نهودها بيد واسترسلت في شبه إغفاء
ديوان شعري.. ربّ عذراء أذكرتها بحبيبها النائي

(1) القصيدة نشرت في «أزهار ذابلة»، ويمكن ملاحظة تعديلات الشاعر في الهوامش التي أرفقناها. (م)

يا ليتني أصبحت ديواني لأفرّ من صدرٍ إلى ثانٍ
 قدبتُ من حسدٍ أقول له: يا ليت من تهواك تهواني
 ألكَ الكؤوس ولي ثمالها ولكَ الخلود وإنني فانٍ
 يا ليتني أصبحت ديواني لأفرّ من صدرٍ إلى ثانٍ

سأبيت في نوحٍ وتسهيّد وتبيت تحت وسائد الغيد
 أولستَ مني؟ إنني نكد ما بال حظّك غير منكود؟
 زاحمتَ قلبي في محبته وخرجت منها غير معمود
 أأبيت في نوحٍ وتسهيّد وتبيت تحت وسائد الغيد؟

بغداد 26 - 3 - 1944

نهر العذاري⁽¹⁾

يا نهر، لولا مُنَحَنَّاكَ وما يُشَابِكُ من فروع
ما كانت البسمات في عينيَّ تُطفأ بالدموع⁽²⁾

حَجَبْتُ، بالشَّوِ البعيدِ تسدُّ بآيِهِ الظلالُ
وجهاً تلاقى في مُحَيَّاهُ الوداعةُ والجمالُ

مرأتُكَ الخضراءُ⁽³⁾ منذُ جَلَوَتْهَا تحتَ السماءِ
ما لاحَ فيها مثل ذاكَ الوجه في ذاك الصفاءِ⁽⁴⁾

إن أوقَدَ الليلُ العميقُ نجومه في جانبيكَ
لَمَّاحَةً الأضواءِ تَغْمُرُ بالأشعة ضفتيكِ

(1) وردت القصيدة أولاً في «أزهار ذابلة» وأعاد نشرها الشاعر مع تغييرات بينها في الهوامش التالية. (م)

(2) كان البيت في النص القديم: «لاقتاف البسمات، في عينيَّ، آثار الدموع».

(3) كانت في النص القديم: «السجواء».

(4) حذف الشاعر بعد هذا البيت ما يلي: «حدثت عنه النجم، والآهات يقطعن الحرير / والنجم يشكو، مثلها تشكو هواك، إلى الأثير».

ناشدت أَلْحَاظَ الْكَوَائِبِ وَهِيَ تَخْتَرُقُ الظَّلَامَ
أَلَّا يَنْمَنَّ - وَإِنْ تَشْهَيْنَ الْكَرَى - حَتَّى تَنَامَ

«أَنْتُنَّ أَسْعِدَ مَا أَظْلَى الْكُونُ يَا زَهَرَ النُّجُومِ
أَنْتُنَّ أَبْصَرْتُنَّ ذَلِكَ الْوَجْهَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ!»

حَتَّى إِذَا مَا رَنَّحَ النَّجْمَ الْأَخِيرَ سَنَا الصَّبَاحِ
فَانْقَضَ تَحْتَ الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءُ مَقْصُوصَ⁽¹⁾ الْجَنَاحِ⁽²⁾

أَصْبَحْتُ فَوْقَ الْمَعْبَرِ الْمَهْجُورِ أَرْقُبُ مُنْحَنَاكَ
فَأَبْوَحُ بِالشُّكُوى وَتَسْكُتُ عَنْ شِكَايِي ضِفَّتَاكَ⁽³⁾

الْفَتْنَةُ السَّمَرَاءُ تَسْرِقُهَا مِيَاهُكَ بَعْدَ حِينِ
الشَّعْرَ، وَالْعَيْنَيْنِ وَالثَّغْرَ الْمُنْضَرَّ وَالْجَبِينِ⁽⁴⁾

(1) كانت «محترق الجناح».

(2) حذف الشاعر بعد هذا البيت ما يلي: «وانساب في الوادي شتات الزارعين أو الرعاة/ فالجور تنبض في نساتمه الندية ألف آه».

(3) حذف الشاعر بعد هذا البيت الأبيات التالية: «يا نهر (جيكور) الجميل، ومتهى شكواك نور لا الشمس مظفئة جواي، ولا الكواكب والبدور

لا الصبح يوهن لاعجات الليل والوجد المثار

في مقتلتي، ولا يبيض الليل أحقاد النهار». (م)

(4) كان الشطر على هذا النحو: «الشعر والعينان.. والثغر المقلج.. والجبين». (م)

فإذا الهجيرة أطلقتها زُرْقَةُ الأفق البعيدِ
فالظُلُّ مقصوصُ الجَنَاحِ يفرُّ من عُوْدٍ لعودِ

سارَتْ إليك بطيئة الخطواتِ ذابلة الشِّفاهِ
جاءَتْكَ ظَمأى بالبنانِ الرَّخْصِ تغترفُ المياهَ⁽¹⁾

كم عُدْتُ مخمورَ الفؤادِ بموعِدِ المدِّ القريبِ
جدلانَ أقتحمُ الظهيرةَ بالتطلُّعِ والوثوبِ

التوتُ فوق الشاطئِ العَرَبِيِّ، والسَّعَفُ الصَّموتِ
لا يجهلانَ تنهَّداتِي، وهي بينهما تموت

والغاب ساعتي الحبيبةُ من ظِلَالِ عَقرباها
كم أنبأني أن طُرْفِي بعد حينٍ قد يَرَاهَا

(1) حذف الشاعر بعد هذا البيت الأبيات التالية: « والجوسق المستوحّد، المهجور، في غاب النخيل

تأوي إليه الغادة السمراء لاهبة الغليل
والدوحة اللفاء تحتبس البرودة في الظلال
مهد لأطفال الحقول، وملعب رجب المجال
سارت إليك بطيئة الخطوات، ذابلة الشفاه
جاءتلك ظمأى.. بالبنان الرخص تغترف المياه». (م)

واليومَ يسقي مذكَّ العَاتي أواخرَ كلِّ جَزْرٍ
لا ذاكِ يجلوها، ولا هذا بما أرجوه يجري

واليومَ إن سكرَ الخريزِ وعاد يحتضنُ الجراراً!
لم ألقَ عذرائي فكيفَ الصَّبْرُ يا نهرَ العذارى؟!

1946/4/28

مُلْحَقُ بَقَائِدِ مُسْتَنَاهٍ مِنْ «أَسَاطِير»

يَا لِيَالِي

«إلى السمراء ذات الغلالة الزرقاء»

واعذاباه من خطاك الثقال قَرَّبِي موعِدَ الهوى، والتحاياً
 وانتظاري لوقعِها، يا ليالي! من أَلْيَفَيْنِ الْحَفَا بالسؤال؛
 بين بحثٍ عن الضحى وابتهاال ينفضان السماء نجماً فَنَجْمَا
 عريانَ لائِذاً بالظلال الخريفُ الكئيبُ ما زالَ خلفَ التلِّ
 ..ورشِّي بها اخضرارَ الدوالي فانزعي عن يمينه صبغةَ الموتى
 على غير موعِدٍ بالوصال إِنَّ يَوْمَ اصفرارها موعِدُ اللقيا
 ما اسودَّ من فراغِ الهلال!! واملئي، بالنجوم مصهورةَ الأضواء
 قربي موعِدَ الهوى يا ليالي

أين حقلٌ على الليالي حصانُ أَيْنَ حَقْلٌ عَلَى اللَّيَالِي حِصَانُ
 راوحته الفصول في الموكب راوَحَتِهِ الْفُصُولُ فِي الْمَوَكِبِ
 لَوْنَتْ كُلَّ خُطْوَةٍ مِنْ خَطَاها لَوْنَتْ كُلَّ خُطْوَةٍ مِنْ خَطَاها
 حار فيه الربيع لا يَعْرِفُ التَّارِيخَ حَارَ فِيهِ الرَّبِيعُ لَا يَعْرِفُ التَّارِيخَ
 أين حقل هناك مَنِّي له الإنشادُ أَيْنَ حَقْلٌ هُنَاكَ مَنِّي لَهُ الْإِنْشَادُ
 وَاَتَكَائِي عَلَى الْأَزَاهِيرِ نَشْوَانُ وَاتَكَائِي عَلَى الْأَزَاهِيرِ نَشْوَانُ
 كم تسلمتُ موعداً في حناياه كَمْ تَسَلَّمْتُ مَوْعِداً فِي حَنَائِيهَا
 قربي موعِدَ الهوى، يا ليالي!

أيها الريفُ، ما ذممتُ المقاما
ليس حقلي هناك أُندى عييرا
وهي تسعى إلى لقاء، ولو لم
إنما جنّة الهوى حيث حواءُ،
أنت نبهت غافياً من خيالي
خلوة في الظلال، يا ريفُ هزّت
سافرات تقول منهن عذراءُ
قربي موعِد الهوى، يا ليالي!

خلوة في الظلال.. والأشقياء
خلوة.. تذهب الليالي وتأتي
يا لحرّ الغليل، إن فاضت الأقداحُ
واكتئابي وحسرتي كلما رانت
فالضيءُ الظلامُ، إن كان لا يطوي
إن شوكاً يدوسه الحبُّ أغلى
خلوة في الظلال في غابك النائي
قربي موعِد الهوى، يا ليالي!

قد سئمتُ الربى.. مللتُ الضفافا
مثلما عدّ أنجم الليل عرّافُ
أيها الشاطئان، أوهى جليدُ الموت
وكأنني أرى بعيني غوراً
أحسبُ الموجَ أو أعدُّ الخرافا
فأنبتُ، بموته؛ العرّافا
كفّي، فأرختِ المجذافا
قاتماً أحتسي دجاء ارتجافا

أهبط الموجَ سُلماً باردَ الألوان حتَّى أعانقَ الأصدافا
يا لمثوأيَ أعظماً قضقتهن الأعاصيرُ والعبابُ اجترافا
حيث لا نادبٌ سوى اللجِّ زخَّاراً على أضلعي بعيد الهتافا
قربي موعدا الهوى يالليالي

عاشق ينسجُ الرؤى من عناق يتمناه بعد طولِ الفراقِ!!
حالم جنحَ الأساطير بالأشواق واصطادهُنَّ بالإطراقِ
هكذا كان حاله، قبل لقاءها على غير موعداً بالتلاقِ
كان عبد المني.. فلما رآها صاح: يا أمنيات حلِّي وثاقي
تلك حوائي التي حَدَثَ الفردوسُ عنها، ففاض بالأشواقِ
يا معيناً يقطر، الحب من قلبي وذوب الشباب في أعراقي
يا حياة تدفقت ملء صحرائي تبلّ احتراقها واحتراقي
قربي موعدا الهوى يالليالي

في المساء الكئيب، دوى نداءُ ضاقتِ الأرضُ فاحتوته السماءُ
بين تلك التلال، حيث السواقي تعتريهن وحشةٌ وانطفاءُ
والضباب الشفيف ينحلُّ كالأطيافِ في خاطر طواه الفناءُ
علقت فيه نجمةٌ، فهو ظلُّ ألهبته الفراشة البيضاءُ
وهو رؤيا، توهجتْ بالهوى فيها وبالوجدِ، قبله عذراءُ
بين تلك التلال ناديتُ، يا سمراء حتَّى وهى وبُحَّ النداءِ
لم يجبني سوى صدى حائر الإيقاعِ بالكِ، يصيح: يا سمراء!
واختفى موعدا الهوى في الليالي

أين ألقاك؟! ضجَّ أمسي يناديك وألهيتِ حاضري بالسؤال
كلما أشرقَتْ، على قلبي المقرورَ عيناكِ من سماء الخيال
قلبي الراكد الذي انداح فيه صوتكِ الناحلُ الصدى كالظلال
ذلك الجدولُ الذي جمَدته في الشتاء الحزين، ريحُ الشمال
كلما أشرقَتْ، على قلبي المقرورَ عيناكِ - في ظلام الليالي
ذاب غلُّ الجليد من صوتكِ الفضيِّ سكرانٌ بالصبى والجمال
أنتم الخائنون كلَّ الرجال

سائلي أنجم الدجى عن هوانا أيُّنا أخلفَ العهد وخانا
منذ أن مزقَ الظلام اتقادَ صاغ من هزة السكون الزمانا
واسألي «شاعر الليالي»⁽¹⁾ غناء هز (فينيس) رقَّةً وحنانا
يرقب (البرج) عدت الساعةُ الثكلي عليه الخطوبَ والأحزاننا
أين نغريعدَّ بالقُبلِ الحرَّى عليه الوجيبَ والخفقاننا؟
أين من أقسمتْ له، وهي سكرى في ذراعيه نشوةً واحتضاننا
السراج الكئيب ولا ريحٌ والتقويمُ ينسجنَ حوله الأكفاننا
وهي سكرى تعبٌ كأس الوصال

واعذاباه كم أطلتْ عيونُ من ظلامِ الثرى، ترى من تكونُ
نحن مَنْ لم تصدنا حرمة الموتى فجئنا نقولُ: كانت تخون!!

(1) الشاعر الفرنسي، ألفريد دوموسيه، صاحب ديوان الليالي و«فينيس» - البندقية - المكان الذي قرأ إليه الشاعر وحببته الكتابة الشهيرة «جورج صاند» والبيتان التاليان لهذا البيت مقتبسان من موسيه، قال: «دعي ساعة البرج، في قصر الدوج، تعد عليه لياليه المستنات واطرkina نعد القبلات على ثغرك العاصي!» - (ش)

هذه البيد مزقت برقع الآل⁽¹⁾ فهبَّت من الرقاد القرون
وانثنت تقتفي على رملها النَّاسَ خطى غلّ وقعهن السكون
نقلتها على الثرى أرجلٌ حيرى طواهَنَ دَاوُهُنَ الزمِين
أنظريهنَّ واقفات.. حيارى مطرقاتٍ تذيبهنَّ الشجون..
واسمعيهنَّ: ها هنا مَاجَتِ الدنيا وخرَّ المعذَّبُ (المجنون)⁽²⁾
أين «ليلاه»؟؟ خبري يا ليالي؟

عافَ كلَّ الحياةِ إلا هواها ليته خانَ ودَّها أو جفاها
أين ما تدَّعي؟؟ أَجَنَّتْ كما جنَّ اشتياقاً وذابَ آها فآها؟
الهوى بيتُ عاشقينَ اطمأنا لا سؤال: أأنتَ قَبَلْتَ فاها⁽³⁾؟؟!
يشرف الحبُّ جامعاً بينَ زوجين بصفو الحياةِ أو في شقاها
ينسجان الزمانَ من قِبله سكرى ... يَكُنُّ الغدُّ المرجى صداها
كلما صوِّرا، من العطف، أختاً صوِّرا بين ساعديها أخاها،
يغرسان الورود في قلب «قابيل» فيحيي «هابيل» طيبُ شذاها
ضامداً بالإخاء جرح القتال

واعذاباه من خطاك الشقال وانتظاري لوقعها، يا ليالي
قربي موعد الهوى، والتحايا، من أليفين ألحفاً بالسؤال..

(1) الآل: السراب - (ش)

(2) مجنون ليل - (ش)

(3) إشارة إلى قول «المجنون» مخاطباً زوج ليلي:

«بربك هل ضمنت إليك ليلي

قبيل الصبح أو قَبَلْتَ فاها؟» (ش)

الخريف الكئيب ما زال خلف التلّ عريانَ لائذاً بالظلال..
 فانزعي من يمينه صبغة الموتى ورشي بها اخضرارَ الدوالي
 قربي موعد الهوى، ياليلي!

1947/9/20.

خطابٌ إلى يزيد

إِرمِ السَّمَاءَ بنظرةٍ استهزاءٍ
وَاسْحَقْ بِظُلْمِكَ كُلَّ عَرَضٍ نَاصِعٍ
وَامْلَأْ سَرَاجَكَ إِنْ تَقَضَّى زَيْتُهُ،
وَاخْلَعْ عَلَيْهِ كَمَا تَشَاءُ دُبَالَةً
وَاسْدُرْ بَغِيَّكَ يَا يَزِيدُ فَقَدْ ثَوَى
وَاللَّيْلُ أَظْلَمَ وَالْقَطِيعُ كَمَا تَرَى:
أَحْنِي لِسُوطَكَ شَاحِبَاتِ ظَهْوَرِهِ
وَإِذَا اشْتَكَى قَمَنَ الْمَغِيثُ؟ وَإِنْ غَفَا
مَثَلْتُ غَدْرَكَ.. فَاقْشَعِرْ لَهْوَلِهِ
وَاسْتَقْطَرْتُ عَيْنِي الدَّمُوعَ وَرَنَقْتُ
يَطْفُو وَيَرْسِبُ فِي خِيَالِي دُونَهَا
حَيْرَانٍ فِي قَعْرِ الْجَحِيمِ مَعْلُوقٌ
أَبْصَرْتُ ظِلَّكَ يَا «يَزِيدُ» يَرْجُهُ
رَأْسُ تَكَلَّلٍ بِالْخَنَا، وَاعْتَاضَ عَنْ
وَيْدَانِ مَوْثِقَتَانِ بِالسُّوْطِ الَّذِي
قَمَ وَاسْمَعِ اسْمَكَ وَهُوَ يَغْدُو سُبَّةً

وَاجْعَلْ شَرَائِكَ مِنْ دَمِ الْأَشْلَاءِ
وَأَبِخْ لِنَعْلِكَ أَعْظَمَ الضَّعْفَاءِ
مِمَّا تَدْرُ نَوَاضِبُ الْأَثْدَاءِ
هَدَبَ الرُّضِيعِ وَحَلْمَةَ الْعِذْرَاءِ
عَنْكَ «الْحَسِينُ» مَمَزَّقَ الْأَحْشَاءِ
يَرْنُو إِلَيْكَ بِأَعْيُنٍ بِلَهَاءِ -
شَأْنُ الذَّلِيلِ - وَدَبَّ فِي اسْتِرْخَاءِ
أَيْنَ الْمَهْيَبِ بِهِ إِلَى الْعِلْيَاءِ؟!
قَلْبِي وَثَارَ وَزُلْزَلْتُ أَعْضَائِي
فِيهَا بِقَايَا دَمْعَةٍ خَرَسَاءِ
ظِلُّ أَدَقِّ مِنَ الْجَنَاحِ النَّائِي
مَا بَيْنَ أَلْسِنَةِ اللَّطْيِ الْحَمْرَاءِ!
مَوْجُ اللَّهْيَبِ وَعَاصِفُ الْأَنْوَاءِ
ذَاكَ النَّضَارُ⁽¹⁾ بِحَيَّةِ رِقْطَاءِ
قَدْ كَانَ يَعْثُ أَمْسٍ بِالْأَحْيَاءِ!
وَانْظُرْ لِمَجْدِكَ وَهُوَ مُحَضُّ هَبَاءِ

وانظر إلى الأجيال يأخذُ مقبلاً
 كالشمس الوهاج - إلا أنها
 غصّت⁽¹⁾ بي الذكرى، فألقت ظلّها
 مبهورة الأضواء يغشى ومضها
 أضفى عليه الليل سترأ حيك من
 أسرى ونام.. وليس إلا همسة
 تلك (ابنة الزهراء) ولهى راعها
 تُنبي أخاها وهي تُخفي وجهها
 عن ذلك السهل الملبّد يرتمي
 يكتظ بالأشباح ظمأى حشرجت
 مفعورة الأفواه - إلا جثة
 زحفت إلى ماء تراءى، ثم لم
 غير (الحسين) تصدّه عما انتوى
 من للضعاف إذا استغاثوا والتظّت
 بأبي عطاشى لاغبين، ورضعاً
 أيدتُمُدُّ إلى السماء، وأعين
 طام، أحلّ لكلّ صَاد ورده:
 عزّ الحسين وجلّ عن أن يشتري
 ألا يموت ولا يوالي مارقاً
 فليصرعوه كما أرادوا.. إنّما

عن ذاهبٍ ذكرى أبي الشهداء
 نور الإله يجعل عن إطفاء
 في ناظري، كواكب الصحراء
 أشباح ركب لجّ في الإسراء
 عُرف الجنان ومن ظلال حراء
 باسم (الحسين) وجهشة استبكاء
 حلم ألم بها مع الظلماء
 ذعراً، وتلوي الجيد من إعياء
 في الأفق مثل الغيمة السوداء
 ثم اشربّت في انتظار الماء
 من غير رأس لطحّت بدماء
 تبلّغه - وانكفأت على الحصباء
 رؤيا.. فكفّي يا ابنة الزهراء
 عينا (يزيد) سوى فتى الهيجاء؟
 صفر الشفاء خمائص الأحشاء
 تنو إلى الماء القريب النائي
 من سائب⁽²⁾ يعوي ومن رقطاء
 ريّ الغليل بخطّة نكراء
 جمّ الخطايا، طائش الأهواء
 ما ذنب أطفال وذنب نساء

(1) وجدتها في طبعة ديوان «أساطير»: «غصت بي الذكرى». (م)

(2) السائب: الكلب، الرقطاء: الحية - (ش).

عاجتْ بيَ الذكري عليها ساعةٌ
 خفقتْ لتكشفَ عن رضيعٍ ناحلٍ
 ظمآنٍ بين يدي أبيه كأنه
 لاح الفراتُ له فأجهشَ باسطاً
 واستشفعَ الأبُ حاسيَه على الصدى
 رجى الرواة فكان سهماً حزّ في
 فاهتزّ واختلجَ اختلاجةً طائر
 ذكرى ألمّت فاقشعرّ لهولها
 واستقطرتْ عيني الدموعَ ورنقتْ
 يطفو ويرسبُ في خيالي دونها
 حيران في قعرِ الجحيمِ معلقٌ
 مرّ الزمانُ بها على استحياءٍ
 ذُبُلْتُ مراشفه، ذبولَ خباءٍ
 فرخُ القطةِ يدفُ في نكباءٍ
 يمناه نحو اللجةِ الزرقاءِ
 بالطفلِ يومئ باليد البيضاءِ
 نحر الرضيع وضحكة استهزاءِ
 ظمآن رفّ ومات قرب الماءِ
 قلبي وثار وزُلزَلتْ أعضائي
 فيها بقايا دمة خرساءِ
 ظلُّ أدقُّ من الجناحِ النائي
 ما بين ألسنة اللَّظى الحمراءِ

إلى حسناءِ القصر

حسنا يهنتكِ الشابُّ الغضُّ والمألُ العميم
 يهنتكِ يا بنتَ القصورِ الشَّمَّ آنك في نعيم
 إنَّ مَسَّ ظِلِّ القصرِ بالأقدامِ بانيه اللئيم
 الحاطمُ الصخرَ العَصِيَّ بحدِّ معوله الأثيم
 العاملُ العريدُ يسفر عن محيَّاه السقيم
 ورأيتِ آثارَ الغويِّ ببسمةِ الثغرِ العظيم
 أو طاف بالكوخِ البعيدِ تنهَّدُ الطفلُ اليتيم
 فظلاً يدنُّسُ وقعهُ المسؤومُ هزاتِ النسيم
 طهرتِ سمعَكَ بالغناءِ العذبِ والصوتِ الرخيم
 حسناء. يهنتكِ الشابُّ الغضُّ والمألُ العميم

يهنتكِ يا حسناء هاتيكِ اللآلي والثياب
 لم يضربِ الغواصُّ مهتاجَ الخواطرِ في العباب
 أو يقطع الأنفاسَ والأمواجُ ترقصُ في ضباب
 إلَّا ليخطي⁽¹⁾ جيدُكِ الوسنانُ بالنطفِ الرطاب

(1) من الوخط وهو الممازجة أو العلامة. (م)

يَقْطَعْنَ أَنْفَاسَ الْمُحِبِّينَ الظَّمَاءِ إِلَى السَّرَابِ
 لَمْ يَشْرَبِ الْفَلَاحُ وَسَطَ الْحَقْلِ عَرِيَانَ الْإِهَابِ
 وَالشَّمْسُ تَحْرَقُ، فِي رَحَابِ الْأَفْقِ، أَشْتَاتِ السَّحَابِ
 إِلَّا لِيَلْبِسَكَ الدِّمَقْسَ يَضُوعٌ بِالْعَطْرِ الْمَذَابِ
 وَسَنَانٍ، يَحْرَقُ أَكْبَدَ الْعِشَاقِ فِي نَارِ الْعَذَابِ
 فِإِذَا عَرِيَتْ فَعِنَ دَلَالٍ عَابَتْ هَتَكَ الْحِجَابِ
 يَهْنِيكَ يَا حَسَنَاءَ هَاتِيكَ اللَّالِيَّ وَالْثِيَابِ

لَمْ تَسْرِ بِنْتُ الْكُوخِ فِي أَسْمَالِهَا، تَحْتَ الظَّلَامِ
 مَذْعُورَةٌ الْأَلْحَازِ، عَاطِرَةٌ الْخَطَى، بَيْنَ الرِّجَامِ
 حَيْرَى تَوَدِّعُ خِذْرَهَا الْمَهْجُورَ، بِالْدمِ السَّجَامِ
 عِذْرَاءٌ.. تَطْرُحُ جِسْمَهَا الْمَنْهُوكَ فِي دَارِ الْآثَامِ
 إِلَّا لِتُثْمِسِي أَنْتِ طَاهِرَةً، مَصْفَاتِ الْغَرَامِ
 أَوْ تَسْهَرِ اللَّيْلَ الطَّوِيلَ، عَلَى ذِرَاعِ الْمُسْتَهَامِ
 فَظُّ يَجْرَعُهَا الْعَذَابُ وَقَدْ تَخَطَّفَهُ الْغَرَامِ
 إِلَّا لِيَسْقِيكَ الْكَرَى، مِمَّا يَعْصُرُ، أَلْفَ جَامِ
 مَا دَمَتْ هَائِنَةُ الْجَفُونِ، إِلَى الضَّحَى، دُونَ الْأَنَامِ
 فَلْتَسْرِ بِنْتُ الْكُوخِ فِي أَسْمَالِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ..

إِنْ حَوَّمَ الْمَوْتُ الْمَرْوَعُ فَوْقَ هَامَاتِ الْجُنُودِ
 وَجَرَى الدَّمُ الْمُسْفُوكُ يَخْضِبُ، بِالْأَسَى، بَيْضَ الْبُنُودِ
 وَهَوَى الرِّجَالُ عَلَى الْأَسْنَةِ وَالنِّسَاءُ عَلَى اللَّحُودِ

ولمحتِ أعناقَ الشعوبِ مصفداتٍ في القيود..
 فامضي إلى النار العتية بالأزاهرِ والورود!
 ما شأنهنَّ إذا تألقت الأساور والعقود؟
 تسعى من الشرق المخلف، وهو منتهكُ الحدود
 قد بات مخضوبَ القبور، وبِتَّ خاضبةَ الخدود
 فلتحلّمي بالعطر، والذهب المصفى والبرود
 إنَّ حَوَمَ الموتِ المروّعُ فوق هاماتِ الجنود

يهنيك أنك قد ملكتِ على رضاك العالمين
 خلّفتِ أربابَ الفنون، حيالِ خِدرِكَ ساجدين
 والكادحون لغير حسنكِ لم يعودوا كادحين
 فالنابي، مثل المنجل الجبار، مأسورٌ، سجين
 والنغمةُ المطرابُ، كاللون المقيد في الجبين
 أو فوق هاتيك الشفاهِ اللعسِ والطرف الضنين
 في صورةٍ ظلّت تلونها دماءُ البائسين..
 والشاعر النشوان، يقيسُ من جمالك كلّ حين
 فنّاً يحلق فوق أوهامِ العراة الجائعين
 يهنيك أنك قد ملكتِ على رضاك العالمين

حسناء إن دام الشبابُ فإنّ مالك لا يدوم
 والقصرُ ينفُضُ بعدَ حينٍ، عنه، أذرعةَ النجوم
 فيعود أنقاضاً مصدعةً يجلّ لها الوجوم..

يمشي عليه الثائر الغضبان بسَّامَ الكلوم
 الحاطم المستعبدين، وكل جبار ظلوم..
 العامل الموتور، يأخذ بالترات من الخصوم
 يحنو على الطفل اليتيم، كأنه الأم الرؤوم
 فإذا اكتئابُ الكوخِ بِشْرٌ لا ترنقه الهموم
 وإذا التهد أغنيات، في جوانبه تحوم..
 حسناء إن دام الشبابُ فإنَّ مالكٍ لا يدوم

إنَّ اللآلئِ سوف تنزعها الأكفُّ الداميات
 فيقر قلبٌ، في المقابرِ أو عيونٍ مطفآت
 قلب تنقَل، في البحار، على زئير العاصفات
 وعيون غواص هتكنَ دجى الليالي المظلمات
 وبحثن في الأغوار، والأمواج كالحة الثياب
 عن كلِّ ما حَوَتِ القلائدُ، من لآلئِ لامعات
 حسناء والدنيا بأجمعها تفيق من السبات
 قد آن أن تنسلَّ أثواب الدمقس العاطرات
 من جسمك الكاسي، إلى تلك الجسوم العاريات
 فإذا أبيت فسوف تنزعها الأكفُّ الداميات

حسناء والشعبُ المقيَّدُ، ليس ييخل بالدماء
 تجري سيولاً، تجرفُ الأصفادَ صاخبةَ الحداء
 وحناجر الأبطال تقترح العواصف بالنداء

يا أيها المستعمرونَ إلى الجلاء.. إلى الجلاء
 لن تشهدي والليلُ مختنقُ الكواكب في عماء
 عذراء تطرح جسمها المنهوك في نار البغاء
 فالجوعُ والعريُّ اللذان تجاذباها في المساء
 ذابا على نور الصباح، وذاب أصحابُ الثراء
 في موكب الشعب المفيق يسير خفاق اللواء
 لا يخل الشعب المقيد، بالضحايا والدماء

إن قَطَّبَ الموت المروءُ، في وجوه الثائرين
 وجرى دم المظلوم يسبحُ في دماء الظالمين
 فالأفق مختصم العواطف، مكفهر لا يبين
 شد الهتاف على هتافٍ، والأنين على أنين
 وطغى دُخانٌ في اليسار على دخان في اليمين
 فلتعلمي أنّ الأساور سوف تنزع بعد حين
 أنّ السجين نَزَا فَحَطَّم عنه أغلال السجين
 والشرق محميُّ الحدود بكلّ محميِّ العرين...
 ولتعلمي أنّ الأسير يخط لَحْدَ الأسيرين..
 إنَّ قطب الموت المروع، في وجوه الثائرين

والفن أثمر واستحال إلى سواعد لا تلين
 غضبي، تموجُ لتستقر على رقاب الظالمين،
 هو دمعة الثكلى، وقفقة العراة الجائعين

وَتَمُرُّ الْمَكْلُومُ فِي دَمِهِ، وَأَحْلَامُ السَّجِينِ
 وَهُوَ ابْتِسَامَاتُ الضَّحَايَا، وَانْتِفَاضُ الثَّائِرِينَ
 فَلْتَنْبِتِ الْأَرْضُ الْخَرَابَ⁽¹⁾ عَلَى سَنَا النِّجْمِ الْحَزِينِ
 صَبَّارَهَا.. إِنَّا سَنَمْلَأُ عَالَمَ الْغَدِ يَاسْمِينَ
 وَلَتَلْظَأُ أَحْدَاقُ الطَّغَاةِ فَسُوفَ تَطْفَأُ بَعْدَ حِينٍ
 إِنَّ رَنَحَتَهَا، حَيْثَمَا اتَّقَدْتُ، سَوَاعِدُ لَا تَلِينُ
 غَضَبِي، تَمُوجُ لَتَسْتَقَرَّ عَلَى رِقَابِ الظَّالِمِينَ

(1) «الأرض الخراب»: عنوان قصيدة للشاعر الإنكليزي الرجعي ت. س. إيليوت - (ش).

أَنشُودَةُ المَطَرِ

(1960)

إشارة

هذا الديوان نسخة طبق الأصل عن الطبعة الأولى لديوان «أنشودة المطر» الصادر عن دار «مجلة شعر»، بيروت (1960)، مع ضبط للنصوص ومطابقة مع المتوفر من أصول القصائد، وما نشر منه في الصحف والمجلات، فضلاً عن طبعات الدور الأخرى، وقد أجريتُ تثبيتاً لبعض الملاحظات التحريرية والاختلافات الجديرة بالتوثيق يجدها القارئ في هوامش مرفقة مع كل حالة.

المحقق

غريبٌ على الخليج

الريح تلهثُ بالهجرة، كالجثام، على الأصيلِ
وعلى القلوع تظلُّ تطوى أو تُنَشَّرُ للرحيل
زحم الخليج بهنّ مكتدحون جوابو بحار
من كلِّ حافٍ نصف عاري.

وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريبُ، يسرِّح البَصَر المحيِّر في الخليج
ويهدُّ أعمدة الضياء بما يُصعَّد من نشيج
أعلى من العباب يهدر رغوهُ ومن الضجيج
صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسي الثكلى: عراق،
كالمدِّ يصعدُ، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخُ بي: عراق،
والموج يُعوِّلُ بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق.

بالأُمسِ حين مررتُ بالمقهى، سمعتك يا عراقُ...
وكنْتَ دورةَ أسطوانةٍ

هي دورة الأفلاك من عُمرِي، تكوّر لي زمانه
في لحظتين من الزّمانِ، وإن تكن فقدت مكانه.
هي وجه أُمِّي في الظلامِ

وصوئُها، يتزَلّقان مع الرؤى حتّى أنام؛
وهي التّخيل أخاف منه إذا ادلهمّ مع الغروب
فاكتظّ بالأشباحِ تخطفُ كلّ طفلٍ لا يؤوبُ
من الدروب؛

وهي المفليّة العجوز وما توشوش عن «حزام»⁽¹⁾
وكيف شقّ القبر عنه أمام «عفراء» الجميلة
فاحتازها.. إلّا جديلة.

زهراء، أنت.. أتذكرين
تنوّرنا الوهاج تزحمه أكفّ المصطلين؟
وحديث عمّي الخفيض عن الملوك الغابرين؟
ووراء باب كالقضاء
قد أوصدته على النساء
أيدٍ تُطاع بما تشاء؛ لأنها أيدي رجال -

(1) هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق «عروة بن حزام» عند العامة الذين يروون قصة حبّه لعفراء وموته ويرددون معاني قصيدته، بشعر عامي. (ش)

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال.
 أفتذكرين؟ أتذكرين؟
 سعداء كنا قانعين
 بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء.
 حَشْدٌ من الحَيوات والأزمان، كنا عُنُوانه،
 كنا مَدَارِيهِ اللذين ينال بينهما كيانه.
 أفليس ذاك سوى هباء؟
 حُلْمٌ ودورة أسطوانة؟
 إن كان هذا كل ما يبقى فأين هو العزاء؟
 أحبيتُ فيكِ عراقَ روحي أو حبيتُكِ أنتِ فيه؛
 يا أنتما، مصباح روحي أنتما - وأتى المساء
 والليلُ أطبقَ فلتشعاً في دُجَاه فلا أتيه.
 لو جئتِ في البلدِ الغريبِ إليَّ ما كَمَلُ اللقاء!
 الملتقى بكِ والعراقُ على يدي... هو اللقاء!
 شوقٌ يَخْضُ دمي إليه، كأنَّ كُلَّ دمي اشتهاه،
 جوعٌ إليه... كجوع كلِّ دم الغريق إلى الهواء.
 شوق الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادة!
 إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!

أيخون إنسانٌ بلاده؟
 إنَّ خانَ معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟
 الشمس أجملُ في بلادي من سواها، والظلام
 - حتّى الظلام - هناك أجملُ، فهو يحتضن العراق.
 واحسرتاه، متى أنامُ
 فأحسَّ أنَّ على الوسادة
 من ليلك الصيفي طَلاً فيه عطرك يا عراق؟
 بين القرى المتهيّباتِ خطاي والمدنِ الغريبة
 غنيتُ تربتك الحبيبة.
 وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبه،
 فسمعتُ وقع خطي الجياع تسيرُ، تدمى من عثار
 فتذرُّ في عيني، منك ومن مناسمها، غُبار.
 ما زلتُ أضرب، مُتربِّب القدمين أشعث، في الدروب
 تحت الشموس الأجنبية،
 متخافق الأطمار، أبسطُ بالسؤال يداً نديّة
 صفراء، من دُلّ وحُمى: دُلّ شحاذٍ غريبٍ
 بين العيون الأجنبية،
 بين احتقارٍ. وانتهازٍ، وازورارٍ... أو «خطيّه»⁽¹⁾،

(1) كلمة إشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة. (ش)

والموت أهون من «خطية»،
 من ذلك الإشفاق تعصره العيون الأجنبية
 قطرات ماء... معدنية!
 فلتنظفي، يا أنتِ، يا قطراتُ، يا دُم، يا... نقودُ،
 يا ريحُ، يا إبراً تخيط لي الشراع - متى أعودُ
 إلى العراق؟ متى أعودُ؟
 يا لمعة الأمواج رنّهنَّ مجذافُ يروُدُ
 بي الخليجَ، ويا كواكبَه الكبيرة... يا نقودُ!

ليت السفائن لا تُقاضي راكبيها عن سفارِ
 أوليت أن الأرض كالأفق العريض، بلا بحار!.
 ما زلتُ أحسب يا نقودُ، أعدكُنَّ وأستزيد،
 ما زلتُ أنقصُ، يا نقود، بكنَّ من مُددِ اغترابي،
 ما زلتُ أوقدُ بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي
 في الضيقة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ
 متى أعود؟ متى أعودُ؟
 أترأه يأزف، قبل موتي، ذلك اليوم السعيدُ؟
 سأفئق في ذاك الصباح، وفي السماء من السحابِ

كِسْرٌ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشَبَّعٌ بعطُورِ آبٍ؛
 وأزِيحُ بالثُّوباءِ بُقيا من نعاسي كالْحِجابِ
 من الحرير، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبينُ:
 عما نسيْتُ وكدتُ لا أنسى، وشكٌّ في يقينِ.
 ويضيءُ لي - وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي -
 ما كنتُ أبحثُ عنه في عَمَاتِ نفسي من جوابِ
 لِمَ يملأُ الفرْحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضبابِ؟
 اليوم - واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأني - أعودُ!

واحسرتاه... فلن أعودَ إلى العراقِ!
 وهل يعودُ
 من كان تُعوزُهُ النقودُ؟ وكيفَ تُدَخِّرُ النقودُ
 وأنتَ تأكلُ إذ تجوع؟ وأنتَ تُنفقُ ما يجودُ
 به الكرام، على الطعام؟
 لتبكينَ على العراقِ

فما لديكِ سوى الدموعِ
 وسوى انتظاركِ، دون جدوى للرياحِ وللقلوعِ!

مرحى غيلان

- «بابا... بابا...»

ينسابُ صوتُكَ في الظلام، إلَيَّ، كالمطر الغصير،
 ينسابُ من خَلَلِ النُّعاسِ وأنت ترقد في السريرِ
 من أيِّ رؤيا جاء؟ أيِّ سماءٍ؟ أيِّ انطلاقٍ؟
 ... وأظُلُّ أسبُحُ في رشاشٍ منه، أسبُحُ في عيبٍ.
 فكأنَّ أوديةَ العراقِ
 فتحتْ نوافذَ من رؤاك على سهادي: كلِّ وادٍ
 وهبته عشتارُ الأزاهرَ والثمار. كأنَّ روحي
 في تربةِ الظلماءِ حبةُ حنطةٍ وصدأك ماءً.
 أعلنتِ بعثي يا سماءُ.
 هذا خلودي في الحياة تكنُ معناه الدماءُ.

«بابا...» كأنَّ يدَ المسيح
 فيها، كأنَّ جماجمَ الموتى تُبرِّعُ في الضريحِ.
 تموز عادَ بكلِّ سنبلةٍ تُعابثُ كلَّ ريحٍ.

«بابا... بابا...»

أنا في قرار بُوَيْبٍ⁽¹⁾ أرقد، في فراشٍ من رماله،
من طينه المعطور، والدم من عروقي في زلاله
ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيل.

أنا بَعْلُ: أخطر في الجليل...

على المياه، أنتُ في الورقات روعي والثمار
والماء يهمسُ بالخرير، يصلّ حولي بالمحار
وأنا بوَيْبُ أذوبُ في فرحي وأرقدُ في قراري.

«بابا... بابا...»

يا سُلَم الأنغام، أَيْةُ رغبةٍ هي في قرارِك؟
«سيزيف» يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارِك.
يا سُلَمَ الدم والزمان: من المياه إلى السماء
غيلانُ يصعد فيه نحوي، من تراب أبي وجدي
ويداه تلتمسان، ثم، يدي وتحتضنان خدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي.

(1) بويب: نهر في قرية الشاعر. (ش)

«بابا... بابا...»

جيكور⁽¹⁾ من شفتيك تولد، من دمائك، في دمائي

فُتحيل أعمدة المدينة

أشجار توت في الربيع. ومن شوارعها الحزينه

تتفجّر الأنهار، أسمع من شوارعها الحزينه

ورق البراعم وهو يكبر أو يمضّ ندى الصباح

والنسغ في الشجرات يهمس، والسنابل في الرياح

تعدّ الرّحى بطعامهنّ.

كأنّ أوردّة السماء

تتنفّس الدم في عروقي والكواكب في دمائي.

يا ظليّ الممتدّ حين أموت، يا ميلاد عمري من جديد:

الأرض (يا قفصاً من الدم والأظافر والحديد

حيث المسيح يظلّ ليس يموت أو يحيا.. كظلّ،

كيد بلا عَصَبٍ، كهيكَل مَيّتٍ، كضُحى الجليد،

النور والظلماء فيه متاهتان بلا حدود)

عشتارُ فيها دون بعلٍ

(1) «جيكور» قرية الشاعر في جنوب العراق.

والموت يركض في شوارعها ويهتف: يا نيام
 هبّوا، فقد وُلِدَ الظلام⁽¹⁾
 وأنا المسيح، أنا السلام.
 والنار تصرخ: يا ورود تفتّحي، وُلِدَ الربيعُ
 وأنا الفُرات؛ ويا شموغُ
 رشي ضريحَ البعل بالدم والهباب وبالشحوبِ.
 والشمس تُعول في الدروبِ:
 بردانةُ أنا، والسماء تنوء بالسُّحُب الجليد.

«بابا... بابا...»

من أيّ شمس جاء دفؤك أيّ نجم في السماء؟
 ينسلُّ للقفص الحديد، فيورقُ الغدُّ في دمائي؟

(1) كان كهنة إيزيس ينطلقون، في منتصف ليلة 12/25 من كل عام، هاتفين في شوارع الاسكندرية: «لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس». (ش)

أغنية في شهر آب⁽¹⁾

تموزُ يموتُ على الأفقِ

وتغور دماهُ مع الشفقِ

في الكهف المعتمِ والظلماءِ

نقالة إسعافٍ سوداءِ

وكان الليل قطع نساء:

كحلّ وعباءاتٍ سودُ

الليل خباء

الليل نهارٌ مسدودُ.

ناديتُ مربية الأطفال الزنجية:

الليل أتى يا مرجانه

(1) نشرت في مجلة «الآداب»، عدد (آيار) 1956، ولاحقاً في ديوان «أنشودة المطر» طبعة مجلة «شعر» 1960 بعد حذف أبيات منها، ونشر في طبعتنا الجديدة النص الكامل للقصيدة. وكانت المجلة قد صدرت القصيدة بما يلي: «محاولة لكتابة الشعر بأسلوب جديد... محاولة تطرحها «الآداب» على القراء، وتطلب فيها آراءهم». (م)

فأضيئي النور. وماذا؟! إنني جوعانه
 و.. نسيْتُ - أما من أغنيّة؟
 بم يهذر هذا المذيعُ؟!
 في لندنَ موسيقى جازٍ، يا مرجانه
 فأليها... إنني فرحانه
 والجاز من الدم إيقاعُ

تموز يموت ومرجانه
 كالغابة تربض بردانه...

وتقول، ويخذلها النفسُ:
 «الليلُ»، الخنزير الشرسُ
 الليل شقاء!«
 مرجانه.. هل قرع الجرسُ
 فتقول، ويخذلها النفسُ
 «في الباب نساء».
 وتعدُّ القهوةَ مرجانه

وعلى الأكتاف البيض فراء:
 الذئب يدثر إنسانه
 وعلى الأنداء من النمر
 شرق يتسلل، ملء الغاب، من الشجر
 والليل يطول مع السمر
 الليل كتّور - من أشباح البشر
 حُبزٌ يَنْشَقُّ نيرانه
 والضيقةُ تأكل جوعانه
 من هذا الزاد. ومرجانه
 كالغابة تربض بردانه

والضيقةُ تضحك وهي تقول: «خطيب سعاد
 جافاها، وانطوت الخطبة!
 الكلب تنكّر للكلبة...»
 تموز يموت بدون معاد
 والبرد ينثُ من القمر
 فتلوذ بمدفأة من أعراض البشر!
 سيعود إذا انتصف الليل⁽¹⁾،

(1) من هذا البيت يبدأ المقطع المحذوف في طبعة مجلة «شعر» لديوان «أنشودة المطر» ويستمر لثلاثة وعشرين سطراً، وينتهي الحذف بعد البيت التالي: «والليل الراكد، بالخضر». (م)

زوجي سيعود إلى الدارِ
 من بيت صديق أو بارٍ
 لا شوقَ يعلّق بالرقاص ولا بالعقرب أبصاري
 لا آهة - من رهب - تعلقو:
 من رنة مفتاح في الباب
 وضياء من شق ينساب
 كالماء المالح أشربه حتى تنفطر أغواري!
 ولقد يتأخر أو يأتي
 قبل الميعاد إلى البيت
 لكن سيعود
 لا لوم عليه، فقد أعطى ما أطلب منه، ولا عتب!
 خدم، ورياش ملء البيت، وأبهة. دنيا، ونقود
 «.. ماس، وبقيتها ذهب:
 وهديّة والدها؟! الله هدية والدها.. عجب:
 صياد بين يديه شباك
 تتلامح ملأى بالأسماك
 ذهب وزعانف من فضة
 ولألى توهم أنّها كلها تثب

وبأنّ لصائدُها خَصَّةُ!
 تموز يموت ومرجانه
 تتعوّذ، من عُقد السحرِ
 والليل الراكد، بالخُضرِ
 والليل يطفئُ شطآنه
 والضيقة تقبع بردانه
 وفراء الذئب تغطيها
 وتطفأت النيران اللاتي كانت بالدم تذكّيه.

ليلاً وجليد
 يتساقط عبرهما صوتٌ، رناتُ حديد
 وعواء ذئابٍ يخفيها...
 الصوت بعيد،
 والضيقة مثلي بردانه.

فتعال وشاركني بردي
 بالله تعال...
 يا زوجي، ها إني وحدي

- والضيقة مثلي بردانه -

فتعال، تعال

فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناء

بالله تعال

فالناس كثير... والظلماء

نقالة موتى سائقها أعمى، وفؤادك جبانة!

غارسيا لوركا

في قلبه تنور

النار فيه تطعم الجياع

والماء من جحيمه يفور:

طوفانه يطهر الأرض من الشرور

ومقلته تنسجان من لظى شراع

تجمّعان من مغازل المطر

خيوطه، ومن عيونٍ تقدح الشرر

ومن ثديّ الأمّهات ساعة الرضاغ

ومن مدى تسيل منها لذة الثمر

ومن مدى للقبالات تقطع السرر

ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع

شراعه النديّ كالقمر

شراعه القويّ كالحجر

شراعه السريع مثل لمحة البصر

شراعه الأخضر كالربيع
الأحمر الخضيب من نجيع
كأنّه زورق طفل مزّق الكتاب
يملاً مما فيه، بالزوارق النهر،
كأنه شراع كولمبس في العباب
كأنه القدر.

تعتيم

حين يذرُّ النُّورُ
 - يلقي به التنور -
 عن وجهكِ الظلماء
 ويهمس الديجورُ
 آهاته السمراء
 على محيَّالكِ،
 تهجس عيناكِ
 بكلِّ حزن الدهور
 وكلِّ أعيادها:
 أفراح ميلادها
 وغمغمات النذور
 وزهرها والخمور!

النورُ والظلماء
 أسطورةٌ منحوتة في الصخور:

كم ذاذَ بالنَّارِ،
 من أسدٍ ضاري
 وكم أخاف النمر،
 إنسان تلك العصور
 بالنُّور والنَّارِ!
 فأطفئي مصباحنا أطفئيه
 ولنطفئ التنورَ
 وندفن الخبز فيه،
 كي لا تعيد الصخورُ
 أسطورةً للنار، ظلَّت تدور
 حتَّى غدا أوَّل ما فيها
 آخرَ ما فينا - وليلُ القبور
 أوَّل ما فيها -
 ولنبق في الديجور
 كي لا ترانا نمور
 تجوس في الظلماء
 لترجم الأحياء
 - من غابة في السماء -
 بالصخر والنار
 وتستبيح القبور!

المخبر⁽¹⁾

أنا ما تشاء: أنا الحقيِرُ
صَبَّأُ أحذية الغزاة، وبائع الدم والضمير
للظالمين. أنا الغراب
يقتات من جثث الفراخ. أنا الدمار، أنا الخراب!
شفة البغيّ أعفّ من قلبي، وأجنحة الذباب
أنقى وأدفاً من يديّ. كما تشاء... أنا الحقيِر!
لكنّ لي من مقلتيّ - إذا تتبّعنا خطاك
وتقرّتا قسّات وجهك وارتعاشك - إبرتين
ستنسجان لك الشراكُ
وحواشيّ الكفن الملطّخ بالدماء، وجمرتين
تروّعان رؤاك إنّ لم تحرقاك!
وتحول دونهما ودونك بين كفيّ الجريدة

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الآداب» عدد تشرين الأول 1954، وقد صدرها الشاعر بالآية
القرآنية «أَحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»، ونعتمد هنا نصّ المجلة مع تبين تعديل
أجره الشاعر لاحقاً. (م)

فتند آهتك المديده

وتقول: «أصبح لا يراني»... بيد أن دمي يراك
 إني أحسك في الهواء وفي عيون القارئ.
 لم يقرأون: لأن تونس تستفيق على النضال؟
 ولأن ثوار الجزائر ينسجون من الرمال
 ومن العواصف والسيول ومن لهات الجائعين
 كفن الطغاة؟ وما تزال قذائف المتطوعين
 يصفرن في غسق القنال؟
 لم يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين
 كالشامتين؟

سيعلمون من الذي هو في ضلال
 ولأينا صبدأ القيود... لأينا صبدأ القيود...
 لأينا.... -

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يقرّ، سأقتفيه إلى السعير.
 أنا ما تشاء: أنا اللثيم، أنا الغبيّ، أنا الحقود
 لكنّما أنا ما أريد: أنا القويّ، أنا القدير.
 أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيّد من أشياء
 بمثلهنّ من الحديد، وأستبيح من الخدود
 ومن الجباه أعزّهنّ. أنا المصير، أنا القضاء.

الحقد كالتنور فيّ: إذا تلهَّب بالوقود
 - الحبر والقرطاس - أطفأ في وجوه الأمهات
 تنورهنّ، وأوقف الدم عن تُدَيّ المرضعات.
 في البدء كان يطيف بي شبحٌ يقال له: الضمير
 أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير.
 شبحٌ تنفّس ثمّ مات
 واللس عاد هو الخفير.

في البدء لم أكن في الصراع سوى أجير
 كالبائعات حليهنّ، كما تؤجّر - للبكاء
 ولندبٍ موتى غير موتاهنّ - في الهند النساء.
 قد أمعن الباكي على مضضٍ، فعاد هو البكاء!

الخوف والدمُ والصَّغارِ. فأنيّ شيء أرتجيه؟
 فعلى يديّ دمٌ وفي أذنيّ وهوة الدماء
 وبمقلتيّ دمٌ، وللدّم في فمي طعمٌ كريحه!
 أثقل ضميرك بالآثام فلا يحاسبك الضمير
 وانس الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا.
 لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير

لفرط ربعك أو لفرط أساك...

واحتضن الخطايا

بأشد ما وسع احتضان تنج من وخز الخطايا.

قوتي وقوت بني لحم آدمي أو عظام

فليحقدن علي كالحمم المسعرة الأنام

كي لا يكونوا إخوة لي آنذاك، ولا أكون

وريث قابيل اللعين سيسألون

عن القتل فلا أقول:

«أنا الموكل، ويلكم بأخي؟» فإن المخبرين

بالآخرين موكلون!

قدماي متعبتان من فرط ارتكاضي كالخيول⁽¹⁾

لأجر مركبة الوباء، ومقلتاي مضبتان

لفرط ما تتنقلان على الوجوه، وتنفضان

مفارق الطرقات

والهلع الكبير من الزمان.

(1) حذف السبب هذا البيت والأبيات الخمسة التالية، أي المقطع كاملاً، حين أعاد نشر

القصيدة في ديوان «أنشودة المطر». (م)

يَمْتَصُّ رُوحِي، فَهِيَ أَوْشَالٌ مِنَ الدَّمِ وَالْوَحُولِ.

سَحَقًا لِهَذَا الْكَوْنِ أَجْمَعَ وَلِيَحْلَّ بِهِ الدَّمَارُ!
 مَا لِي وَمَا لِلنَّاسِ؟ لَسْتُ أَبَا لِكُلِّ الْجَائِعِينَ
 وَأُرِيدُ أَنْ أُرَوِيَ وَأَشْبِعَ مِنْ طَوَى كَالْآخِرِينَ
 فَلْيَنْزِلُوا بِي مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ سَبَابٍ وَاحْتِقَارٍ
 لِي حَفْنَةُ الْقَمْحِ الَّتِي بِيَدِي وَدَانِيَةِ السَّنِينِ
 - خَمْسٌ وَأَكْثَرُ... أَوْ أَقَلُّ - هِيَ الرَّبِيعُ مِنَ الْحَيَاةِ
 فَلْيَحْلُمُوا هُمْ بِالْغَدِ الْمَوْهُومِ يَبْعَثُ فِي الْفَلَاةِ
 رُوحَ النَّمَاءِ، وَبِالْيَادِ وَانْتِصَارِ الْكَادِحِينَ
 فَلْيَحْلُمُوا إِنَّ كَانَتْ الْأَحْلَامُ تَشْبَعُ مِنْ يَجْوَعٍ.
 إِنِّي سَاحِيَا لَا رَجَاءَ وَلَا اشْتِيَاقَ وَلَا نَزْوَعَ،
 لَا شَيْءَ غَيْرَ الرَّعْبِ وَالْقَلْقِ الْمَمْضِ عَلَى الْمَصِيرِ
 سَاءَ الْمَصِيرِ!

رَبَّاهُ إِنَّ الْمَوْتَ أَهْوَنَ مِنْ تَرْقُبِهِ الْمَرِيرِ

سَاءَ الْمَصِيرِ:

لِمَ كُنْتُ أَحَقَرُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ حَقِيرٌ؟!

عرسٌ في القرية⁽¹⁾

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النضارِ
عن جناح الفراشة، مات النهار -
النهار الطويل.

فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلا القليل.
كانَ نَقْرُ الدَّرَابِكِ منذ الأصيل
يتساقط، مثلَ الشمار،
من رياح تهوِّم بين النخيل -

يتساقط مثل الدموع
أو كمثلي الشرار:

إنها ليلة العرس بعد انتظار!
مات حبٌّ قديمٌ، ومات النهار
مثلما تُطفئُ الريح ضوءَ الشموع.

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الأداب» عدد تموز 1954. (م)

الشموع... الشموع،
 مثل حقل من القمح عند المساء،
 من ثغور العذارى تعبُ الهواء،
 حين يرقصنَ حول العروس
 منشدات: «نوار، اهتبي يا نوار!
 حلوة أنتِ مثل الندى، يا عروس».
 يا رفاقي، سترنو إلينا نوار
 من علٍ في احتقار.
 زهدتها بنا حفنةً من نُصار:
 خاتمٌ أو سوار، وقصرٌ مشيدٌ
 من عظام العبيد...
 وهي، يا ربّ، من هؤلاء العبيد!
 ولو آنا وآباءنا الأولين
 قد كدحنا طوال السنين
 وأدّخرنا - على جوع أطفالنا الجائعين -
 ما اكتسبناه في كدّنا من نقود،
 ما اشترينا لها خاتماً أو سوار!
 خاتمٌ ضمّ في ماسه الأزرق

من رفات الضحايا مئآت اللحد
اشتراها به الصيرفيُّ الشقي.

مثلما تنثر الريح عن الأصيل
زهرةَ الجلنار -
أفقر الريفُ لَمَّا تولّت نوار.
بالصبابات، يا حاملاتِ الجرار
رخنَ واسألنّها: «يا نوار
هل تصيرين للأجنبي الدخيل؟
للذي لا تكادين أن تعرفيه؟
يا ابنةَ الريف، لم تنصفيه!
كم فتىً من بنيه
كان أولى بأن تعشقيه؟
إنهم يعرفونك منذ الصغرُ
مثلما يعرفون القمر...
مثلما يعرفون حفيف النخيل
وضفاف النهر
والمطر

والهوى، يا نوار...».

احصدوا يا رفاقي، فإنّ المغيب
طاف بين الروابي يرشُّ اللهب
من أباريقَ مجبولةٍ من نضار؛
والزغاريد تصدى بها كلّ دار:
أوقد القصر أضواءه الأربعين،
فاتبعوني إليها مع الرائحين.

اتركوني أغني أمام العريس
وأراقص ظلي كقرّده سجين
وأمثلّ دور المحبّ التبعيس
ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين،
من هواي المضاع،
من قلوب الجياع

حين تهوى، ومن ذلّة الكادحين.
سوف أكل حتّى ينزّ الدم
من عيوني... فما زال عندي فم:
كلّ ما عندنا نحن، هذا الفم!
كان وهماً هواناً، فإنّ القلوب

والصبابات وقفْ على الأغنياء!
لا عتابٌ... فلو لم نكن أغنياء
ما رضىنا بهذا، ونحن الشعوب.

فاشهدني يا سماء⁽¹⁾
واشهدني يا سهولَ الجنوب:
ما بقينا فهيئات يبقى شقاء -
إننا الأقوياء...

(1) عندما أعاد الشاعر نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر» حذف هذا البيت والأبيات الثلاثة التالية، أي المقطع كاملاً. (م)

مرثية الآلهة⁽¹⁾

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع⁽²⁾
 ويبقى اليتامى بعدنا والمصانعُ
 ويبقى «كرب»⁽³⁾ الجالب الكرب: كالصدى
 يغصّ المنادي بالردى، وهو راجعُ
 كأنّ الأميبي⁽⁴⁾ توائمٌ وهو توائمٌ
 لها، فهو في منجى من الموت قابعُ
 ولكنه الفرد الذي يزحف الورى
 إلى حيث ترمي مقلتيه المطامعُ
 أعنقاء من صحراء نجدٍ تقحمت
 بها مغربَ الشمس البعيدَ الزعازعُ
 أم انسلّ من أهرام فرعون هاجعُ
 وقته انتقاصَ الدود منه، المباحعُ؟

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الأدب»، عدد شباط 1955، وقد صَدَّرها الشاعر بها يلي: «مقطع من قصيدة رؤيا فوكاي»، ويبدو أنه كان يعدّها لتكون جزءاً من القصيدة المذكورة قبل أن يعدل عن ذلك ويجعلها قصيدةً مستقلة. (م)

(2) لم توضع الأبيات المضمنة بين أقواس، وإنّا اكتفينا بالإشارة إليها. (ش)

(3) كرب «Krupp» صاحب معامل الأسلحة الألمانية الشهيرة. (ش)

(4) الأميبي: حيوان ذو حجيرة واحدة، وهو خالد لا يموت لانعدام شخصيته. (ش)

ومن ليس يحيا لن يرى وهو هالكٌ
 فلو كان يحيا ما عدته الفواجعُ
 وما كان إلا اسماً «كربُّ» ابن مثله
 به يُدمغ اثنان: الورى والبضائعُ
 ولكنه اسمٌ بالأساميّ يغتذي
 تهجّاه زقّار اللَّطى والمدافعُ
 تمنّيتُ أني آلهُ: لا يُصيبها
 كلالٌ ولا وقتٌ بها مرّ ضائعُ
 لها من دماء الناس قوتٌ وخلفها
 من المال عن أن ينفد القوتَ مانعُ
 وما تخطئ الآلات في الجمع تارةً
 وفي الطّرح، إن يخطئ من الناس جامعُ
 ولا عاقبتها عصبهٌ من ورائها
 علينا عقابٌ برّئوا منه، واقعُ
 ألا كم رفعنا من إلهٍ وكم هوى
 إلهٌ وأضحى ثالثٌ وهو رابعُ
 فما جاوزتنا صورةً منه خطّها
 على غفلةٍ منا مُجيعٌ وجائعُ
 وما كان معبوداً سوى ما نخافه
 ونرجوه أو ما خيلته الطبائعُ
 فتَمَوَّزَ مثل اللَّاتِ، والرعدُ ما رمى
 بغير الذي تُطوى عليه الأضالعُ

وكم أله التمر التهامي معشرٌ
 لما ليس يحيا دونه الناس راعٍ
 قلما شكا بعد الأثافي قذرها
 وضنت على الشّدق الخفيّ المراضعُ
 كفى كلّ ثغرٍ كان يدعوه جوعه
 إله أحاطته المدى والأصابعُ
 دمي هذه الخمر التي تشربونها
 ولحمي هو الخبز الذي نال جائعُ
 ولما تشظى قلب نرسيّس وانثنى
 يلمّ الشظايا منه شارٍ وبائعُ
 وغدّى بها القلب الذي حين ذاقها
 نما فيه نابا كوسجٍ فهو قاطعُ
 هوى كلّ عالٍ من إلهٍ وسافلٍ
 إلى حيث ما من راحلٍ ثمّ راجعُ
 وأفضى إلى العرش السديميّ معدنٌ
 بما امتاح من أحداق «ميدوز»⁽¹⁾ لامعُ
 هو الشمس إلّا أنّ في زمهريره
 من الموت ظلّا حجّبه البراقعُ
 جزى أمّه الأرض التي من عروقها
 ربا واغتذى في جوفها وهو هاجعُ
 بشرّ الذي يُجزى به شرّ من غذا
 وأروى، ويُجزاه العدو المنازعُ

(1) «ميدوز» هي إلهة في أساطير الإغريق تحيل من تلتقي عينه بعينها إلى صخر. (ش)

فأدمى بنيتها وارتعى من بناتها
 حقولاً ترجى، فهي شوةً بلاقُعْ
 كقبايل يغتال الأشقاء، راكلُ
 - كأوديب - للخبز الإلهي صافِعْ
 وهذا الإله الأملس الفظّ ما جَلا
 لنرسيَس يجثو عنده وهو خاشعْ
 سوى وجه نرسيَس الرخاميّ، شابه
 شحوبّ يهوديّ التلاوين ناعِ
 وأوفى من الأرباب جيل يؤمّه
 على قمّة الأولمب ربّ مخادِعْ
 ترى «فحم» إذ يلقاه يلقاه راجفاً
 و«فلاذ» من تلماح عينيه مائعٌ⁽¹⁾
 ويا عهد كُنّا كابن حلاج: واحداً
 مع الله إن ضاع الورى فهو ضائعْ
 أكَل الرّجال الجوف أن يملأوا به
 خواء الحشا هذا الإله المضارعْ
 فعادَ الفقير الرّوح من ليس كاسياً
 به ظاهراً منّا... فحلّ التنازعْ

(1) جرّدت من الفحم والفلوذ شخصين لإلهين من الأرباب الجدد، أتباع زيوس الجديد الذهب - وعاملتهما كاسمي علم، ومنعتها من الصرف. (ش)

من رؤيا فوكاي

(فوكاي، كاتب في البعثة اليسوعية في
هيروشيما، جُن من هول ما شاهده
غداة ضربت بالقنبلة الذرية).

1 - هياي... كونغاي، كونغاي⁽¹⁾

ما زال ناقوسٌ أبليكِ يُقلقُ المساءَ

بأفجع الرثاء:

«هياي.. كونغاي، كونغاي».

فيفزع الصغارُ في الدروبَ

وتخفق القلوب،

وتغلق الدُّور ببكينَ وشنغهايَ

(1) تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوساً ضخماً يُصنع من الذهب، والحديد، والفضة، والنحاس. وكلف أحد الحكام بصنعه. ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي - وهي ابنة ذلك الحاكم - العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن... فكان الناقوس... وظل صدَى كونغاي يتردد منه كلما دق: «هياي.. كونغاي، كونغاي». (ش)

من رَجَع: كوَنَغاي، كوَنَغاي!
 فلتُحرقِي وطفلكِ الوليد،
 ليَجْمَعَ الحديدَ بالحديد
 والفحمَ والنحاسَ بالنُّضار
 والعالمَ القديمَ بالجديد
 آلهةُ الحديدِ والنحاسِ والدِّمار،
 أبوك رائدُ المحيطِ، نامَ في القرار:
 من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار⁽¹⁾...
 وحظكِ الدُّموع والمحار
 وعاصفٌ عاتٍ من الرصاص والحديد.
 و«أريل» الجديد⁽²⁾
 الهدرجين⁽³⁾، واهب المياه للقفار
 ومنجب اللهيب، عاد يرسل الوعيد
 يهز شنغهاي

-
- (1) شكسبير - العاصفة: أغنية «أريل» - روح الهواء الذي سخره «بروسبيرو» الساحر - لفرديناند: «على عمق أذرع خمسة ينام أبوك في قرارة البحر، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين... اسمع ها هو الناقوس ينعاه» وقد اتخذته ت. س. إليوت في قصيدته الكبرى «الأرض الخراب» رمزاً عن «الحياة من خلال الموت» ولكن لاحظ كيف حوّلت «بيعه التجار» المعنى! (ش)
- (2) حُذِف هذا البيت والأبيات الخمسة التالية حين أُعيد نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر». (م)
- (3) إن ثلثي تركيب الماء من الهيدروجين... كما أن قنبلة مبيدة تصنع من هذا الغاز ذاته! (ش)

يُرجع «كونغاي، كونغاي».
 وذلك المجلجلُ المُرُنُّ من بعيد:
 لمن، لمن يدق: «كونغاي، كونغاي»؟
 أهمُّ بالرحيل في «غرناطة» الغجر؟
 فاخضرت الرياحُ، والغديرُ، والقمر⁽¹⁾؟
 أم سُمِّرَ المسيحُ بالصليب فانتصر
 وأنبثت دماؤه الورودَ في الصخر؟
 أم أنها دماءُ كونغاي؟
 ورغمَ أنَّ العالمَ استسرَّ واندثر⁽²⁾،
 ما زالَ طائرُ الحديدِ يذرُّ السماءَ،
 وفي قرارة المحيطِ يعقد الكرى
 أهداب طفلِك اليتيم - حيثُ لا غناءَ
 إلَّا صراخَ (البايون): «زادك الثرى،

(1) هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الإسباني القليل «لوركا». شاعر الغجر. (ش)

(2) هذا البيت والأبيات الستة التي تليه - تكاد تكون حرفية - عن الشاعرة الإنكليزية إيديث ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البايون - القردة - في قاع المحيط تهز مهد طفل بشري - قتل «طائر الحديد» أمه - وتغني له مصبحة بهذا - وهي القردة - أمًا للطفل البشري ومعلمة له أيضاً. (ش)

وللاحظ قراء قصيدتي هذه أنَّ هناك شخصاً ثلاثة تترابط في ذهني: الصياد الياباني - أو الصيني - الغريق الذي أحاطب ابنته، وأبو «فرديناند» - الذي زعم أربل أنه غرق - والقردة «البايون» التي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط كما جاء في قصيدة إيديث ستويل. (ش)

فازحفْ على الأربع... فالحضيض والعلاء

سيّان، والحياة كالفناء!»

سيّان «جنكيز»، و«كنغاي»

هابيل قابيل، وبابل كشغهاي،

وليست الفضة كالحديد!

هياي.. كونغاي، كونغاي!

الصين حقل شاي،

وسوق شنغهاي

يعجّ بالمزارعين قبل كلّ عيد.

هياي.. كونغاي. كونغاي!

2 - تسديد الحساب

تلك الرواسي كم انحطّ النهارُ على

أقصى ذُرَاهَا، وكم مرّت بها الظلمُ

فما فرحن بآلاف الشموسِ، ولا

من ألفِ نجمٍ تردى مسّها ألم

صمّاء، بكماء، لم تأخذ، ولا وهبتْ

ولا ترصّدها موتٌ ولا هرم

لو أودع الله إياها أمانته

لنالهنّ على استياداعها ندمٌ

ولأقتسمنَ مع الأحياء ما دفعت
 من جزية لا تُوفى حين تُقتسم:
 عن كلّ قهقهة من صرخةِ ثمنٍ
 وما استجدَّ دمٌ إلا وضاع دمٌ
 وما تحمّل آلامَ المخاض ولم
 يقرب من النور إلا الفكرُ والرحمُ
 وإن يكن أسعدَ الأحياء أكملها
 فإنما هو أشقاهنَّ لا جرمُ؟
 «قابيل» باقٍ وإن صارت حجارتُه
 سيفاً، وإن عادَ ناراً سيفُه الخدم
 وردَّ «هابيل» ما قاضاه بارئه
 عن خلقه، ثم ردتْ باسمه الأممُ
 واليوم، في حين وفّى الدّينَ غارمه
 إلا بقايا وكادت تخلص الذّم
 وكاد يُرجع للدنيا بشاشتِها
 ما قرّبتَه الضحايا وهي تبتسمُ
 مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه
 من وحشها في المخاض الأوّل الضرُم
 خلقٌ تراءى لـ«يحيى»⁽¹⁾ ساعة افترسَتْ
 عينيه رؤيا لها من هؤلاء فمُ
 لو يُقبض النورُ بالأيدي لسوّره
 دونَ الورى... ولتعمّ العالم الظلم

(1) القديس يوحنا - كما يسميه المسيحيون. (ش)

رِيَّانُ عطشانٌ لا يروى، بلا فرح
 جذلانٌ، بادٍ عليه الجوع والبشمُ
 كأنه - وهو ماضٍ في غوايته -
 من نفسه اقتصَّ، فهو الماءُ والحُمُ
 تفجر الضَّحِكُ المسلوبُ من رئةٍ
 منخوبةٍ بعد أخرى هذَّها السقمُ
 عن ضحكةٍ أطلقوها فهي صاعقةٌ
 أصابهم والورى من رجعتها صم
 واستنزفوا متعةَ الأحياء: ما دفعوا
 عنها، ولا غارماً ما استنزفوا رحموا
 ثم استزادوا... فإن لم يذهبوا ديةً
 أو يقصروا عن طماحٍ يرجحِ العدمُ!

3 - حقائق كالخيال⁽¹⁾

ماذا تريد العيونُ السود من رجلٍ
 قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها
 زهراً على جسمي المحمومِ أقطفه
 في باقيةٍ من جراحٍ بتُّ أصلاها:
 هذا الربيع الذي تهدي شقائقه
 ريحَ المنايا إلى قلبي بريَّاهَا

(1) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيا، مصاب بالزهري
 الذي افترس دماغه حتى عاد بتخيل أشياء لا وجود لها، ولكنه - خلال أوهامه ودون وعي
 منه - يصور جانباً مما حدث في هيروشيا حين أُلقيت عليها القنبلة. (ش)

أزهارُ تموزَ⁽¹⁾ ما أرعى: أَسْلَمَه
 في عتمةِ العالمِ السُّفليِّ إياها؟
 أم صَلُّ حوَّاءَ بالتفَّاحِ كافأني
 وهو الَّذي أُمسِ بالتفَّاحِ أغواها؟
 ماذا تريدِ العيونُ السود؟ إنَّ لها
 ما لستُ أنساه منها حين أنساها
 ما بالهن استعَضْنَ البومِ أوعيةً
 عن أوجه الغيد... حتَّى ضاع معناها
 أين المناكير من لُغسٍ مرأشُفها
 ربِّي؟ وأين ابتسام كان يغشاها
 من هذه الخبرةِ الظلماءِ محدقةً
 بي أعين البومِ من أجداثٍ موتاها؟
 قفراءُ من غيرِ ثكلى شَفَّ مئزرها
 عن وهج فانوسها الكابي وأخفاها
 تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعتَه⁽²⁾
 طفلٌ، وطارت وقد ألوى جناحاها
 محنية تتقرَّى كلَّ شاهدةٍ
 من كلِّ قبرٍ، كما لو كان طفلاها
 في كلِّ قبرٍ يذوقان الردى: ديةً
 عمَّن يؤاوي وعن أحياءِ دنياها

(1) تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء، وحبيب عشتروت - أو فينوس - إلهة الحب. وهو يقضي نصفاً من السنة - الشتاء - في العالم السفلي مع برسفون، والنصف الآخر - الصيف أو الربيع - على الأرض مع فينوس. (ش)

(2) اليراعة؛ ذبابة مضيئة، حباب. (ش)

نادتهما فانبرى يزقو لصيحتهما
 - من حيث ردّ الصدى - بُومٌ وناداهما:
 «أُمّاه إنا هنا. ريحٌ بنا عصفت
 لم ندر أين انتهينا بعد لقيهاها»
 وانشقّ من خلفها قبرٌ ليلعها
 واحتازها واشراّبت منه كفّاها
 يختصّ فانوسها التّمّتامُ بينهما
 والريحُ خرساء تعبى...
 غيرَ «ها.. ها.. ها..»

وَيَلَمَّ سَازَاكَ⁽¹⁾ كيف اندكّ حائطه
 حتّى تعرّى ليّ السهلُ الَّذي حجباً؟
 سهلٌ يكنّ الصلالَ الرّقْطَ، أجهضه
 عادٍ من المحل حتّى يفزع العطباً
 وانبحّت التربةُ العجفاء - من عطش -
 عن أشدّقٍ فاغراتِ تنبح السحبا
 والشمس كالأطلس⁽²⁾ المسعور تنهشه
 والريحُ تصليه من تنورها لها
 الريح؟ لا ليست الريح التي ركضت
 بيضاء سوداء رقطاء القفا عجا

(1) الدكتور سزاكي كان طبيباً في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هيروشيا. (ش)

(2) الأطلس: الذئب. (ش)

عنقاء⁽¹⁾ في مسعر الجوزاء أعينها
 والصخر يرفض من أظلافها شهباً
 تلك الزرافات⁽²⁾ في السهل العقيم لها
 مرعى روى من سرابٍ، ينبت السّغيا
 ما روّعتها سوى ضوضاء خشخشة
 في كفّ أبرص يعدو خلفها خيباً
 تخفيه عنها ضماداتٌ، ويظهره
 ما نَزَّ من قيحه الدامي وما شخبا
 نادى، وكفّاه تختضّان، «واحرِبَا»
 فاستعبر العاصف المصدور «واحرِبَا»!
 «ماءٌ اسقِ يا ماءً..» تلهأثّ مقاطعه
 منزوعة من لسان يشبه الخشباً
 حتّى استجاب السحاب الجوّ فانعقدت
 في الجوّ حبّاته الغبراء فاحتجبا
 وانهلّ: لا عن ندَى صافٍ ولا مطر
 بل عن دم، من تُدِيّ مُزّقت حُلبا
 أو عن مشاشٍ من الأحداق فقأها
 سيخٌ لجنكيز⁽³⁾ دامٍ ينفث اللهبا
 «ماء، اسقِ يا ماءً..» والغيثُ الرهيب كلى
 مفريّةً سحّت الآجال والكُربا

(1) عنقاء طويلة العنق. (ش)

(2) الزرافات جمع زرافة، الحيوان المعروف. (ش)

(3) «جنكيز خان» السّاح المشهور. (ش)

لم يبقَ من مرتوٍ أو ظامئٍ، بفمٍ
أو دونَ...، إلّا ومن ماء الردى شربا

ويلٌ لسازاك! ماذا ينتوي بدمي
من نيّة... فهو يستصفي ويمتار؟
تلك الزجاجات أشلاء مجزأة
مني، دمي مختزٍ فيهنّ موار!
لم تثن سازاك عن شحذٍ لمديته
آهات مرضى، ولا ألهاه زوار
إنني لدارٍ بأنّي حين يشرعها
رانٍ إليها، فملدوغٌ، فمُنهار
هل تبتغي شفرتها غير آنية
فيها دمي راجفٌ، والداء والعار؟
ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرَضٍ
- في عين سازاك - يُجبي منه إيجار
ست وعشرون: أعدادٌ على سررٍ
أمّا الأصحاء والمرضى فأصفار!
فالرقم «عشرون» لا يسقى سوى لبٍ
والرقم «عشر» نعاه اليومَ محرارُ
واليوم لم يبقَ ما أعطيه عن مرضٍ
إلّا دعائي وقولي «نِعْمَتِ الدارُ»!
فليلقَ سازاك من يسمي «ثمانية»
غيري، ويستوفِ أجرَ القبر حفارُ!

قافلة الضياع⁽¹⁾

أرأيت قافلة الضَّيَّاع؟ أما رأيت النازحين؟
 الحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين
 آثامَ كلِّ الخاطئين
 النازفين بلا دماء
 السائرين إلى وراء
 كي يدفنوا «هابيل» وهو على الصليب ركام طين؟
 «قاييل، أين أخوك، أين أخوك؟»
 جمّعت السماء
 آمادها لتصبح. كُورَت النجوم إلى نداء:
 «قاييل، أين أخوك؟»
 - «يرقد في خيام اللاجئين
 السِّلُّ يُوْهن ساعديه، وجثته أنا بالدواء

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الآداب» عدد تموز 1956، ونشرت لاحقا في ديوان «أنشودة المطر» مع تغيير نأى على تبيينه. (م)

والجوع لعنة آدم الأولى وإرث الهالكين
ساواه والحيوان ثم رماه أسفل سافلين
ورفعته أنا بالرغيف، من الحضيض إلى العلاء.

الليل يُجهّض، والسفائن مثقلاتٌ بالغزاه:
بalfاتحين من اليهود،
يلقين في حيفا مراسيهنّ - كابوسٌ تراه
تحت التراب محاجرُ الموتى فتجحّظ في اللحد.
الليل يُجهّض، فالصباحُ من الحرائق.. في ضحاه
الليل يُجهّض، فالحياه
شيء ترَجَّح لا يموت ولا يعيش بلا حدود
شيء تفتَح جانبا على المقابر والمهود
شيء يقول «هنا الحدود!»
هذا لكل اللاجئين، وكل هذا.. لليهود!

النار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب
في كلّ منعطفٍ تصيح: «أنا النصار، أنا النصار!»
من كلّ سنبلة تصيح ومن نوافذ كلّ دار:

«أنا عجلُ «سَيْنَاء» الإله، أنا الضمير، أنا الشعوب
أنا النضار!»

النار تتبعنا، كأنّ مدى اللصوص وكل قطاع الطريق
يلهثن فيها بالبواء، كأنّ ألسنة الكلاب
تلتزّ منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور باب
تتصبّب الظلماء كالطوفان منه؛ فلا تراب
ليُعَادَ منه الخلق، وانجرف المسيح مع العباب
كان المسيح بجنبه الدامي ومثره العتيق
يسدّ ما حفرت ألسنة الكلاب

فاجتاحه الطوفان: حتّى ليس ينزف منه جنبٌ أو جبين
إلاّ دجى كالطين تبنى منه دورُ اللاجئين.
النار تركض كالخيول وراءنا. أهُمّ المغولُ
على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرينَ
أروّضوا أمسِ الخيول؟
أم نحن بدء الناس: كلّ تراثنا أنصابُ طين.

النار تصهل من ورائي والقذائف لا تنامُ
عيونها وأبي على ظهري، وفي رحمي جنين

عريانٌ دون فمٍ ولا بصيرٍ، تكوّر في الظلام
 في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ. وكالجرس الصغير
 يرنُّ ملء دمي صدها - تكاد تومض كلّ رוחي بالسّلام
 حتّى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير
 عريانٌ دون فمٍ كأفقر ما يكون: بلا عظامٍ
 وبلا أب، وبدون حيفا دون ذكرى - كالظلام!
 أسريتُ أعبر، تحت أجنحة الحديد به الزمان
 من الحقول إلى المراعي فالكهوف
 والأرض تطمس من وراء ظهورنا، كالأبجدية
 الدوّر فيها والدوالي شاخصات كالحروف
 فكأنّ أمس غدٌ يلوح وليس بينهما مكانٌ.
 لم يخرجونا من قرانا وحدَه ولا من المدن الرخيّة:
 لكنهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّة!
 فالיום تمتلئ الكهوف بنا ونعوي جائعين
 ونموت فيها لا نخلف للصغار على الصخورِ
 سوى هبابٍ ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين!
 ونموت فيها لا نخلف بعدنا حتّى قبور
 ماذا نخطّ على شواهدها؟ «كانوا لا جيّين»؟

اليوم تمتلئ الكهوف بنا: تُظَلِّل بالخيام
وبالصفائح، وقد تغلفهنَّ بالآجر دور
والنور كالتابوت فيها، ليس فيه سوى ظلام.

بين الكهوف وبين حيفا من ظلام ألف عام أو يزيد
بين الكهوف وبين أمسٍ هناك بئرٌ لا قرارَ
لها، كهافية الجحيم تلزّ فاها دون نارٍ
تتعلّق الأجداث فيها كالجلامد في جدارٍ
لحدّاً على لحدٍ، أزيح الطينُ عنها والحجاز
من يدفن الموتى وقد كُشفوا وماتوا من جديدٍ؟
من يدفن الموتى

ليولد، تحت صخرة كلّ شاهدةٍ، وليدٌ؟
من يدفن الموتى لثلا يزحموا باب الحياةِ
على أكفّ القابلات؟

من يدفن الموتى لنعرف أنّنا بشر جديدٌ!
في كلّ شهر من شهور الجوع يومئ يوم عيدٍ
فنخفّ نحمل من «تذاكرنا» صليبَ اللاجئتين:
- «يا مكتباً للغوث في سيناء هبّ للتائهين

مَنَّا وسلوى من شعير، والمشيمة للجنين
 واجعل له المطّاط سُرّة
 وارزقه ثدياً من زجاجٍ واخشُ بالأدريج صدره!».

وبأيّما لغة نقول فيستجيب الآخرون
 ونورث الدم للصغار؟
 أعلمت - حين نقول: دار أو سماء - أيّ دار
 أو سماء تخطران على العيون؟
 هيهات، ليس للاجئين ولا جناتٍ من قرار
 أو ديار،
 إلّا مرايع كان فيها أمسٍ معنى أن نكون
 سنظلّ نضرب كالمجوس نجسّ ميلاد النهار!
 كم ليلة ظلماء كالرحم انتظرنا في دجاها
 نتلمسُ الدم في جوانبها ونعصرُ من قواها
 شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاح نار
 حتّى حسبنا أنّ باب الصبح يفرج - ثم غار
 وغادر الحرسُ الحدود.
 واختصّ رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار،

ثم اضمحل إلى غبار بين أحذية الجنود.
 الليل أُجهَضَ: ناره الحمى وديمته انتحاب الضائعين،
 الليل أُجهَضَ: ليس فيه سوى مجوس اللاجئين،⁽¹⁾
 الليل... كلا! ما هناك؟ انظر - تَصَوَّأت السماء
 بنور نجم كالصليب، هو الخلاص! هو الفداء!
 وُلد (الفدائيون)، بابُ غد،
 فلا غَدَ لليهود!

(1) حين أعيد نشر القصيدة في ديوان «أنشودة المطر»، تم حذف الايات الأربع الأخيرة التي تشكل خاتمة القصيدة ووضع مكانها الايات التالية: «النار تركض كالخيول وراءنا. أهم المغول على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرين أروضا أمس الخيول؟ أم نحن بدء الناس: كل تراثنا أنصاب طين؟». (م)

يَوْمُ الطِّغَاةِ الْآخِرِ

«أغنية ناثر عربي من تونس لرفيقتة»

- «إلى الملتقى...»، وانطوى الموعدُ

وظلَّ الغدُّ:

غدُّ الثَّائرينِ القريبِ.

يداً بيدٍ من غمارِ اللهبِ

سنرقى إلى القمّةِ العاليِ

وشعركُ حقْلُ حباهِ المغيبِ

أزاهيرَه القانيه.

نرى الشمسَ تنأى وراء التلالِ

وبين الظلالِ،

وقد رفّ، مثل الجناحِ الكسيرِ -

على كومةٍ من حطامِ القيودِ

على عالمِ بائِدٍ لن يعودِ -

سناها الأخيرِ.

تقولين لي: «هل رأيت النجوم؟

أبصرتها قبل هذا المساء

لها مثل هذا السَّنا والنَّقاء؟»

تقولين لي: «هل رأيت النجوم

وكم أشرقت قبل هذا المساء

على عالم لطَّخته الدماء:

دماء المساكين والأبرياء!»

تقولين لي: «هل رأيت النجوم

تُطلُّ على أرضنا وهي حرّ

لأول مرّة؟»

نعم. أمس حين التفتَّ إليك

تراءَيْنَ كالهجس في مقلتيك.

وإذ يستضيءُ المدى بالحريق،

فيندكُ سجنٌ ويُجلى طريقٌ،

ويُذكي بأطيافه الدافئة

محيّاك باللهفة الهائنة؟

تقولين «نحن ابتداء الطريق

ونحن الذين اعتصرنا الحياه:
من الصخر تدمى عليه الجباه
ويمتصّ ريّ الشفاه،
من الموت في موحشات السجون
من البؤس، من خاويات البطون؛
لأجيالها الآتية.
لنا الكوكب الطالعُ
وصبح الغد الساطعُ
وأصالة الزاهيه!»

إلى جميلة بو حيرد

لا تسمعها.. إنَّ أصواتنا
 تخزى بها الريحُ التي تنقلُ،
 بابٌ علينا من دمٍ مُقفلٍ
 ونحن في ظلماتنا نسأل:
 «من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟
 من يصلب الخبز الذي نأكلُ؟
 نخشى إذا وارىتِ أمواتنا
 أن يُفزعَ الأحياء ما يُبصرونُ،
 إذ يُقفر الكهف الذي يهلون؛
 إنَّ عربدَ الوحش الذي يطعمون
 من أكبَد الموتى، فمن يذلُّ؟

يا أختنا المشبوحةَ الباكية،
 أطرأكَ الداميه

يقطرن في قلبي ويبكين فيه.
 يا من حملت الموت عن رافعيه
 من ظلمة الطين التي تحتويه
 إلى سماوات الدم الواربه،
 حيث التقى الإنسان والله، والأموات والأحياء في شهقة،
 في رعدة للضربة القاضيه.
 الأرض، أم الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبِلِ،
 لم تبل في إرهابها الأولِ
 من خضة الميلاد ما تحمليْن:
 ترتج قيعان المحيطات من أعماقها، ينسج فيها حنين،
 والصخر منشدًا بأعصابه - حتى يراها - في انتظار الجنين.
 الأرض؟ أم أنت التي تصرخين؟
 في صمتك المكتظ بالآخرين؟
 في ذلك الموت، المخاض، المحب، المبغض، المنفتح، المقفل.
 ونحن؟ أم أنت التي تولدين؟
 أسخى من الميلاد ما تبدلين،
 والموت، أقسى منه، من كل ما عاناه أجيال من الهالكين،
 أن الذي من دونه الجُلجله

والسوطَ والسجَّانَ والمقصلة،

أَنَّ الَّذِي يَفْدِيكَ أَوْ تَفْتَدِينِ،

غَيْرُ الَّذِي آذَاهُ بِالنَّارِ أَوْ بِالْعَارِ وَالْمَاءِ الَّذِي تَشْرَبِينَ:

عَبءٌ مِنَ الْآجَالِ مَا أَثْقَلَهُ!

كَمْ حَاوَلَ الْجَلَادُ أَنْ يَنْزِلَهُ،

كَمْ وَدَّ أَنْ تُلْقِيَهُ إِذْ تَعْجِزِينَ.

مَشْبُوحَةُ الْأَطْرَافِ فَوْقَ الصَّلِيبِ،

مَشْبُوحَةُ الْعَيْنَيْنِ عِبرَ الظَّلَامِ،

يَأْتِيكَ مِنْ وَهْرَانَ - يَا لِلزَّحَامِ!

حَشْدٌ مُشْعٍ بِاشْتِعَالِ الْمَغِيبِ،

يَأْتِيكَ كُلُّ النَّاسِ، كُلُّ الْأَنَامِ،

يَرْجُونَ، مِمَّا تَبْذِلِينَ، الطَّعَامِ

وَالْأَمْنَ وَالنِّعْمَاءَ وَالْعَافِيَةَ.

وَأَنْتِ مِثْلُ الدَّوْحَةِ الْعَارِيَةِ،

لَمْ يُبْقِ مِنْكَ الْبَغْيُ إِلَّا الْجَذُورَ

الْمَوْتُ وَإِذْ دُونَهَا، وَالنَّشُورَ

فِيهَا وَتَجْرِي دُونَكَ السَّاقِيَةَ.

مَا شَبَّ فِي وَهْرَانَ مِنْ بُرْعُمِ

أو أزهرت في أطلس عوسجة،
 إلّا ودبت في مسيل الدم
 نممة منعمة مبهجة
 توحى بأن الأرض ظلت تدور
 طاحونة للقاتل المجرم
 تسحق منه واهن الأعظم،
 وأن ألوان الأذى والعذاب
 ذخّر لنا، نجلوه يوم الحساب
 نسقي به الباغين، نروي التراب
 من لفحه - أن الهوى والشباب
 لم يذهبا - أن البعاد اقتراب -
 أن من الدمع الذي تسكين
 أسلحة في أذرع الثائرين.
 جاء زمانٌ كان فيه البشرُ
 يفدون من أبنائهم للحجر:
 «يا ربّ عطشى نحن. هات المطر!
 روّ العطاشى منه، روّ الشجر».
 وجاء حينٌ عاد فيه البشر

يفدون بالأنعام ما تحبس السماء في أعماقها من قدر.

وجاء عصرٌ سار فيه الإله

عريانَ، يدمى، كي يروِّي الحياة.

واليوم ولَّى محفلُ الآلهه،

اليوم يفدي ناثراً بالدماء

الشيبَ والشبانَ، يفدي النساء،

يفدي زروع الحقل، يفدي النماء،

يفدي دموع الأيم الوالهه.

بالأمس دوى في ثرى يثرِبِ

صوتٌ قويٌّ من فقيرِ نبي،

ألوى ببغي الصَّخر. لم يضربِ،

وحطَّم التيجانَ. أيُّ انطلاق

في مصرَ، في سورِيَّة، في العراق،

في أرضكِ الخضراء. كان اعتاق!

بالأمس وارى قومك الآلهه.

عشتار، أمُّ الخِصب، والحب، والإحسان، تلك الرِّبة الوالهه

لم تُعطِ ما أعطيتِ، لم تُروِ بالأمطارِ ما روَّيتِ: قلبَ الفقير،

لم يعرف الحقد الذي يعرفون

والحسدَ الآكلَ حتّى العيون.
نحن بنو الفقر الذي يزعمون
في كلّ عصر آتهم وارثوه.
قابيل فينا ما تهاوى أخوه
من ضربة الحقد التي يضربون.
يوم ابتدأنا كان عبء السماء
ملقى على أطلس،
يزحمه بالمنكب الأملس.
ثم ارتقى «إيفل»⁽¹⁾، تمّ البناء
فانحطّ ذاك العبء حيناً عليه،
ثمّ انطلقنا نحن من جانبيه
حتّى حملنا عبثها، كلّ ما فيها من الأبراج والأنجم،
يا أختنا المشبوحة الباكية،
أطرافك الداميه
يقطرن في قلبي ويبكين فيه.
لم يلقَ ما تلقين أنتِ المسيح -
أنتِ التي تفدين جُرح الجريح

(1) برج «إيفل» في باريس. (ش)

أَنْتِ الَّتِي تُعْطِينَ.. لَا قَبْضَ رِيحٍ،
 يَا أُخْتَنَا، يَا أُمَّ أَطْفَالِنَا
 يَا سَقْفَ أَعْمَالِنَا
 يَا ذُرُوءَ تَعْلُو لِأَبْطَالِنَا.
 مَا حَزَّ سَوْطَ الْبَغْيِ فِي سَاعِدَيْكَ
 إِلَّا، وَفِي غَيْبُوتِ الْأَنْبِيَاءِ،
 أَحْسَسْتِ أَنَّ السَّوْطَ، أَنَّ الدَّمَاءَ،
 أَنَّ الدَّجَى، أَنَّ الضَّحَايَا.. هَبَاءَ
 مِنْ أَجْلِ طِفْلِ ضَاكِكْتَهُ السَّمَاءُ
 فَرَحَانَ فِي أَرْضِهِ
 وَبَعْضُهُ فَرَحَانُ مِنْ بَعْضِهِ،
 أَحْسَسْتِهِ يَحْبُو عَلَى رَاحَتِكَ،
 سَمِعْتَهُ يَضْحَكُ فِي مَسْمَعِكَ،
 يَهْتَفُ: «يَا جَمِيلَهُ
 يَا أُخْتِي النَّبِيلَهُ،
 يَا أُخْتِي الْقَتِيلَهُ،
 لَكَ الْغَدُ الزَّاهِي كَمَا تَشْتَهِي»
 وَأَنْتِ إِذَا أَحْسَسْتِ، إِذَا تَسْمَعِينَ،

تعلو بكِ الآلام فوق التراب
فوق الذرى، فوق انعقاد السحاب،
تعلن حتى محفل الآلهه
كالربة الوالهه،
كالنسمة التائهه.

لا تسمعيها.. إن أصواتنا
تخزي بها الريحُ التي تنقلُ،
بابٌ علينا، من دمٍ، مقفلُ
ونحن نُحصي، ثمَّ، أمواتنا.
الله لولا أنتِ يا فاديه
ما أثمرت أغصاننا العاريه
أو زنبقت أشعارنا القافيه.
إنّا هنا.. في هوةٍ داجيه
ما طافَ لولا مُقلتاك الشعاعُ
يوماً بها. نحن العراة الجياع؛
لا تسمعي ما لفقوا، ما يُذاع،
ما زَيَّنوا، ما خطَّ ذاك اليراع.

إِنَّا هُنَا كَوْمٌ مِنَ الْأَعْظَمِ
 لَمْ يَبْقَ فِينَا مِنْ مَسِيلِ الدِّمِ
 شَيْءٌ نَرَوِي مِنْهُ قَلْبَ الْحَيَاةِ.
 إِنَّا هُنَا مَوْتَى، حَفَاةٌ، عَرَاةُ.
 لَا تَسْمَعِيهَا، إِنَّ أَصْوَاتَنَا
 تَخْزِي بِهَا الرِّيحُ الَّتِي تَنْقُلُ،
 بَابٌ عَلَيْنَا، مِنْ دَمٍ، مَقْفُلُ
 وَنَحْنُ فِي ظِلْمَاتِنَا نَسْأَلُ:
 «مَنْ مَاتَ؟ مَنْ يَبْكِيهِ؟ مَنْ يُقْتَلُ؟»
 يَا نَفْحَةً مِنْ عَالَمِ الْآلِهَةِ
 هَبَّتْ عَلَى أَقْدَامِنَا التَّائِهَةِ،
 لَا تَمْسَحِيهَا مِنْ شَوَاطِ الدِّمَاءِ،
 إِنَّا سَنَمُضِي فِي طَرِيقِ الْفَنَاءِ؛
 وَلَتَرْفَعِي «أَوْرَاسَ» حَتَّى السَّمَاءِ
 حَتَّى تَرَوِي مِنْ مَسِيلِ الدِّمَاءِ
 أَعْرَاقُ كُلِّ النَّاسِ، كُلِّ الصَّخُورِ،
 حَتَّى نَمَسَّ اللَّهُ.

رسالة من مقبرة⁽¹⁾

«إلى المجاهدين الجزائريين»

من قاعِ قبري أصبح
 حتّى تننّ القبورُ
 من رَجع صوتي، وهو رملٌ وريحُ
 من عالمٍ في حفرتي يستريح،
 مركومةً في جانبيه القصورُ،
 وفيه ما في سواه
 إلّا ديببَ الحياه،
 حتّى الأغاني فيه، حتّى الزهور
 والشمسُ، إلّا أنّها لا تدور
 والدُّود نَخَّارٌ بها في ضريح.
 من عالمٍ في قاعِ قبري أصبح:
 «لا تيأسوا من مولدٍ أو نشور!»

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الأدب»، عدد أيلول 1956 بعنوان «رسالة من قبر». (م)

النور من طينٍ هنا أو زجاج،
قُفِّلَ على باب سور.

النور في قبري دجىً دون نور.
النور في شُبَّاك داري زجاج،
كم حدّقت بي خلفه من عيون
سوداء كالعارِ

يجرحن بالأهداب أسرارِي
فالיום داري لم تعد داري
والنور في شُبَّاك داري ظنونُ
تمتصُّ أغوارِي.

وعند بابي يصرخ الجائعون:
«في خُبْزِكَ اليوميِّ دفءُ الدِّماءِ
فاملاً لنا، في كلّ يومٍ، وعاء
من لحملك الحيّ الذي نشتهيهِ،
فنكهةُ الشمس فيه

وفيه طعم الهواء!»

وعند بابي يصرخ الأشقياء:
«أعصرْ لنا من مقلتيك الضياء

فإنّا مُظلمون!»

وعند بابي يصرخ المخبرون:

«وَعَرُّهُ المرقى إلى الجبلجبله⁽¹⁾،

والصَّخْرُ، يا سيزيفُ، ما أثقله.

سيزيف... إنَّ الصخرةَ الآخرون!»

لكنَّ أصواتاً كقرع الطبول

تنهلُ في رمسي

من عالم الشمسِ

هذي خُطى الأحياء بين الحقول

في جانب القبر الذي نحن فيه.

أصداؤها الخضراء

تنهلُ في داري

أوراق أزهارِ

من عالم الشمس الذي نشتهيهِ.

أصداؤها البيضاء

(1) الجبلجبله: الجبل الذي حمل المسيح صليبه إلى قمته. (ش)

يَصْدَعَنَّ مِنْ حَوْلِي جَلِيدَ الْهَوَاءِ
 أَصْدَاؤُهَا الْحَمْرَاءُ
 تَنْهَلُ فِي دَارِي
 شِلَالَ أَنْوَارٍ،
 فَالنُّورُ فِي شَبَّاكَ دَارِي دِمَاءُ
 يَنْضَحْنَ مِنْ حَيْثُ التَّقَى، بِالصَّخُورِ
 فِي فُوْهِةِ الْقَبْرِ الْمَغْطَاةِ، سُرُورِ.
 هَذَا مَخَاضُ الْأَرْضِ لَا تِيَّاسِي؛
 بُشْرَاكِ يَا أَجْدَاثَ، حَانَ النُّشُورُ!
 بُشْرَاكِ.. فِي «وَهْرَانِ» أَصْدَاءُ صُورِ.
 سِيزِيفُ أَلْقَى عَنْهُ عَبَاءَ الدُّهُورِ
 وَاسْتَقْبَلَ الشَّمْسَ عَلَى «الْأَطْلَسِ»!

آهٍ لَوْهْرَانِ الَّتِي لَا تَتُورُ!

في المغرب العربي⁽¹⁾

قرأتُ اسمي على صخره
 هنا، في وحشة الصّحراء،
 على أجرة حمراء،
 على قبر. فكيف يحسُّ إنسانُ يرى قبره؟
 يراهُ وإنه ليحارُّ فيه:
 أحيٌّ هو أم ميّت؟ فما يكفيه
 أن يلقى له ظلاً على الرمل،
 كمثدنة مُعفّرة
 كمقبرة
 كمجد زال
 كمثدنة تردّد فوقها اسمُ الله
 وخطّ اسمٍ له فيها،

(1) نشرها السيّاب في مجلة «الأداب»، عدد آذار 1956، وقد صدّرها وقتها بالإهداء التالي: «إلى
 المجاهد العربي الكبير مصالي الحاج». (م)

وكان محمدٌ نقشاً على آجرٍ خضراء

يزهو في أعاليها...

فأمسى تاكلُ الغبراء

والنيرانُ، من معناه،

ويركله الغزاة بلا حذاء

بلا قدم

وتنزف منه، دونَ دمٍ،

جراحٌ دونما ألمٍ -

فقد مات...

ومتنا فيه، من موتى ومن أحياء.

فنحن جميعنا أموات

أنا ومحمد والله.

وهذا قبرنا: أنقاضٌ مثذبةٌ معفّرة

عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله،

على كسرٍ مبعثرة

من الآجر والفخار.

فيا قبر الإله، على النهار

ظلّ لألف حربة وفيل

ولونُ أبرهه

وما عكسته منه يدُ الدليل،

والكعبة المحزونة المشوّه.

قرأتُ اسمي على صخره،

على قبرين بينهما مدى أجيال

يجعل هذه الحفرة

تضمّ اثنين: جد أبي - ومحضُ رمأل

ومحضُ نثارة سوداء منه، استنزلا قبره -

وإيائي، ابنه في موته والمضغة الصّلصال.

وكان يطوف من جدّي

مع المدّ

هتافُ يملأ الشيطان: يا ودياننا ثوري!

ويا هذا الدّم الباقي على الأجيال

يا إرث الجماهير،

تشظّ الآن واسحقْ هذه الأغلال

وكالزلال

هُزّ النير، أو فاسحقْه واسحقنا مع النير.»

وكان إلهنا يختال
 بين عصائب الأبطال،
 من زندي إلى زندي
 ومن بئدي إلى بئدي

إله الكعبة الجبار،
 تدرّع أمس في ذي قار
 بدرع من دم النعمان في حافاتها آثار.
 إله محمد وإله آبائي من العرب،
 تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوار،
 وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار.
 وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحب:
 جريحاً كان في أحيائنا يمشي ويستجدي،
 فلم نضمّده له جرحاً
 ولا ضحى
 له منا بغير الخبز والأنعام من عبْد!

وأصوات المصلين ارتعاش من مراثيه

إذا سجدوا ينزُّ دُمُّ
 فيسرع بالضَّماد فُمُّ:
 بآياتٍ يغصُّ الجرح منها خير ما فيه،
 تداوي خوفاً من علمنا أنا سنحييه
 إذا ما هَلَّلَ الثَّوار منا: «نحن نفديه!»

أغار، من الظَّلام على قرانا
 فأحرقهنَّ، سربُّ من جرادٍ
 كأنَّ مياه دجلة، حيث ولَّى،
 تنمَّ عليه بالدم والمداد.
 أليس هو الَّذي فجأ الحُبالي
 قضاه، فما ولدنَ سوى رماذٍ؟
 وأنعل، بالأهلة في بقايا
 ماذنَّها، سنابك من جوادٍ؟
 وجاء الشام يسحب في ثراها
 خُطى أسدين جاعا في الفؤادِ؟
 فأطعم أجوع الأسدِين عيسى
 وبَلَّ صداه من ماء العمادِ

وعَضْ نبيّ مكة... فالصحارى

وكل الشرق ينفِرُ للجهادِ؟

أعاد اليوم، كي يقتصّ من أنا دحرناهُ؟

وإن الله باقٍ في قرانا، ما قتلناه؟

ولا من جوعنا يوماً أكلناه؟

ولا بالمال بعناه -

كما باعوا

إِلَهَهُمُ الَّذِي صنعوه من ذهبٍ كدحناه؟

كما أكلوه إذ جاعوا -

إِلَهَهُمُ الَّذِي من خبزنا الدامي جبلناه؟

وفي باريس تتخذ البغايا

وسائدهنّ من ألم المسيح

وبات العقمُ يزرع في حشاها

فم التّنين: يشهق بالفحيح

ويقذف من حديدٍ في حمانا

جحافل كالقوارس، دون روح

تجدّ وراء مكة في الصياصي

أقمناها، ويشرب في السفوح

قرأت اسمي على صخره...

وبين اسمين في الصحراء

تنفس عالم الأحياء

كما يجري دم الأعراق بين النبض والنبض

ومن أجرّة حمراء ماثلة على حفره

أضاء ملامح الأرض

بلا ومض

دم فيها، فسماها

لتأخذ منه معناها

لأعرف أنّها أرضي

لأعرف أنّها بعضي

لأعرف أنّها ماضي، لا أحياء لولاها

وأني ميّت لولاه، أمشي بين موتاه.

أذاك الصاحب المكتظّ بالرايات واديننا؟

أهذا لون ماضينا

تضوّأ من كوى «الحمراء»

ومن أجرّة خضراء

عليها تكتب اسم الله بقيا من دم فينا؟

أنبرّ من أذان الفجر؟ أم تكبيرة الشوار

تعلو من صياصينا...؟

تمخّضت القبور لتنشر الموتى ملاينا

وهبّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصار:

إنّ إلّنا فينا.

مرثية جيكور

يا صليب المسيح ألقاك ظلاً

فوق «جيكور»⁽¹⁾ طائر من حديد

يا لظّل كظلمة القبر في اللون، وكالقبر في ابتلاع الخدود
والتهام العيون من كلّ عذراء كعذراء «بيت لحم» الولود
مرّ عجلانً بالقبور العواري من صليب على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلّا رمز الهلاك الأبيد:
لا رجاء لها بأن يُبعث الموتى ولا مأمل لها بالخلود!
ويلّ جيكور؟ أين أيامها الخضر وليلات صيفها المفقود؟
والعشاء السخيّ في ليلة العرس وتقبيلة العروس الودود
وانتظاراً له على الباب؟.

- «محمود، تأخرت يا أبا محمود

ناد محمود!»

ثمّ يوفى على الجمع بمنديل عرسه المعقود
نقطته الدماء يشهدن للخدر بعذراء، يا لها من شهود⁽²⁾

(1) جيكور، قرية الشاعر في جنوب البصرة.

(2) من التقاليد المتبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس في ليلة العرس منديلاً ملطّخاً بالدماء يشهد على أنّ العروس عذراء! (ش)

لا على العقم والردي، بل على الميلاد والبعث والشباب الجديد!
أي صوت يصيح: «محمود، محمود تأخرت!» كالنواح البعيد؟
أين محمود؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل!
يا أبا محمود

نادي محمود. كاد أن يهتف الديك وما زال جمعنا في الوصيد
قل له يُبرز الدماء فيأتنا في انتظار لها وشوق مبيد!
ذرّ نجم الصباح. محمود، محمود، أأقبلت بالدم المنشود؟
أي جرح ينزّ منه الدم الموّار في باب دارك المرصود؟
إنه منك! منك هذا الدم الثرّ ومن جانب العروس القديد!
الصليب، الصليب! إنا رأيناه وقد مرّ كالخيال الشّرو،
قد رأيناه في الصباح. وفي الليل سمعنا كقعقعات الرعود
أهو هذا الذي يريدون؟ أشلاء وأنقاض منزل مهدود؟
أما قامت الحضارات في الأرض كعنقاء من رماد اللحد؟
لا ولم تُفرخ العقول على المجهول يسبّرن فيه غور الوجود!
أو يشقّ العباب قلع يصكّ الرياح صكاً إلى البعيد البعيد؟
أو يلم النسيم عقداً من النور ويذرّوه باقة من ورود
ساحر فجر المدى عن مدى ملآن باللحن مُترع بالنشيد؟
أو تدقّ الأجراس: «يا أرض، يا بشارك بالحبّ والمسيح الوليد؟»
لا ولم يُختم الزجاج على كلّ «هرقل»⁽¹⁾ من العقار الأكيد
يخلق الموت كلما همّ بالناس ويجتاح كاسرات الأسود؟
لا ولا قيس بعدما لقه الليل من الأرض واحتوى من حدود

(1) هرقل الجبار: خنق الموت وذلّل الأسود الكاسرة. (ش)

الذي قاس حافة الساعة القوراء في قرصها ذراعاً حديد؟
 أو يفضّ الظلام؟ - إلا لكي تندكّ «جيكور» بالسلاح الجديد؟
 كي يراها على اتساع المدى والشأو من ليس طرفه بالحديد؟
 من وراء المحيط والليل والغابات والبيد والذرى والسدود!
 أين من شال «جين» أطمار «كلثوم»؟ وأين الغضا من الأركيد؟
 فيم أسرى صحاب «جين» المغاوير على زوج «كلثم» المنكود؟
 يا رماداً تذره الزعزع الشعثاء في مقلة القمير الوحيد،
 أنت «جيكور» كلّ جيكور: أحداق العذارى وباسلات الزنود
 والرؤوس التي حثا فوقهنّ الدهر ما في رحاه من تنكيد:
 صردّ القمح من نثار لها اللون، ولم تحظّ بالرغيف الوئيد
 فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى، لمائها الموءود!
 خورس⁽¹⁾:

شيخ اسم الله... ترللا
 قد شاب ترلّ ترلّ ترار... وما هلا
 ترلل.. العيد ترللا
 ترللا.. عرس «حمادي»،
 زغردن ترلّ ترلّلا
 الثوب من الريز.. ترلّلا
 والنقش صناعة بغداد

(1) يغني الخورس أغنيتين عراقيتين شعبيتين: (شيخ اسم الله) نبات كالخلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها، وتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس التي شابت. (ش)

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود!
 قطَب الصمْتُ حيث كانت أغانيك، وحيث العبير نتن الصديد
 جاء قرنٌ وراح والمدن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود،
 ضاع صوتُ الضعاف فيها وآهات النبين وإبتهال الطريد
 واستحال الفضاء - من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد -
 غير هذا الفضاء: شيئاً لغير الآدميين - ربما للقروء...
 ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد!
 ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود،
 ثمة التّم في كرات من النار... فألقى عليك صمت اللحد!
 لا عليك السلام يا عصر «تعبان بن عيسى» وهنت بين العهود!
 ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتلتظي من جديد:
 ذلك الكائن الخرافي في جيكور، «هومير»⁽¹⁾ شعبه المكدود
 جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط «الرشيد»،
 يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام، بالشدق والخيال الوئيد
 ما تزال «البسوس» محمومة الخيل لديه، وما خبا من «يزيد»
 نار عينين ألقاها على «الشمر»⁽²⁾ ظلالاً مذبحات الوريد!
 كلما لزّ شمره الخيل أو عرّى أبو زيده⁽³⁾ التحام الجنود
 شدّ راحاً وأطلق المغزل الدوّار يدحوه للمدار الجديد!
 وانتهى من حديثه الضخم عن ضخّم من الغزل، وانتهى من قعود
 نصفَ عريان يسحب الطرف عن صدرٍ تعرّى وعن قميص فقيد

(1) هومير: الشاعر الإغريقي الأعمى. (ش)

(2) الشمر: قاتل الحسين، وتصوره القصص مرتدياً ثياباً حمراء اللون. (ش)

(3) أبو زيد الهلالي. (ش)

غير بقيا على فم دقّ حتّى عن فم العنكبوت، في رأس عود:
 مغزّل ينقضّ الَّذي حاكه النول، وجهدّ أضاع شتى جهود
 فهو كدّ وليس بالكّد، أردى قبله اثنين وادّعى بالمزيد -
 حاضرٌ غير حاضر، منه للماضي فناء وللغد الموعود!
 لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود
 أنت أيتمت كلّ روح من الماضي، وسوّدت آلة من حديد
 تسكب السمّ واللظى لا حليب الأمّ أو رحمة الأب المفقود
 سلّم في الحضيض أعلاه - مرقاه انخفاض وإن بدا كالصعود
 حدّقت منه في الوري مقلتا «فوكاي» تستشرفان أيام «هود»
 والمسيح المبيع بخساً بما لو بيع لحماً لناء عن تسديد!
 حدّقي حيث شئت، يا عين فوكاي المدمّة، من مذاك المديد!
 فهي سوق تُباع فيها لحومُ الآدميين دون سلخ الجلود:
 كلّ أفريقيا وآسية السمراء، ما بين زنجها والهنود
 واشترى لحم كلّ من نطق الضاد تجارٌ تبعه لليهود!
 هكذا قد أسفّ من نفسه الإنسان وانهار كانهيار العمود
 فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود!
 والذي حارت البرية فيه⁽¹⁾ بالتأويل، كائنٌ ذو نقود!

(1) قال المعري: «والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد». (ش)

تمّوز جيڪور

نابُ الخنزير يشقّ يدي
ويغوص لظاه إلى كبدي،
ودمي يتدفّق، ينسابُ:
لم يغدُ شقائق أو قمحا
لكن ملحا.

- «عشتار»... وتخفق أثوابُ
وترفّ حيالي أعشابُ
من نعلٍ يخفق كالبرق
كالبرق الخلب ينسابُ.
لو يومض في عرقي
نورٌ، فيضيء لي الدنيا!
لو أنهض، لو أحيا!
لو أسقى! أو لو أسقى!
لو أن عروقي أعنابُ!

وتقبّل ثغري عشتارُ،

فكأنّ على فمها ظلمة

تنثال عليّ وتنطبقُ،

فيموت بعينيّ الألق

أنا والعُثمّة...

جيكورُ... ستولدُ جيكورُ:

النور سيُورق والنُّورُ.

جيكور ستولد من جُرّحي،

من غصّة موتي، من ناري؛

سيفيض البَيّدر بالقمحِ،

والجزن سيضحك للصبحِ،

والقرية داراً عن دارٍ

تتماوج أنغاماً حلّوه،

والشيخ ينام على الربوه؟

والنخل يوسوس أسراري.

جيكور ستولد... لكنّي

لن أخرج فيها من سجنّي

في ليل الطين الممدودِ
 لن ينبض قلبي كاللّحنِ
 في الأوتارِ،
 لن يخفقَ فيه سوى الدودِ.

هيهات.. أتولد جيکورُ
 إلّا من خضة ميلادي؟
 هيهات.. أينبثقُ النورُ
 ودمائي تُظلم في الوادي؟
 أيسْقَسُ فيها عصفورُ
 ولساني كومة أعوادٍ؟
 والحقل، متى يلد القمحا
 والورد، وجُرْحِي مفعورُ
 وعظامي ناضحةٌ ملحا؟
 لا شيء سوى العدم العدم،
 والموتُ هو الموتُ الباقي.
 يا ليلُ أظِلّ مسيلَ دمي
 ولتغدُ تراباً أعراقي؟

هيهات.. أتولد جيکور
من حقد الخنزير المتدنّ بالليل
والقُبْلَةُ بُرْعَمَةُ الْقَتْلِ
والغَيْمَةُ رَمْلٌ مَنثورٌ
يا جيکور؟

جيكور والمدينة

وتلتفُّ حولي دروب المدينة:
 حبلاً من الطين يعضن قلبي
 ويعطين، عن جمرة فيه، طينه،
 حبلاً من النار يجلدن عُرِّي الحقول الحزينه
 ويُخرقن جيكور في قاع روحي
 ويزرعن فيها رماد الضغينة.
 دروبٌ تقول الأساطير عنها
 على مَوْقِدِ نام: ما عاد منها
 ولا عاد من ضفّة الموت سار،
 كأنّ الصدى والسكينة
 جناحاً أبي الهول فيها، جناحان من صخرة في ثراها دفينه.
 فمن يفجر الماء منها عيوناً لتُبنى قرانا عليها؟
 ومن يرجع الله يوماً إليها؟

وفي ليل، فردّوسها المستعاد،

إذا عرّش الصخرُ فيها غصونه

ورصّ المصابيح تُفاح نار

ومدّ الحوانيت أوراق تينه،

فمن يُشعل الحبّ في كلّ درب وفي كلّ مقهى وفي كلّ دار؟

ومن يُرجع المِخلَبَ الآدميّ يداً يمسح الطفلُ فيها جبينه؟

وتخضّلُ من لمسها، من ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟

وبين الضّحى وانتصافِ النهار:

إذا سبّحت باسم ربّ المدينة

- بصوت العصفير في سدره يخلق الله منها قلوب الصغار -

رحى معدنٍ في أكفّ التجار

لها ما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معاني كثار،

فمن يسمع الروح؟ من يبسط الظلّ في لافحٍ من هجير النضار؟

ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيح السفينه؟

وجيكور، من غلّق الدور فيها - وجاء ابنها يطرق

الباب - دونه؟

ومن حوّل الدرب عنها... فمن حيث دارَ اشترأت إليه المدينة؟

وجيكور خضراءُ مسّ الأصيل ذرى النخل فيها

بشمس حزينه.

يمدُّ الكرى لي طريقاً إليها:

من القلب يمتدُّ، عبرَ الدهاليز عبر الدجى والقلاع الحصينه...

وقد نام في بابل الراقصون

ونام الحديدُ الذي يشحدونه،

وغشى، على أعين الخازنين، لهاثُ النُّصار الذي يحرسونه:

حصاة المجاعات في جنتيها.

رحى من لظى مرّ دربي عليها،

وكرم، عساليجه العاقراتُ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينه،

شرايينُ في كلِّ دارٍ وسجنٍ ومقهى

وسجنٍ وبارٍ وفي كلِّ ملهى

وفي كلِّ مستشفيات المجانين...

في كلِّ مبغى لعشتار...

يُطلعنَ أزهارهنَّ الهجينة:

مصايح لم يُسرج الزيتُ فيها وتمسسه نار

وفي كلِّ مقهى وسجنٍ ومبغى ودار:

«دمي ذلك الماء، هل تشربونه؟

ولحمي هو الخبز، لو تأكلونه!»

وتموز تبكيه لأه الحزينه.

ترفع بالنواح صوتها مع السَّحَر
 ترفع بالنواح صوتها، كما تنهَّد الشجر
 تقول: «يا قطار، يا قدَرُ
 قتلتَ - إذ قتلته - الربيع والمطر».
 وتنشر (الزمان) و (الحوادث) الخبر⁽¹⁾.
 ولأه تستغيث بالمضمَّد، الخفر
 أن يُرجع ابنها: يديه، مقلتيه، أيما أثر!
 وترسل النواح: يا سنابل القمَر
 دم ابني الزجاجُ في عروقه انفجر..
 فكهرباءُ دارنا أصابت الحجرُ
 وصكَّه الجدارُ، خضَّه، رماه لمحَّة البصرُ
 أراد أن يُنير، أن يبدِّد الظلام... فاندحرُ
 وتُرسل النواح...
 ثمَّ يصمت الوترُ.

(1) واضح أنَّ «الزمان» و«الحوادث» جريدتان. (ش)

وجيكور خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها

بشمسٍ حزينه.

ودربي إليها كومض البروق،

بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنار المدينة

وعرّى يدي من وراء الضّمد كأنّ الجراحات فيها حروق.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

فمن يخرق السور؟ من يفتح الباب؟ يدمي على كلّ قفل يمينه؟

ويُمنّاي: لا مخلبٌ للصراع فاسعى بها في دروب المدينة

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين...

لكنها محض طينه.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه.

العودة لجيكور

على جواد الحُلُم الأَسهبِ
 أُسريتُ عَبْرَ التَّلالُ
 أَهْرَبُ مِنْهَا، مِنْ ذُرَاهَا الطَّوَالِ،
 مِنْ سَوْقِهَا الْمَكْتَنِّزِ بِالْبَائِعِينَ،
 مِنْ صَبْحِهَا الْمَتَعَبِ
 مِنْ لَيْلِهَا النَّابِجِ وَالْعَابِرِينَ،
 مِنْ نَوْرِهَا الْغَيْهَبِ،
 مِنْ رَبِّهَا الْمَغْسُولِ بِالْخَمْرِ،
 مِنْ عَارِهَا الْمَخْبُوءِ بِالزَّهْرِ،
 مِنْ مَوْتِهَا السَّارِي عَلَى النَّهْرِ⁽¹⁾
 يَمْشِي عَلَى أَمْوَاجِهِ الْغَافِيهِ.
 أَوَّاهَ لَوْ يَسْتَيْقِظُ الْمَاءُ فِيهِ،
 لَوْ كَانَتْ الْعُذْرَاءُ مِنْ وَارِدِيهِ،

(1) كان المسيح، في عهده، هو الذي مشى على الماء. (ش)

لو أنَّ شمس المغرب الداميه
تبتلُّ في شطّيه أو تُشرقُ،
لو أنَّ أغصان الدُّجى تورقُ
أو يُصدُّ الماخور عن داخله.

على جواد الحُلُمِ الأشهبِ
وتحت شمس المشرق الأخضرِ
في صيف جيکور السخيِّ الثري
اسريت أطوي دربي النائي
بين الندى والزهر والماءِ
أبحث في الآفاق عن كوكبٍ⁽¹⁾
عن مؤلِّد للروح تحت السماء
عن منبع يروي لهيب الظماء
عن منزلٍ للسائح المُتعبِ

جيكور، جيکور: أين الخبز والماء؟
الليل وافى وقد نام الأدلاء؟

(1) ... وبزغ كوكب عرف منه المجوس أنَّ المخلص قد وُلد. (ش)

والركبُ سهرانٌ من جوعٍ ومن عطشٍ
والريحُ صرٌّ، وكل الأفقُ أصداءُ.
بيداءٌ ما في مداها ما يبين به
دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ
جيکور مدّي لنا باباً فندخله
أو سامرينا بنجم فيه أضواءُ!

من الذي يسمع أشعاري؟
فإن صمت الموت في داري
والليل في ناري.
من الذي يحمل عبء الصليب
في ذلك الليل الطويل الرهيب؟
من الذي يبكي ومن يستجيب
للجائع العاري؟
من يُنزل المصلوب عن لوحه؟
من يطرد العقبان عن جرحه؟
من يرفع الظلماء عن صبحه؟
ويُبدل الأشواك بالغار^(١)؟

(١) وألبسوا المسيح تاجاً من الشوك... سخرية به. (ش)

أواه يا جيكور لو تسمعين!
 أواه يا جيكور... لو توجدين!
 لو تنجين الروح، لو تُجهضين
 كي يُبصر الساري
 نجماً يضيء الليلَ للتائهين.

نَزَعٌ ولا مَوْتُ،
 نُطْقٌ ولا صَوْتُ،
 طَلَقٌ ولا ميلاد.
 من يصلب الشاعرَ في بغداد؟
 من يشتري كَفِيه أو مُقْلتيه؟
 من يجعل الإكليلَ شَوْكاً عليه؟
 جيكور يا جيكورُ
 شدَّتْ خيوطُ النور
 أرجوحةَ الصُّبْحِ.
 فأولمي للطيور
 والنملِ من جُرْحي.

هذا طعامي أيها الجائعون
 هذي دموعي أيها البائسون
 هذا دعائي أيها العابدون:
 أن يقذف البركانُ نيرانه،
 أن يُرسل الفراتُ طوفانه،
 كي تُشرق الظُّلمة،
 كي نعرف الرحمة؛
 جيکور يا جيکور
 شدّت خيوط النور
 أرجوحة الصبحِ
 فأولمي للطيور
 والنمل من جُرْحي!

هذا حرائي⁽¹⁾ حاكت العنكبوت
 خيطاً إلى بابه
 يهدي إليّ الناس، إني أموت

(1) حراء، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد. حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ -
 والمشركون جادو في أثره - في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتدِ
 المشركون إلى مخبأ محمد. (ش)

والنور في غابه
يُلقي دنانير الزمان البخيلُ
من شرفةٍ في سعفات النخيل.
جيكور، يا جيکور: خلّ وماء
ينساب من قلبي،
من جُرْحِي الواري،
من كلِّ أغواري.
أَوَاه يا شعبي...
جيكور، يا جيکور هل تسمعين؟
فلتفتحي الأبواب للفاتحين
ولتجمعي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية. هذا العشاء.
هذا حصاد السنين:
الماء خمرٌ، والخوابي غذاء⁽¹⁾
هذا ربيع الرباء.

(1) ... وأحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون. (ش)

أقوى من الأسوار هذا الجواذ
 «أقوى جواذ الحُلُمِ الأشهب»
 لأنَّ الحديدُ المغتذي بالحداد
 وانخذل الموكبُ.
 جيکور، ماضيك عاد.

.....

هذا صياحُ الديك: ذاب الرقاد
 وعدتُ من معراجي الأكبر:
 الشمس أمُّ السنبِل الأخضرِ
 خلف المبانِي، رغيْفُ
 لكنها في الرصيف
 أغلى من الجواهرِ.
 والحُبُّ: «هل تسمعين
 هذا الهتافَ العنيف؟
 ماذا علينا؟ إنَّ عبد اللطيف⁽¹⁾
 يدري بأنّا... ما الَّذي تحذرين؟
 وانخطفتُ روعي، وصاح القطارُ

(1) اقرأ مذكراتي «كنت شيوعياً» المنشورة في جريدة الحرية العراقية. (ش)

ورقرقت في مقلتيّ الدموع
سحابةً تحملني، ثمّ سار.
يا شمس أيامي، أما من رجوع؟

.....

جيكور، نامي في ظلام السنين.

رؤيا في عام 1956⁽¹⁾

1

حطّ الرّؤيا على عينيّ صقراً من لهيب:
 إنّها تنقّض، تجتثّ السّواد
 تقطع الأعصاب تمتصّ القذى من كلّ
 جفن، فالمنغيب
 عاد منها توأماً للصّبح - أنهار المداذ
 ليس تطفّي غلّه الرّؤيا: صحارى من نحيب
 من جحور تلفظ الأشلاء، هل جاء المعاذ؟
 أهو بعث، أهو موت، أهى نار أم رماد؟
 أيها الصّقر الإلهيّ الغربيّ

(1) نشرت القصيدة بعنوان «نبوءة في عام...» في جريدة «الحرية» العراقية، ثم نشرت ثانية في مجلة «الآداب» اللبنانية عدد حزيران 1960، وعندما نشرت ضمن قصائد «أنشودة المطر» تم حذف مقطع كامل من القصيدة كان موجوداً في نص «الحرية» و«الآداب»، ونعتمد هنا النص الأصلي الكامل بلا حذف أو تعديل. (م)

أيها المنقُصُ من أولمبَ في صمتِ المساءِ
 رافعاً روعي لأطباق السماءِ
 رافعاً روعي - غنيميدا⁽¹⁾ جريحا،
 صالباً عينيّ - تموزاً، مسيحا،
 أيها الصقر الإلهي ترفّقْ
 إنّ روعي تتمزّق،
 إنها عادت هشيماً يوم أن أمسيت ريحا.

في غيمة الرؤيا
 يومٌ بلا ميعاد
 جنكيز هل يحيا
 جنكيز في بغداد؟
 عينٌ بلا أجفانٍ
 تمتدّ من روعي
 شدّقْ بلا أسنانٍ
 ينداح في الريحِ
 يعوي: أنا الإنسانُ

(1) «غنيميد» راع يوناني شاب وقع زيوس كبير آلهة الأولمب الإغريقي في حبه، فأرسل صقراً اختطفه وطار به إليه. (ش)

2

يا جواداً راكضاً يعدو على جسمي الطريح
يا جواداً ساحقاً عيني بالصخر السنابك
رابطاً بالأربع الأرجل قلبي
فإذا بالنبض نقرٌ للدراك
وإذا بالنار دربي.

سحّت الرؤيا ضياء من لظاها
صابغاً ما تبصر العين القريح
مازجاً بالشيء ظلّة
خالطاً فيها يهوذا بالمسيح،
مدخلاً في اليوم ليله
بانياً في عروة المهد الضريح
الدماء
الدماء
الدماء

وحّدت بالمجرمين الأبرياء،
نصبت في شذقي الذئبة كزسيّ القضاء،
ماذا جنى شعبي؟

حلّت به اللعنة
 من زاده المحنه،
 رحماك يا ربي.
 من مائه الديدان
 من لبسه الأكفان
 من طيره الغربان
 ينقرن في قلبي.
 واليوم في بيدري
 لم يبق من حبي
 شيء - هنا حبتان
 فأمطري أمطري
 وإن يكن نيران.
 وأثمري أثمري
 وإن يكن ثعبان.

3

ما الذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال؟
 منجلّ يجتث أعراق الدوالي

قاطعاً أعراق تموز الدفينه.
 وعلى القنب أشلاءً حزينه:
 رأس طفلٍ سابح في دمه
 نهْدُ أمٌ تنقر الديدان فيه، في سكينه،
 أي آه من دمٍ في فمه؟
 ما الذي ينطف من حلمته، من لحمه؟
 يا حبال القنبِ التقي كحيّات السعير
 واخنقي روحي وخلي الطفل والأم الحزينه؟
 يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبير
 - جفنةٍ قد هيأوها للوليمة -
 يا حبالاً تسحب الأحياء - من شيخٍ كبير؛
 من فتاةٍ أو عجوزٍ، من ضلوعٍ حطّموها
 علّقت فيها تميمه،
 من صدورٍ مزقوها،
 زرعوا فيها بذوراً من رصاصٍ، من حديد.
 ما الذي تثمر هاتيك البذور
 غير أحجار القبور؟
 غير تفاح الصديد؟

4

تموز هذا، أتيس⁽¹⁾
 هذا، وهذا الربيع.
 يا خبزنا يا أتيس:
 أنبتْ لنا الحب وأحيِ اليبس.
 إلْتأمِ الحفل وجاء الجميع
 يقدمون الندور،
 يحيون كلّ الطقوس
 ويذرون البذور
 سيقان كلّ الشجر
 ضارعة، والنفوس
 عطشى تريد المطر
 شدوا على كلّ ساق
 يا ربّ، تمثالكَ
 فلتسِقِ كلّ العراق

(1) «أتيس» يقابل تموز الإله البابلي عند سكان آسيا الصغرى والقدماء. يحتفل بعيده في الربيع، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة. وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قرباناً دلالة الخصب. (ش)

فلتسقي فلاحيك، عمالك
 شدّوا على كلّ ساق
 أوّاه، ما شدّوا؟
 أوّاه، ما سمّروا؟
 أغصان زيتوننا أثقلها الوردُ
 ورد الدم، الأحمرِ.
 شدّوا على كلّ ساق
 يا رب تمثالكُ
 فاسمّع صلاة الرفاق
 ولترع فلاحيك، عمالك
 تمثالك البعلُ
 تمثالك الطفل
 تمثالك العذراءُ
 تمثالك الجانون والأبرياء
 تمثالك الأمّ الشماليه،
 لأنها ليست شيوعيه
 يُقطع نهداها
 تُسمل عيناها،

تُصلب صلباً فوق زيتونه،
تهزها الريح الجنوبية.
تمثالك الآلاف، مجنونه
من رعبها، تمثالك الأحمر
كأنه الشقيق⁽¹⁾ إذ يُزهرُ

5

عشتار⁽²⁾ على ساق الشجره
صلبوها، دقوا مسمارا
في بيت الميلاد - الرّجِم.
عشتار بحفصة⁽³⁾ مستتره
تدعى لتسوق الأمطارا
تدعى لتساق إلى العدم.
عشتار العذراء الشقراء مسيل دم
صلّوا... هذا طقسُ المطرِ
صلّوا... هذا عصر الحجر

(1) في الأساطير البابلية إنّ دم «تموز» القتل أصبح شقائق. (ش)

(2) إلهة الخصب والحب عند البابليين وهي حبيبة «تموز». (ش)

(3) «حفصة» إحدى شهيدات مذبحة الموصل. (ش)

صلّوا، بل أصلوها نارا.
 تموز تجسّد مسمارا
 من حفصةً يخرج والشجرة.
 النهد الأعذرُ فاض ليطعم كلّ فمٍ
 خبز الألم.
 «الأقّة»، صاح القصابُ،
 «من هذا اللحم بفلسين»
 اقطع من لحم النهدين
 اللحم لنا، والأثواب -
 ستكون لمسح السكّينه
 من آثار دم الأطفال
 من آثار دم المسكينه
 فلتحيّ زنود العمال.
 في قلبي دمدم زلزالُ
 فجنائن بابل تندثرُ،
 في قلبي يصرخ أطفالُ،
 في قلبي يخنق القمر.
 الظلمة تعبس في قلبي

والجوّ رصاص
والريح تهبُّ على شعبي
والريح رصاص
أواه لقد هجم التتر
فالصبح رصاص
والليل رصاص.

6

أسمع في كركوك والموصل⁽¹⁾
أسمع في كركوك هذا النداء
هذا حصاد الموسم المقبل
نار واشلاء ومجرى دماء:
«نحن رعايا اتيس
نحن مواليه
جئناه يوم الخميس
نرجو اياديه.
على هدير الرصاص

(1) حُذف المقطع السادس كاملاً من القصيدة حين نشرت في ديوان «أنشودة المطر» طبعة مجلة شعر (1960). (م)

تعلو أغانينا
 هذا أوان القصاص
 فيا أعادينا
 جئنا، فأين الخلاص
 جئنا نؤدي طقسه الدامي
 من بعد أعوام واعوام
 كان الأسى فيها وخبز الشقاء
 زادا لنا، والدمع يروينا
 نفصد، لا أعراقنا، انما
 نفصد أعراق المصلينا،
 ننحر، لا اطفالنا، انما
 أطفال كركوك قرايينا.

7

الرؤيا تلمح كالقلع
 في بحر يُزبد غضباناً،
 طوراً للأغوار وأحيانا
 يعلو فنراه، وفي سمعي

أصداء تصمت أو تعلق،

وبياني يغمض أو يجلو:

أي حشد من وجوه كالحات،

من أكف كالتراب

نبتها الآجر والفولاذ كالأرض اليباب؟

أي حشد من ذئاب؟

يطعمون الجور ربح المعمل؟

أي نعش، أي شكوى، أي دمع من نساء ثاكلات؟

أي جمع من عذارى نادبات

أي موتٍ مشكلٍ

يا لعشتاراتنا ييكن تموز القتل.

الِعَازَرُ قام من النعش -

شخنوب⁽¹⁾ العازر قد بعثا

حيّاً، يتقافز أو يمشي.

(1) «العازر» الميت الذي أحياه المسيح من قبره. و«شخنوب» هو عامل السمنت الذي استأجره الفوضيون، فظواهر بالموت وحلوه في النعش شهيراً بالجيش «الذي يقتل العمال» كما قالوا، ثم قام ماشياً حين سقط النعش. (ش)

كم ظلّ هناك وكم مكثا.
 أترى عاماً أم عامين؟
 أم دامت ميته ساعه؟
 شخنوب العامل، من راعه؟
 فتنكر للدينارين
 وتوائب يركض مذعوراً؟
 الموت الزائف خاتمةٌ
 لحياة زائفةٍ مثله،
 والبعث الزائف عاقبةٌ
 للموت الزائف من قبله.

8

ولفني الظلام في المساء
 فامتصت الدماء
 صحراءٌ نومي تُنبِت الزهر؛
 فإنما الدماء
 توائم المطر.

قارئ الدّم

أنا أيّها الطاغوت مقتحم الرّجاج على الغيوب
أبصرتُ يومك وهو يأزف

هذه سحب الغروب

يتوهّج الدم في حفافيتها وتنتثر في الدروب
شفق البنفسج والورود ولون أردية الضحايا
فتشعّ أعمدة عوابس، والرصيف من الصبايا
والنسوة المتهاجمات كحقل قمح، والسطوح
كأنّ بابل أودعتها من جنائنها بقايا
لو أنّ غرساً كان من بشر، وأسمع من يصيح
«هوذا يساق إلى الحساب» كأنّ أعراق المغيب
قُطعت فصاح، كأنّ صوتاً من لظى حملته ريح
من كلّ أودية الجحيم - هواه...!

إنني شهدت سواك ينسفه اختناقاً للصدور

بغيظها، وسمعت قفقفة الضحايا في القبور
 ودمّ الحوامل وهو تشربه الأجنّة في دجاها
 فسمعت وقع خطاك خائفةً تجرّ إلى السعيرِ
 حطام جسمك، والسعير مدى تراها
 تحتر من قصبات صدرك ثأرَ كلّ دم العصور؛
 إني أكلت مع الضحايا في صحاف من دماء،
 وشربت ما ترك الفم المسلول منه على الوعاء،
 وشممتُ ما سلخ الجُذام من الجلود على ردائي
 ونشقت ماء جوارب السجناء في نفس الهواء
 فشممت فيه دخان دارك واحتراقَ بنيك فيها
 وشواء لحم بنيك، لولا أنّ شيمة محرقها
 ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء
 إني شبيت مع الجياع، مع الملايين الفقيره
 فعرفت أسراراً كثيرة:
 كلّ اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء:
 إغضاء المقل الضريرة
 يتطلع الدم في ظلام جفونهنّ إلى الضياء،
 والحاملات ندورهنّ إلى قبور الأولياء
 الموقدات شموعهنّ تلقّ ألسنها الكثيره

كِسَرَ الرغيف ويعتصرون دم الثدي إلى الدماء
وتأوّه المستنقعات وزفة البرديّ فيها
وطنين أجنحة البعوض كأن غرقى ساكنيها
يتنفسون من القرار ويضرعون إلى السماء
أن ينجو الأطفال من غرق وحمى في الهواء
وملألة الأكواخ تشرب كل أمطار الشتاء
حتى تغصّ بها فللقصب النقيع بكل ماء
شهقات محتضّر يُغرّ وإن تقيأ بالدواء،
وتنهد الأشجار عطشى يابساً في الظهيره
تتكسر الورقات فيها والمناكير الصغيره،
فكأن مقبرة الهجيره
تمتصّ من رحم الحياة لتسقي الموتى عصيره.

أنا قارئ الدم لا تراه وأنت أنت المستريح،
أفلمت تجرؤ أن تحدّق فيه علّك تستريح
من ازديار دم تُدزّ على جفونك منه نار
لنرج يسلّ مع الرقاد كأن يؤبوك الذبيح
قابيل حدّق في دماء أخيه أمس.
وأنت يأخذك الدوار

من رؤية الدم وهو ينزف ثم يركد فالغبار
 من تحته كفم الرضيع له اختلاج وافترار
 أتخاف أن تطأ النبوءة مقلتيك «هو الدمار»
 أتخاف منها أن تفرّ كأن سرب قطا يثارُ
 فأنت من هلع تخضّ إلى المشاش «هو الدمار»
 إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمصّ مائي
 وعرفت ما قلق الطريد يكاد كلّ فم ورائي
 يعوي بـ«ها هو ذا» وتوشك كلّ عين ألتقيها
 أن يومض اسمي في قرارتها وجهلي بالدروبِ
 ولست أسأل عابريها عن بعيد عن قريب
 من متنهاها واكتنابي والحنين مع الغروب
 وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها
 وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مُستريبٍ
 ألا تشدّ يدٌ على كتفي، وأوشك أن أراها.
 أعرفت ذاك؟ فسوف تعرف منه دنيا في مداها
 تصطفّ أعمدة عوابس ثم تسمع من يصيحُ
 «هوذا يساق إلى الحساب» كأنما اطّرح رداها
 جثث القبور، كأنّ صوتاً من لظى حملته ريح
 من كلّ اودية الجحيم: هوا...ه!

ثعلبُ الموت

كم يُمضُّ الفؤادُ أن يُصبح الإنسان صَيْداً لرمية الصيَّاد؟
 مثل أيِّ الطِّباء، أيِّ العصافير، ضعيفا
 قابعا في ارتعادة الخوف، يختضُّ ارتياعاً، لأنَّ ظلّاً مخيفاً
 يرتمي ثمَّ يرتمي في أثادٍ.
 ثعلبُ الموت، فارسُ الموت، عزرائيل يدنو ويشحذ
 النَّصْلَ. آه
 منه آه، يصكُّ أسنانه الجوعى ويرنو مهدّداً. يا إلهي
 ليت أن الحياة كانت فناء
 قبل هذا الفناء، هذي النهاية،
 ليت هذا الختام كان ابتداء.
 واعذاباه، إذ ترى أعينُ الأطفالِ هذا المهدّدَ المستبيحاً،
 صابغاً بالدماء كَفَيْه، في عينيه نارٌ وبين فكّيه نارٌ.
 كم تلوّث أكفُّهم واستجاروا،
 وهو يدنو... كأنه احتثَّ ريحاً،

مستبيحا،

مستبيحا، مهدّداً، مستبيحا.

مَنْ رآها، دجاجة الريف، إذ يُمسي عليها المساءُ في بستانه؟

حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفراس، يا للصريف من أسنانه!

وهي تختصُّ، شلّها الرعبُ، أبقاها بحيثُ الردى -

كأنّ الدرويا...

... استلّها مارّداً، كأنّ النيويا

سورُ بغداد موصل الباب، لا منجى لديه ولا خلاص يُنال.

هكذا نحن، حينما يُقبل الصيادُ عزريل:

رجفةً فاغتيال.

المبغى⁽¹⁾

بغداد⁽²⁾؟ مبغى كبير

(لواظظ المغني

كساعة تتك في الجدار

في غرفة الجلوس في محطة القطاز)

يا جثة على الثرى مستلقية

الدود فيها موجة من اللهب والحريز.

بغداد كابوس: (ردى فاسد

يجرعه الراقد

ساعاته الأيام، أيامه الأعوام، والعام نيز:

(1) نشرت القصيدة في العدد السادس عشر من مجلة «شعر» خريف 1960 صفحة 56، وقد نشرها الشاعر بعنوان «جيكور المبغى» وورد فيها اسم «جيكور» وهي قرية الشاعر محل «بغداد» في المواضع كلها، ولا نعرف إن كان الشاعر يقصد «بغداد» آنذاك، فقد غير فعلاً كلمة «جيكور» إلى «بغداد» في النص المنشور ضمن ديوان «انشودة المطر». لاحقاً أخبرني السيد غيلان السياب أن تغيير اسم بغداد وقتها جاء لأسباب رقابية على الأرجح. (م)

(2) كتبت في العهد المباد قبل ثورة سنة 1958. (ش)

العامُ جَرَحَ نَاغِرٌ فِي الضَّمِيرِ

عيون المها بين الرصافة والجسرِ
ثقوب رصاصٍ رَقَشَتْ صفحةَ البدرِ؛
ويسكب البدر على بغداد
من تُقْيِي العينين سَلَالاً من الرماذ:
الدور دارٌّ واحد،
وتُعصر الدروب، كالخيوط، كلَّها
في قبضةٍ ماردة
تمطُّها، تشلُّها،
تُحيلها دَرْباً إلى الهجيرِ.
وأوجه الحسان كُلُّهنَّ وجه «ناهده»
(حببتي التي لُعا بها عَسَلُ،
صغيرتي التي أَرَدَافُها جبل
وصدرُها قُلُل).

ونحن في بغداد؟ من طين
يعجنه الخزّافُ تمثالاً،

دنيا كأحلام المجانين
ونحن ألوانٌ على لجّها المرتجّ أشلاء وأوصالا

بالأمس كان العيد، عيد الزهور:

الزادُ تحثوه الربى، والخمور،

والرقص، والأغنيات

والحب، والكركرات.

ثمّ انتهى إلّا بقايا طيور

تلتقط الحَبّ، وإلّا دماء

ممّا نماه الحقلُ - طيرٌ وشاء -

وغير أطفال يطوفون أُور:

- العيدُ، من قال انتهى عيدُنا؟

فلتملاً الدنيا أناشيدُنا

فالأرض ما زالت بعيد تدور..

بالأمس كان العيد، عيد الزهور،

واليوم؟ ما نفعلُ؟

نزرعُ أم نقتلُ؟

أهذه بغداد؟

أم أنّ عاموره

عادت فكان المعاد

موتاً؟ ولكنني في رنة الأصفاذ

أحسستُ.. ماذا؟ صوت ناعوره

أم صيحة الشُّغ الذي في الجدور؟

النهر والموت

بُؤَيْبُ...
 بُؤَيْبُ...

أجراسُ بُرْجِ ضاع في قرارة البَحْرِ.
 الماء في الجرار، والغروبُ في الشَّجَرِ
 وتنضجُ الجرارُ أجراساً من المطرِ
 بلُورِها يذوب في أنينِ
 «بُؤَيْبُ... يا بُؤَيْبُ!»،
 فيَدْلَهُمْ في دمي حنينِ
 إِلَيْكَ يا بُؤَيْبُ،

يا نهري الحزين كالْمَطَرِ.
 أودُّ لو عدوتُ في الظلامِ
 أشدُّ قُبْضَتِيَّ تحملاً شوقَ عامِ
 في كلِّ إصْبَعٍ، كأني أحملُ النَّدْوَرِ
 إِلَيْكَ، من قمحٍ ومن زهورِ.

أودُّ لو أُطلُّ من أسرة التلال
لألَمَحَ القَمَرُ
يخوض بينَ ضفَّتَيْكَ، يزرع الظلالُ
ويملأ السَّلالَ
بالماء والأسماكِ والزَّهرُ.
أودُّ لو أخوض فيكَ، أتبعُ القمرُ
وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرارِ
صليلَ آلاف العصافير على الشجرِ.
أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نَهَرُ؟
والسَّمَكُ الساهرُ، هل ينام في السَّحَرِ؟
وهذه النجوم، هل تظلُّ في انتظارِ.
تُطعمُ بالحريرِ آلافاً من الإبرِ؟
وأنتَ يا بُويب...
أودُّ لو غرقتُ فيكَ، ألْقِطُ المحارَ
أشيدُ منه دارَ
يُضيءُ فيها خُضرةُ المياهِ والشَّجرِ
ما تنضحُ النجومُ والقمرُ،
وأغتدي فيكَ مع الجَزَرِ إلى البَحَرِ!

فالموت عالمٌ غريبٌ يفتنُ الصُّغار،
وبابُه الخفيُّ كان فيك، يا بُويَّب...

بُويَّب... يا بُويَّب،
عشرون قد مضين، كالدهور كلُّ عام.
واليوم، حين يُطبِقُ الظلامُ
وأستقرُّ في السرير دون أن أنام
وأرهِفُ الضميرَ: دوحَةً إلى السَّحَرِ
مرهفة الغصونِ والطيور والشمَر -
أحسُّ بالدماء والدموع، كالمطر
ينضَحُهِنَّ العالمُ الحزينُ:
أجراس موتى في عروقي تُرْعِشُ الرنينَ،
فيدلهم في دمي حنين
إلى رصاصةٍ يشق ثلجها الزُّوامُ
أعماق صدري، كالجحيم يُشعلُ العظام.
أودُّ لو عدوتُ أعضد المكافحين
أشدُّ قبضتيَّ ثم أصفعُ القدرَ.
أودُّ لو غرقتُ في دمي إلى القرار،
لأحملَ العبءَ، مع البشرِ
وأبعثَ الحياةَ. إنَّ موتي انتصار!

المسيح بعد الصَّلب

بعدما أنزلوني، سمعتُ الرياحُ
 في نواحٍ طويلٍ تسفُّ النخيلُ،
 والخطى وهي تنأى. إذن فالجراحُ
 والصليبُ الذي سَمَّروني عليه طوال الأصيلِ
 لم تُمتني. وأنصتُ: كان العويلُ
 يعبر السهلَ بيني وبين المدينة
 مثل حبل يشدّ السفينه
 وهي تهوي إلى القاع. كان النواح
 مثلَ خيط من النور بين الصباح
 والدجى، في سماء الشتاء الحزينه.
 ثم تغفو، على ما تُحسُّ، المدينة.

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالُ،
 حين تمتدُّ «جَيِّكُورُ» حتّى حدودِ الخيال،

حين تخضرُّ عشباً يغني شذاها
 والشموس التي أَرْضعتها سناها،
 حين يخضرُّ حتى دجاها،
 يلمس الدفء قلبي، فيجري دمي في ثراها.
 قلبي الشمس إذ تنبض الشمس نورا،
 قلبي الأرض، تنبض قمحاً، وزهراً، وماءً نميراً،
 قلبي الماء، قلبي هو السنبُلُ
 موته البعث: يحيا بمن يأكلُ.
 في العجين الذي يستدير
 ويُدحى كنهيد صغير، كئدي الحياه،
 متٌ بالنار: أحرقت ظلماء طيني، فظلّ الإله.
 كنتُ بدءاً وفي البدء كان الفقيرُ.
 متٌ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسمِ،
 كما حياةٍ سَاحيا: ففي كلِّ حفرة
 صرتُ مستقبلاً، صرتُ بذرةً،
 صرتُ جيلاً من الناس: في كلِّ قلبٍ دمي
 قطرةٌ منه أو بعض قطره.

هكذا عدتُ، فاصفرَّ لما رأيي يهوذا...

فقد كنت سرَّة.

كان ظلاً، قد اسودَّ، متي، وتمثال فكرة

جُمِدْتُ فيه واستُلِّتِ الروحُ منها،

خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...

(عيناه صخره

راح فيها يُواري عن الناس قَبْرَه)

خاف من دفنها، من محالٍ عليه، فخبر عنها.

- «أنت! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفَضَّ نوراً؟

أنت من عالم الموت تسعى! هو الموتُ مرَّة.

هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا فهل كان زوراً؟»

ذاك ما ظنَّ لما رأيي، وقالته نظره.

قدمُ تعدو، قدمُ، قدمُ

القبر يكاد بوقع خطاها ينهدمُ.

أترى جاءوا؟ من غيرهمُ؟

قدمُ... قدمُ... قدمُ

ألقيتُ الصخر على صدري،

أَوْ ما صلبوني أمس؟ .. فهذا أنا في قبري.
فليأتوا - إني في قبري.

من يدري آتي ..؟ مَنْ يدري؟؟
ورفاق يهوذا؟! من سيصدق ما زعموا؟
قدّم... قدّم.

ها أنا الآن عريانُ في قبري المظلم:
كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ، كالبرعم،
تحت أكفاني الثلج، يخضُلُ زهرُ الدم،
كنتُ كالظلِّ بين الدجى والنهار -
ثمَّ فعَجَرْتُ نفسي كنوزاً فعَرَّيتها كالثمار.
حين فصَلْتُ جيبي قماطاً وكمي دثار،
حين دَفَّأتُ يوماً بلحمي عظام الصغار،
حين عَرَّيْتُ جرحي، وضمَّدْتُ جرحاً سواه،
حُطِّمَ السورُ بيني وبين الإله.

فاجأ الجنْدُ حتَّى جراحي ودقاتِ قلبي
فاجأوا كلَّ ما ليس موتاً وإن كان في مقبرة
فاجأوني كما فاجأ النخلة المثمرة

سَرَبُ جَوْعَى من الطير في قرية مقفّره.

أعِينُ البندقيات يَأْكُلْنَ دربي،

شُرْعٌ تحلم النارُ فيها بصليبي،

إِنْ تكن من حديدٍ ونارٍ، فأحداقُ شعبي

من ضياء السماوات، من ذكرياتٍ وحُبِّ

تحمل العبءَ عني فيندى صليبي، فما أصغره

ذلك الموتُ، موتي، وما أكبره!

بعد أن سَمَّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينة

كدتُ لا أعرف السهلَ والسهلَ والمقبره:

كان شيءٌ، مدى ما ترى العينُ،

كالغابة المزهره،

كان، في كلّ مرمى، صليبٌ وأُمٌّ حزينه.

قُدّس الربُّ!

هذا مخاضُ المدينة.

مدينةُ السندباد

جوعانُ في القبر بلا غذاء

عُريان في الثلج بلا رداء

صرختُ في الشتاء:

أَقْصُ يا مطرُ

مضاجعَ العظام والثلوج والهباء،

مضاجعَ الحَجَرِ،

وأنبتَ البذورَ، ولتفتحَ الزَّهرُ،

وأحرقَ البيادرَ العقيمَ بالبروقِ

وفجَّرَ العروقِ

وأنقلِ الشجرَ.

وجئتُ يا مطرُ،

تفجَّرتَ تنثُّك السماء والغيومُ

وشُقَّقَ الصخرُ،

وفاض؛ من هباتك، الفراتُ واعتكزُ

وهبَّت القبورُ، هُزَّ موتها وقامَ

وصاحتِ العظامُ:

تبارك الإلهُ، واهبُ الدِّمِ المطرُ.

فآهِ يا مطرُ!

نودُّ لو ننامُ من جديد،

نودُّ لو نموت من جديد،

فنومنا براعمُ انتباه

وموتنا يخبئُ الحياه؛

نودُّ لو أعادنا الإله

إلى ضمير غيبه المُلبَّد العميق؛

نودُّ لو سعى بنا الطريق

إلى الوراء، حيث بذَّوه البعيد.

مَنْ أيقظَ «العازر» من رقاده الطويل؟

ليعرف الصباح والأصيل

والصيفَ والشتاءَ،

لكي يجوع أو يُحسَّ جمرة الصدى،

ويحذر الردى،

ويحسب الدقائق الثقال والسَّراع

ويمدح الرعاع
ويسفك الدماء!
من الذي أعادنا، أعاد ما نخاف؟
من الإله في ربوعنا؟
تعيش نازؤه على شموعنا
يعيش حقه على دموعنا

أهذا أدونيس، هذا الخواء؟
وهذا الشحوب، وهذا الجفاف؟
أهذا أدونيس؟ أين الضياء؟
وأين القطاف؟
مناجل لا تحصد،
أزاهر لا تعقد،
مزارع سوداء من غير ماء!
أهذا انتظار السنين الطويلة؟
أهذا صراخ الرجولة؟
أهذا أنين النساء؟
أدونيس! يا لاندحار البطولة.

لقد حطّم الموتُ فيك الرجاءَ
وأقبلتَ بالنظرة الزائغة
وبالقبضة الفارغة:
بقبضةٍ تهدّدُ
ومنجل، لا يحصدُ
سوى العظام والدم.
اليوم، والغدُ؟
متى سيولدُ؟
متى سنولدُ؟

الموتُ في الشوارع،
والعقم في المزارع،
وكلُّ ما نجبه يموت.
الماء قيّده في البيوت
وألهثَ الجداولَ الجفافَ.
هُم التتارُ أقبلوا، ففي المدى رُعافُ،
وشمسنا دمٌ، وزادنا دمٌ على الصّحاف.
محمّدُ اليتيمُ أحرّقه فالمساءُ

يضيء من حريقه، وفارتِ الدماءُ
 من قدميه، من يديه، من عيونه
 وأُحرق الإله في جفونه.
 محمّد النبي في «حراء» قيّده
 فسُمّر النهارُ حيث سَمّروه.
 غداً سيُصلب المسيح في العراق،
 ستأكل الكلابُ من دم البراق⁽¹⁾

يا أيها الربيع
 يا أيها الربيعُ ما الذي دهاك؟
 جئتَ بلا مطرٍ
 جئتَ بلا زهرٍ،
 جئتَ بلا ثمرٍ،
 وكان متهاكٌ مثل مبتدأك
 يلقه النجيع...
 وأقبل الصيفُ علينا أسودَ الغيوم

(1) الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليلة معراجهِ.
 (ش)

نهاره هموم،
 وليله نسهر فيه نحسب النجوم؟
 حتّى إذا السنابلُ
 نضجْنَ للحصاد
 وغنّت المناجلُ
 وغطّت البيادرُ الوهادُ،
 خُيِّلَ للجِيعِ أنّ ربّة الزَّهرِ،
 عُشتار، قد أعادت الأسير للبشر،
 وكلّلت جبينه الغضيرَ بالثمرِ،
 خُيِّلَ للجِيعِ أنّ كاهل المسيح
 أزاح عن مدفنه الحجر
 فسار يبعث الحياة في الضَّرِيحِ
 ويُبرئ الأبرص أو يجدّد البصر؟
 من الذي أطلق من عقالها الذئاب؟
 من الذي سقى من السَّراب؟
 وخبأ الوباءَ في المطر؟
 الموتُ في البيوت يُولّدُ،
 يولد قابيلُ لكي ينتزعَ الحياه

من رَحِم الأرض ومن منابع المياه،
فُيْظَلَم الغدُّ

وتُجهض النساء في المجازر،
ويرقص اللهب في البيادر،
ويهلك المسيح قبل العازر؛
دعوه يرقدُ،

دعوه فالمسيح ما دعاه!

ما تبتغون! لحمه المقددُ

يُباع في مدينة الخطاه،

مدينة الحبال والدماء والخمور،

مدينة الرصاص والصخور!

أمس أزيح من مداها فارس النحاس،

أمس أزيح فارس الحجر،

فران في سمائها النعاس،

ورنق الضجر،

وجال في الدروب فارس من البشر

يقتل النساء

ويصبغ المهود بالدماء

ويلعن القضاء والقدر!

كأنَّ بابل القديمة المسوَّرة
 تعود من جديد،
 قبابها الطوال من حديد
 يدق فيها جرس كأنَّ مقبرة
 تثن فيه والسماء ساح مجزرة
 جنانها المعلقات زرْعها الرؤوس
 تجزُّها قواطع الفؤوس
 وتنقر الغربان من عيونها،
 وتغرب الشمس
 وراء شعرها الخضيب في غصونها.
 أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول
 خُطَّ عليها: «عاشت الحياة»
 من دم قتلها، فلا إله
 فيها، ولا ماء، ولا حقول؟
 أهذه مدينتي؟ خناجر التتر
 تغمد فوق بابها، وتلهث الفلاه
 حول دروبها، ولا يزورها القمر؟
 أهذه مدينتي أهذه الحُفْر

وهذه العظام؟
 يطلُّ من بيوتها الظلام
 وتُصبغ الدماء بالقتام
 لكي تضيع، لا يراها قاطع الأثر؟
 أهذه مدينتي؟ جريحة القباب
 فيها يهوذا أحمر الثياب
 يسلِّط الكلاب
 على مهود إخوتي الصغار... والبيوت،
 تأكل من لحومهم. وفي القرى تموت
 عشتار عطشى، ليس في جبينها زهر،
 وفي يديها سلَّة ثمارها حَجَرٌ
 تُرجم كلَّ زوجة به. وللنخيل
 في شطَّها عويل.

أنشودة المطر⁽¹⁾

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السحر،
 أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.
 عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم
 وترقص الأضواء... كالأقمار في نَهْرٍ
 يَرْجُّه المجداف وهنأ ساعة السَّحَر
 كأنما تنبض في غوريهما، النُّجُوم...

وتغرقان في ضبابٍ من أَسَى شفيفٍ
 كالبحر سَرَّح اليدين فوقه المساء،
 دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،
 والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛
 فتستفيق ملء روعي، رعشة البكاء

(1) نشرت في مجلة «الأداب»، عدد حزيران 1954، وقد صَدَّرها الشاعر وقتها بما يلي: «من أيام الضياع في الكويت، على الخليج العربي». (م)

ونشوةٌ وحشيّةٌ تعانق السماء
 كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!
 كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
 وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر...
 وكركر الأطفال في عرائش الكروم،
 ودغدغت صمت العصافير على الشجر
 أنشودة المطر...

مطر...

مطر...

مطر...

تثاءب المساء والغيوم ما تزال
 تسحّ ما تسحّ من دموعها الثقّل.
 كأنّ طفلاً بات يهذي قبل أن ينام:
 بأنّ أمّه - التي أفاق منذ عام
 فلم يجدها، ثمّ حين لجّ في السؤال
 قالوا له: «بعد غدٍ تعودُ...» -

لا بدّ أن تعودَ

وأن تهامس الرفاق أنّها هناك

في جانب التل تنام نومة اللّحوذ
تسفّ من ترابها وتشرب المطر؛
كأنّ صياداً حزيناً يجمع الشّباك
ويلعن المياه والقَدَر
وينثر الغناء حيث يأفل القمر.
مطر...
مطر...

أتعلمين أيّ حزنٍ يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياح؟
بلا انتهاء - كالدمّ المراق، كالجياح،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى - هو المطر!
ومقلّتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروق
سواحلّ العراق بالنجوم والمحار،
كانّها تهّمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثار.
أصبح بالخليج: «يا خليج

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرّدى!
 فيرجعُ الصّدى
 كأنّه النّشيج:
 «يا خليج
 يا واهب المحار والرّدى..»

أكاد أسمع العراق يذخرُ الرعود
 ويخزن البروق في السّهول والجبال،
 حتّى إذا ما فُضّ عنها ختمها الرّجال
 لم تترك الرياح من ثمود
 في الوادِ من أثر.
 أكاد أسمع النّخيل يشربُ المطر
 وأسمع القرى تننّ، والمهاجرين
 يصارعون بالمجازيف وبالقلوع،
 عواصف الخليج، والرعود، منشدين:
 «مطر...»

مطر...

مطر...

وفي العراق جوعٌ

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشّوان والحجر
رحىّ تدور في الحقول... حولها بشرّ
مطر...
مطر...
مطر...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع
ثمّ اعتلّلنا - خوف أن نلام - بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أن كنّا صغاراً، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر،
وكّل عام - حين يعشب الثرى - نجوْع
ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوْع.
مطر...
مطر...
مطر...

في كلّ قطرة من المطر
 حمراء أو صفراء من أجنة الزَّهر.
 وكلّ دمة من الجياح والعراة
 وكلّ قطرة تراق من دم العبيد
 فهي ابتسامة في انتظار مبسم جديد
 أو حلمة تورّدت على فم الوليد
 في عالم الغد الفتى، واهب الحياة!
 مطر...

مطر...

مطر...

سيُعشبُ العراق بالمطر...

أصبح بالخليج: «يا خليج...

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!»

فيرجع الصدى

كأنه النشيج:

«يا خليج

يا واهب المحار والردى».

وينثر الخليج من هباته الكثار،

على الرمال،: رغوهُ الأجاج، والمحار
وما تبقي من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظلّ يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرّحيق
من زهرة يربُّها الفرات بالنّدى.
وأسمع الصدى
يرنّ في الخليج: -

«مطر..

مطر...

مطر...

في كلّ قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزّهر.
وكلّ دمعّة من الجياح والعرّة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيد
فهى ابتسامة في انتظار مبسم جديد
أو حلّة تورّدت على فم الوليد
في عالم الغد الفتّي، واهب الحياة..
ويهطل المطر..

سربروس في بابل

ليعو سَربروس⁽¹⁾ في الدروب

في بابل الحزينة المهْدَمَة

ويملاً الفضاء زمزمه،

يمزق الصَّغار بالنيوب، يقضم العظام

ويشرب القلوب.

عيناه نيزكان في الظلام

وشدقه الرهيب موجتان من مدى

تخبئ الردى.

- أشداه الرهبة الثلاثة احتراق

يؤج في العراق -

ليعو سَربروس في الدروب

(1) الكلب الذي يحرس مملكة الموت، في الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش «برسفون» آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت وقد صورته دانتى في «الكوميديا الإلهية» حارساً ومعذباً للأرواح الخاطئة. (ش)

وينبش التراب عن إلهنا الدفين
تموزنا الطعين،
يأكله: يمص عينيه إلى القراز،
يقصم صلبه القوي، يحطم الجرار
بين يديه، ينثر الورود والشقيق.
أواه لو يُفَيِّق
إلهنا الفتى، لو يُبرِّعُ الحقول،
لو ينثر البيادرَ النَّضَارَ في السهول،
لو ينتضي الحُسام، لو يفجر الرعود والبروقَ والمَطَرُ
ويطلق السيول من يديه. آه لو يؤوب!
لحافنا التراب، فوقه من القَمَرُ
دُمٌّ، ومن نهودِ نسوة العراق طين.
ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنين
نرى العراق، يسأل الصغارُ في قراه:
«ما القمحُ؟ ما الثمرُ؟»
ما الماء؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البَشَرُ؟
فكلُّ ما نراه
دُمٌّ ينزُّ أو حبالٌ، فيه، أو حُفَرُ.

أكانت الحياه
 أحبَّ أن تُعاش، والصغارُ آمنين؟
 أكانت الحقولُ تزهرُ؟
 أكانت السماء تُمطر؟
 أكانت النساء والرجال مؤمنين
 بأنَّ في السماء قوَّةً تدبِّرُ،
 تُحسُّ، تسمع الشكاة، تُبصر،
 ترقُّ، ترحم الضَّعافَ، تغفر الذنوب؟
 أكانت القلوبُ
 أرقَّ، والنفوسُ بالصفاء تقطرُ؟
 وأقبلتُ إلهة الحصاد،
 رفيقَةُ الزهورِ والمياه والطيوب،
 عُشتارُ ربَّة الشمال والجنوب،
 تسير في السهول والوهاد
 تسير في الدروب
 تُلقط منها لحم تُموزَ إذا انتثر،
 تلثمُه في سلَّةٍ كأنه الثمر.
 لكنَّ سربروس بابل - الجحيم

يخبُّ في الدروب خلفها ويركضُ،
 يمزّق النعالَ في أقدامها، يعضعضُ
 سيقانها اللدان، ينهش اليدين أو يمزّق الرداء،
 يلوث الوشاح بالدم القديم
 ويمزج الدم الجديد بالعواء.
 ليعو سربروس في الدروب
 لينهش الإلهة الحزينة، الإلهة المروّعة؛
 فإنّ من دمائها ستُخصب الحبوب،
 سينبت الإله، فالشرائح الموزّعة
 تجمّعت؟ تململت. سيولّد الضياءُ
 من رَحِمٍ ينزُّ بالدماء.

مدينة بلا مطر⁽¹⁾

مدينتنا تؤرّق ليلها نارُ بلا لهبٍ.
تُحمّ دروبها والدُّور، ثمّ تزول حمّاها
ويصبغها الغروبُ بكلّ ما حملته من سُحبٍ
فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبّ موتاها:
«صحا من نومه الطينيّ تحت عرائش العنبِ...
صحا تموزُ، عاد لبابل الخضراء يرهاها».
وتوشك أن تدقّ طبولُ بابل، ثمّ يغشاها
صفيّرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها.
وفي غرفات عُشتار
تظّل مجامر الفخّار خاويةً بلا نارٍ،

(1) نشرت في مجلة «الأدب»، عدد حزيران 1958 بتصدير «أغنية بابلية»، مع شرح لرموز القصيدة كُتب الشاعر نورهنا:

«تموز: إله الخصب عند البابليين. صرعه خنزير بريّ. ولكنه ينبعث كل عام»
«فتنبعث معه الحياة بعد هجعة الشتاء. وحدائق تموز: اصص وجرار فخارية»
«عشتار - إلهة الحب والخصب.. وهي حبيبة تموز، تعود إلى الأرض بعودته». (م)

ويرتفع الدعاء، كأن كل حناجر القَصَبِ
من المستنقعات تصيح:

«لاهئة من التَّعَبِ

تؤوب إلهة الدم، خبزُ بابل، شمسُ آذار.

ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارٍ

لنسأل عن هداياها

جياغُ نحن... وأسفاه! فارغتان كفأها،

وقاسيتان عيناها

وباردتان كالذهب.

سحائبُ مُرَّعاتٍ مُبرِّقاتٍ دون إِمطارٍ

قَضِينَا العامَ، بعد العام، بعد العام، نرعاها،

وريحُ تشبه الإعصار، لا مرَّت كإعصارٍ

ولا هدأت - ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها.

فيا أربابنا المتطلعين بغير ما رحمه،

عيونكم الحجار نُحِشُّها تنداح في العتمه

لترجمنا بلا نقمه؛

تدور كأنهنَّ رحيَّ بطيئاتٍ تلوكُ جفوننا..

حتَّى أَلْفناها،

عيونكم الحجار كآتھا لَبَنَاتُ أسوارِ
 بأيدينا، بما لا تفعل الأيدي، بنيها.
 عذارانا حزاني ذاهلاتٌ حول عشتارِ
 يغيض الماء شيئاً بعد شيءٍ من محيّاها،
 وغُصناً بعد غُصْنٍ تذبل الكرمه.
 بطيءٌ مؤتناً المنسلُّ بين النور والظلمه،
 له الولياتُ من أسد نكابد شدقه الأدرّ!
 أنارُ البرق في عينيه أم من شُعلة المعبد؟
 أفي عينيه مبخرتان أو جرتا لعشتار؟
 أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود:
 هنالك حيث يحمل كلّ عام، جُرحه الناريّ،
 جُرح العالم الدوّار، فاديه
 ومنقذه الذي في كلّ عام من هناك يعود بالأزهارِ
 والأمطار - تجرحنا يدها لنستفيق على أياديهِ؟
 ولكن مرّت الأعوام، كثيراً ما حسبتها،
 بلا مطرٍ... ولو قطره
 ولا زهرٍ... ولو زهرة
 بلا ثمرٍ - كأنّ نخيلنا الجرداء أنصابٌ أقمناها

لنذبل تحتها ونموت.

سيّدنا جفانا. آه يا قَبْرُهُ

أما في قاعك الطينيّ من جرّه؟

أما فيها بقايا من دماء الربّ، أو بذرة؟

حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها:

سرقنا من بيوت النمل، من أجرانها، دُخناً وشوفانا

وأوشاباً زرعناها

فوقينا - وما وفّى لنا - نَذْرهُ!

وصار صغار بابل يحملون سلال صَبَّارٍ

وفاكهة من الفخّار، قرباناً لعشتار

ويشعل خاطفُ البرق،

بظُلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار،

وجوهُهُم المدوّرة الصغيرة وهي تستسقي.

فيوشك أن يفتّح - وهي توئمُض - حقلُ نَوَّارٍ

ورفٍّ - كأنّ ألف فراشة تُثرت على الأفق

نشيدهم الصغير:

«قبور إخوتنا تنادينا

وتبحثُ عنك أيدينا

لأنَّ الخوفَ ملءُ قلوبنا، ورياحِ آذاري
تهزُّ مهودنا فنخاف. والأصواتُ تدعونا
جياعٌ نحن مرتجفون في الظلمه
ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا، تغطينا،
نشدُّ عيوننا المتلفَّتات بزندها العاري.
ونبحث عنك في الظلماء، عن ثديين، عن حلمه
فيا من صدرها الأفق الكبير وثديها الغيمه
سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموت... فاسقينا!
نموت، وأنتِ - وأسفاه - قاسيةٌ بلا رحمه.
فيا آباءنا، من يفتدينا؟ من سيُحيينا؟
ومن سيموت: يُولمُ لحمه فينا؟
وأبرقت السماء كأنَّ زنبقة من النارِ
تفتِّح فوق بابل نفسها. وأضاء وادينا،
وغلغلَ في قرارة أرضنا وهجٌ فعراها
بكلِّ بذورها وجذورها وبكلِّ موتاها
وسحَّ - وراء ما رفعته بابلُ حول حُماها
وحول ترايبها الظمآن، من عمَدٍ وأسوار
سحابٍ.. كان لولا هذه الأسوار رَوَّاهَا!

وفي أبَدٍ من الإصغاء بين الرعد والرعدِ
سمعنا، لا حفيفَ النَّخل تحت العارض السَّحاحِ
أو ما وشوشته الرِّيحُ حيث ابتَلَّت الأدواحُ،
ولكنَّ خفقةَ الأقدام والأيدي
وكركرةً و«آه» صغيرةً قبضتْ بيَمناها
على قَمَرٍ يرفرفُ كالفراشةِ، أو على نَجْمَةٍ..
على هبةٍ من الغيمةِ،
على رعشاتِ ماءٍ، قطرة همستُ بها نَسَمَه
لنعلم أنَّ بابلَ سوف تُغسل من خطاياها!

بور سعيد⁽¹⁾

يا حاصدَ النار من أشلاء قتلانا
 منك الضحايا، وإن كانوا ضحايانا
 كم من ردىّ في حياةٍ، وانخذالٍ ردىّ
 في ميتةٍ، وانتصارٍ جاء خُذلانا!
 إنّ العيون التي طَفَّأتْ أنْجُمُها
 عَجَّلْنَ بالشمس أن تختار دنيانا
 وامتدّ، كالنور، في أعماق تُربتنا،
 غرُسٌ لنا من دمٍ، واخضَلَّ موتانا
 فازلْزَلْني يا بقايا كاد أوْلُنا
 يبقي عليها، من الأصنام، لولانا
 نحن الذين اقتلعنا من أسافلِها
 لآةٌ وعُزى، وأعليناهُ إنسانا
 حُيِّيتِ بورَتَ سعيدٍ، من مسيلِ دمٍ
 لولا افتدَاءٌ لما يُغليه، ما هانا

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الفنون العراقية»، في كانون الأول 1956، ونشرت لاحقاً في ديوان
 «نشودة المطر» مع حذف بيت واحد هو:

«يا أمة تصنع الأنداد من دمها لا تيا سي ان «عبد الناصر» القدر (م)

حُبِّيتِ مِنْ قَلْعَةٍ صَمَاءٍ نَاطَحَهَا
 عَادٍ مِنَ الْوَحْشِ يُزْجِيهِنَّ قُطْعَانَا
 عَانَاكِ فِي اللَّيْلِ دَاجٍ مِنْ جَحَافِلِهَا:
 نُوراً مِنْ اللَّهِ أَعْمَاهَا وَنِيرَانَا
 مَا عَادَ لَيْلٌ قَدْ اسْتَخْفَى بِأَقْنَعَةٍ
 مِنْ أَوْجِهِ النَّاسَ، لَوْلَا أَنْتِ، عَزِيَانَا
 لَيْلٌ تُعِيدُ الْكَهُوفَ السُّودَ آتِيَةً
 فِيهَا وَفَكَأَلَمُوتَاهَا وَصَوَانَا
 مِنْ بَعْضٍ مَا فِيهِ مِنْ ظُلْمَاءٍ، مَا عُرِفْتُ
 بِاسْمٍ لَهَا، فَهِيَ قَبْلَ اسْمٍ إِذَا كَانَ
 حُبِّيتِ مِنْ قَلْعَةٍ مَا آدَ كَاهِلَهَا
 عِبَاءُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا خَفَّ إِيْمَانَا
 أَمْسَكْتِهَا أَنْ يَمِيدَ الظَّالِمُونَ بِهَا
 دِينَالُنَا وَانْتَصَارَاتٍ وَعُنُونَا.
 يَا مَرْفَأَ النُّورِ، مَا أَرْجَعْتَ وَادَعَةَ
 مِنْ غَيْرِ زَادٍ، وَلَا أَوَيْتِ قُرْصَانَا
 وَلَا تَلَفَظْتَ مِنْ مَرَسَاكِ مَعْتَدِيَا
 إِلَّا مَدَمَّى ذَلِيلَ الْهَامِ خَزِيَانَا
 جَمَعْتَ مِنْ شَطِّ صُورٍ لَمَحَ أَحْرُفُهَا
 وَاخْتَرْتَ مِنْ بَابِلٍ وَاحْتَزَتْ مَرَوَانَا
 وَالنَّيْلُ سَاقَ الْعِذَارَى مِنْ عَرَائِسِهِ
 لِلْخِصْبِ، فِي مَوْكَبِ الْفَادِينَ قُرْبَانَا!

فالويل.. لو كان للعادين ما قَدَرُوا!
لأنهذَّ من حاضرٍ ماضٍ فأخزانا
فلا ابتنى هرمًا بانٍ، ولا لبستُ
تيجانها، في انتظار السروح، موتانا
ولا تفجَّر في «ذي قار» فثَبَّتْها
ولا تنفَّستِ الصحراءُ قُرْآنًا!
حُيِّيتِ موتى، وأحياء، وأبنيةً
مستشهداتٍ أو استعصينَ أركاننا
والنار والبادرونَ النارَ كم زرعوا
من كلِّ ثكلى لعزرائيل بُستاننا!
من كلِّ وجهٍ لطفلٍ فيه زنبقةٌ
تَذمى، وتلتئمُ فيه الرِّيحُ غُربانا
الجوّ مما يلزّون الحديدَ به
قاعُ الجحيمِ التظى وانصبَّ طوفانا
سَقَاكُ من كلِّ غيمٍ فيه أحرزُهُ
جوفُ الثرى واشتهته النارُ أزمانا
كأسَ الرِّصاصِ التي غنى بتوأماها
«سقراط» وابتلَّ منها جرحُ وهرانا⁽¹⁾

من أيما رئة؟ من أي قيثارٍ

تنهلُ أشعاري؟

من غابةِ النارِ؟

(1) أجبر الفيلسوف الإغريقي سقراط على تجرّع كأس من السمّ. (ش)

أم من عويل الصبايا بين أحجار
 منها تنزُّ المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟
 من أيِّ أحداق طفلٍ فيكِ تُغتصَّبُ؟
 من أيِّ خبزٍ وماءٍ فيكِ ما صلبوا؟
 من أيِّما شُرْفَةٍ؟ من أيِّما دار؟
 تنهلُّ أشعاري
 كالنارِ؟

كالنور في رايات ثَوَّار؟
 من مائك السهران أوتاري؟
 أم بُرجكِ الهاري
 يبكي دماً من جرح بحَّار؟
 أطفالكِ الموتى، على المرفأ
 يبيكون في الريح الشماليَّة،
 والنور من مصباحه المطفأ
 قد غار كالمديَّة
 في صدريِّ العاري.

أطفالكِ الأموات عارُ الحديد
 في عرسه الدامي، وذُلُّ الرصاص،

مالوا بملك من شقاء العبيد

واستزلوا أربابه للقصاص

في ساحة النارِ.

يكون في الريح الشماليه

أسرى، على السفن الصليبيه،

والريح كالمديه

تجتثُ أظفاري.

يكون.. في داري.

بالقش والطين سدوا كوة القمر،

والريح في الشجر

قد كمّموا فاها،

كي لا تصيح: أخبثوا عن أعين العَجَرِ

أطفالكم، فهي ما ترتدُّ إحداها

إلا وحال الذي تلقى، إلى حَجَرِ

الريح قيثاري

قد كمّموا فاها

هاوِيكَ أَعْلَى مِنَ الطَّاغُوتِ فَانْتَصِبِي
 مَا ذَلَّ غَيْرُ الصِّفَا - لِلنَّارِ - وَالْخَشْبِ
 حُيِّيتِ مِنْ قَلْعَةٍ شَقَّ الْفَضَاءُ بِهَا
 أُسُّ لَهَا فِي صُدُورِ الْفَتِيَةِ الْعَرَبِ
 الطِّينَ فِيهَا دَمٌ مِنْهُ، وَجَنَدُهَا
 مِنْ عَزْمَةٍ، وَالْحَدِيدَ الصَّلْدُ مِنْ غَضَبِ
 أَنْتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، الَّتِي خُلِقْتَ
 فِي عَشْرَةِ تَحْسِبِ الْأَيَّامِ بِالْحُقْبِ
 وَالصَّخْرَ فِيكَ اسْتَمَدَّ الرُّوحَ إِذْ لَمَسْتُ
 عُقْمَ الْجَمَادَاتِ فِيهِ إصْبَعُ اللَّهَبِ
 فِي كُلِّ أَنْقَاضٍ دَارٍ، مِنْ صَفَاهِ يَدٍ
 جَبَّارَةٌ تَصْفَعُ الْعَادِينَ كَالشَّهْبِ
 مَا انْهَدَّ إِلَّا وَأَعْلَى فِي ضَمَائِرِنَا
 سَدًّا مِنَ الشَّارِ أَعْيَا حِيلَ النُّوَبِ.
 وَالْمَاءِ، حَتَّى زَلَّالُ الْمَاءِ، فِيكَ مُدَى
 مِنْ فَضَّةِ اللَّهِ تَوْهِي جَحْفَلَ الذَّهَبِ
 مَا بَلَّ لِلْجَحْفَلِ الْمَاجُورُ غُلَّتَهُ
 حَتَّى جَبَى قِذْرَ مَاءٍ مِنْ دَمٍ سَرَبِ!
 أَمَلَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِيكَ جَوْهَرَهُ
 حَلَفٌ لَجِيشَيْنِ: ذِي قُرْبَى وَذِي أَرْبِ
 إِنَّ الْحَدِيدَ الَّذِي صُنِّتِ الْحَيَاةُ بِهِ
 غَيْرُ الْحَدِيدِ الَّذِي وَافَاكَ بِالْعَطَبِ

والخير في بُندقياتِ قذائفها
 حتفُ المغيرين، والميلادُ في قُضْب
 لكنه الشرُّ في خبزِ حقائبه
 عونٌ لأعدائكِ الجوعى، وفي قِرب!
 ليت المسيحَ الَّذي داجى بشُرْعته
 من باع مثواه، راءَ فيك عن كُتب:
 خرْسٌ نواقيسكِ الشكلى، وداميةٌ
 فيكِ الأناجيلُ، والموتى بلا صُلب
 والحابس الماءَ عن جرحاكِ حَمَلها
 عبءُ الصليبين: من حُمى ومن خشب
 واستنطق الأمُّ ثكلى: أين جيرتها
 من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللّجب؟
 فالتَمَّ في مقلتيها، وهي تنظره،
 كلُّ المخاضات والتسهد والنَّصَب
 كأنما استودعتها كلُّ والدَةٍ
 آجالَ كلِّ الذراري طيلة الحِقَبِ
 فاختارت الموتَ معلوكاً مراضعُها،
 معروكةً في رَحَى تترى من الرُّكَبِ
 تفدي بما يستبيح الجنْدُ من دمها
 والنار، أعراضَ كلِّ الخرَدِ العُربِ.
 أبناءُ «جنكيز» في روحٍ، وإن بعدوا
 في نسبةٍ: ربُّ قُربى دون مُنتَسَبِ

شرُّ اللصوص، إذا عفَّ التتارُ.. فما
 عفّوا عن الرِّيش والأسمال واللُّعبِ!
 فلتنفخ الصُّورَ في أفريقيا أممٌ
 بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتبِ
 ولتُسمعنَّ الزوج البيض صيحتهما:
 «إنا إلى الله أدنى منك في نسب»!
 حَيَّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبه؛
 يا غابة النار قد أثمرتِ بالغَلَبِ!

من أيّ عبءٍ على روحي ومسمارِ
 من أعين، في صليب تحت أسواري،
 تأتيكِ أشعاري؟
 حمراء خضراء من جُرحٍ ومن غارِ،
 خضراء من راية، حمراء من نار،
 خضراء كالماء في فردوسك الجاري؟
 يا ليت أوتاري
 خضراء حمراء من قلبي ومن ثاري!
 يا ليت أبواب قلبي منك تلتهبُ!
 يا ليتها دون قُفْلٍ، ليتها خَسْبُ!

أو خرَّبَ الجندُ قلبي، فهي تتحبُّ

في كلِّ إعصار!

سودٌ، كما اسودَّت الأموات، أنْهاري

فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري،

والريحُ في داري

سوداءُ ما رفَّ منها باللَّظى عَصَبُ.

لا تسألي بعدُ عنها: إنها عُشْب

أعواده السود غَذَى عجلَه الذهبُ

منها، فخبَّأتُ في عيني قيثاري!

كوني لأشعاري

وحياً، وشدِّي ببأسٍ منك أوتاري.

يا مرفأَ النور، كن مرسىً لأفكاري!

يا مرفأَ النار

الهبَّتْ أغواري

بالنَّارِ

مَرَّقَتْ عنها سودَ أَسْتارِ

فانهلَّتِ الشمسُ على داري.

كم من دفين، كلَّ ماء القنالِ

في مدّه العاتي وفي جزره،

يلقي على صدره
عَبثاً من الظلماء - كان القتال
من أجل أن يرتاح في قبره!
ما كان إلا من دموع الرجال
والنسوة الباكين في قعره،
هذا الذي بين العُبايْنِ سال!
كالليل هذا الماء فوق القبور
كالنار، كالإعصار، كالداء:
تختضُّ في ليل الخليج الصدور،
والشمسُ تحسو كلَّ ماء الصدور
في عالم لم تمش فيه العصور -
من ملتقى للماء بالماء!
كالليل هذا الماء، نِدُّ الحياه:
الموت والميلاد بوابته.
في قاعه الموتى قد استبدلوا
بالنبض، ما يُرغي به المرجلُ
في موقرات، من سفين الغزاه،
بالموتِ مما يصنع المعملُ.

حتّى إذا ما رَشَّ عَارَ العُتَاهِ
 بالدمع من عينيه، والنارِ
 من قلبه المورق بالغارِ،
 إنسانُكِ العملاق ظلّ الإله،
 ظلّ الملايين التي مقلّته
 عنها ترى ما في خيال تراه،
 هذا الذي أعصابُها في قِواه -
 أحياء دم الموتى، فخرّ الطغاه!
 فليحرسِ الأحياء باب الحياة!

غاصّ المغيرونَ عن واديكِ وانحسروا
 فالأرضُ تدمى بقتلاها وتزدهرُ
 وازدادكِ الموتُ لا مُلْساً ملامحه
 بيضاً، كما تهلك الأنعام والشجر
 حاشاك! فالموتُ توري فيكِ حدّته
 طعمَ الدم الحيّ، ما يرقى به البشر
 أخفاهُ عنك التزامٌ واشتباكٌ يدِ
 في مثلها، فهو حيثُ اجتازهُ البصر
 حتّى إذا ارتدَّ واستبشعتِ صورتهُ
 أدركتِ أيّ انتصارٍ ذلك الظفرُ!

أدركتِ أَنَّ الضحايا ردَّ كائرها
 فيكِ الأقلُّ المضحِّي أنَّها أكثرُ
 من سدَّد النارَ في أيديكِ، يُوردها
 كيئدَ المغيَّرينَ منه الظنُّ والنظرُ؟
 واحتازَ في قلبه الأحقابَ، يزرعها
 في جانبٍ منه، واستبسالكِ الثمر
 واستنفرَ الشرقَ حتَّى كاد ميَّته
 يسعى؟ أهذا صلاحُ الدين أم عمر؟
 هذا الَّذي حدَّثتنا عنه أنفسنا
 في كلِّ دهْياءٍ نبلوها ومنتظر
 هذا الَّذي كلَّ، عن سحقٍ لبذرتِه
 بالخيَلِ والذابلاتِ، الرومُ والتتر
 يا أُمَّةَ تصنعُ الأقدارَ من دمها
 لا تياسِي. إنَّ «سيف الدولة» القدر
 أعلى لكلِّ انتصارٍ فيكِ جدَّتُه
 فاخضَلْ واخضَلَّت الآياتُ والسَّوَرُ
 في مسجدٍ أمَّ مَشَاءً بأُمَّتِه
 فيه المصلِّينَ! حتَّى كبَّرَ الحجرُ!
 واستشرفَ السَّاحَ ناءٍ عنه يحمله
 ما بينَ جنبَيْه، رامٍ فيه منتصر:
 عينٌ لسيناءَ ترقى كلَّ رابيةٍ
 فيها، وعينٌ وراءَ النيلِ تنحدرُ

أو تنفض الأفق، حتى ضاء من لهب
 حملاقها، فهي ممّا راء تستعرا!
 جاؤوك! جاء الصليبيون، قاصفة
 تنفض في إثر أخرى، فاللظى مطر
 في كلّ فانوس موتى من قذائفها
 نورٌ له اختضت الأبعاد والعُصر
 فالشرق عارٍ مدى عينيه، منبسط
 كالراحة: الدور، والأكواخ والحُفر
 يكاد يبصر ما أبقاه مكتدح
 في جبهة، واغتذى من مقلّة سهر
 إيماضة البرق: إلّا أنّها حقبت
 تُطوى، ومستقبل يُبنى ويدخر!
 المجد لله والإنسان: أن يدا
 تحيي وقلبا يداوي، منهما أثر!
 يا قلعة النور تدمى كلّ نافذة
 فيها، وتلظى، ولا تستسلم، الحُجر
 أحسستُ بالذلّ أن يلقاك دونّ دمي
 شعري، وأني بما ضحيت أنتصر
 لكنّها باقةٌ أسعى إليك بها
 حمراءٌ يخضلُ فيها من دمي زهر!

المومس العمياء

الليل يُطبق مرّة أخرى، فتشربه المدينه
والعابرون، إلى القرارة... مثل أغنية حزينه.
وتفتحت، كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق،
كعيون «ميدوزا»⁽¹⁾، تحجّر كلّ قلب بالضغينه،
وكانها نذرٌ تبشّر أهل «بابل» بالحريق

من أي غابٍ جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف
من أي وجر للذئاب؟
من أيّ عشٍّ في المقابر دفّ أسفع كالغراب؟
«قاييل»⁽²⁾ أخفّ دم الجريمة بالأزاهر والشفوف
وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء
ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء

(1) في الأساطير اليونانية أنّ عيون ميدوزا تحوّل كلّ من تلتقي بهما عيناه إلى حجر. (ش)

(2) في القرآن الكريم أنّ الغراب هو الذي أرشد قاييل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله. (ش)

عمياء كالخفّاش في وضوح النهار، هي المدينة،
والليل زاد لها عماها.

والعابرون:

الأضلع المتقوّسات على المخاوف والظنون،

والأعين التعبى تفتش عن خيال في سواها

وتعدّ آنية تلاًّ في حوانيت الخمر:

موتى تخاف من النشور

قالوا سنهرب، ثمّ لاذوا بالقبور من القبور!

من هؤلاء العابرون؟

أحفاد «أوديب»⁽¹⁾ الضرير ووارثوه المبصرون.

(جوكتس) أرملّة كأمسٍ، وباب «طيبة» ما يزال

يُلقي «أبو الهول» الرهيب عليه، من رعبٍ ظلال

والموت يلهث في سؤال

باقٍ كما كان السؤال، ومات معناه القديم

(1) تزوج «أوديب» أمّه «جوكتس» وهو لا يدري بأنّها أمه. وطيبة هي المدينة التي دخلها بعد أن قتل أباه ملك طيبة، فتزوج أمّه، زوجة الملك القتيل. وكان «أبو الهول» يحرس مدخل المدينة ويلقي على كلّ غريب يداخلها سؤالاً: «ما الكائن الذي يمشي على أربع في الفجر واثنتين في الظهر وثلاث في المساء» وقد حلّ أوديب هذا اللغز وكان الجواب: «الإنسان». (ش)

من طول ما اهترأ الجواب على الشفاء.

وما الجواب؟

«أنا» قال بعض العابرين...

وانسلت الأضواء من باب ثناء كالجحيم

تطفو عليهن البغايا كالفراشات العطاش

يبحثن في النيران عن قطرات ماء... عن رشاش.

لا تنقلنَّ خطاك فالمبغى «علائي»⁽¹⁾ الأديم:

أبناؤك الصرعى تراب تحت نعلك مستباح،

يتضاحكون ويعولون.

أو يهمسون بما جناه أب يبرؤه الصباح

مما جناه، ويتبعون صدى خطاك إلى السكون

الحارس المكدود يعبر، والبغايا متعبات،

النوم في أحداقهن يرفّ كالطير السجين،

وعلى الشفاء أو الجبين

(1) نسبة إلى أبي العلاء المعري، الأعمى والقاتل: «ما أظن أديم الأرض إلّا من هذه الأجساد»
و«هذا جناه أبي علي...». (ش)

تترنح البسمات والأصباغ ثكلى، باكيات،
 متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقهات،
 وكأن عارية الصدور
 أوصال جنديّ قتيل كَلَلوها بالزهور،
 وكأنّها درج إلى الشهوات، تزحمه الثغور⁽¹⁾
 حتّى يهدّم أو يكاد. سوى بقايا من صخور.

جيفٌ تسترّ بالطلاء، يكاد ينكر من رآها
 أنّ الطفولة فجّرتها، ذات يوم، بالضياء
 كالجدول الثرثار - أو أنّ الصباح رأى خطاها
 في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء،
 ويكاد ينكر أنّ شقّاً لاح من خلل الطلاء
 قد كان - حتّى قبل أعوامٍ من الدم والخطيئة -
 ثغراً يكركر، أو يثرثر بالأقاصيص البريئة
 لأبٍ يعود بما استطاع من الهدايا في المساء:
 لأبٍ يقبل وجه طفله النديّ أو الجبين
 أو ساعدين كفرختين من الحمام في النقاء.

(1) حذف السيّاب بعد هذا البيت بيتان شعريان كانا قد وردا في نص القصيدة المنشور في مجلة الثقافة الجديدة، العدد الثاني، كانون الثاني 1953، والبيتان هما: «ذات الطلاء هنا وثمة، حينها حفر للعب/ أثرا، كما انطبع السقيط من النقود على التراب». (م)

ما كان يعلم أن ألف فم كبتٍ دون ماء
 ستمصُّ من ذاك المحيا كلَّ ماء للحياء
 حتّى يجفّ على العظام - وأن عاراً كالوباء
 يصمُّ الجباه فليس تُغسل منه إلا بالدماء
 سيحلّ من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين -
 والساعدين الأبيضين، كما تنورُ في السهول
 تفاحةٌ عذراءٌ، سوف يطوّقان، مع السنين
 كالحيّتين، خصور آلاف الرجال المتعبين
 الخارجين، خروج آدم، من نعيم في الحقول
 تفاحه الدّم والرغيف وجرعتان من الكحول
 والحية الرقطاء ظلٌّ من سياط الظالمين
 يا أنت، يا أحد السكاري،
 يا من يريد من البغايا ما يريد من العذاري
 (ما ظلّ يحلم، منذ كان، به ويزرع في الصحارى
 زبد الشواطئ والمحار
 مترقباً ميلاد «أفروديت»⁽¹⁾ ليلاً أو نهارة)

(1) في أساطير الإغريق أن «أفروديت» ولدت من زبد البحر ونزلت محمولة على صدفة محار.
(ش)

أتريد من هذا الحطام الآدميَّ المستباح
دفعَ الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح
ودواء ما تلقاه من سأمٍ وذُلٍّ واكتداح
المال، شيطان المدينة

لم يحظَ، من هذا الرهان، بغير أجساد مهينة
«فاوست»⁽¹⁾ في أعماقهن يعيد أغنية حزينه
المال، شيطان المدينة، ربُّ «فاوست» الجديد
جارت على الأثمان وفرة ما لديه من العبيد،
الخبز والأسمال حظُّ عبيده المتذللين

مما يوزع من عطايا - لا اللآلئ والشباب،
والمومس العجفاء - لا «هيلين»⁽²⁾، والظمأ اللعين
لا حكمة الفرع المجنَّح والخطيئة والعذاب
الخيال من سأمٍ تحمحم وهي تضرب بالحوافر⁽³⁾
حجر الطريق.

هلمَّ: فالخوذي يبحث عن مسافرٍ

(1) تراهن الله والشيطان على فاوست، وزعم الشيطان أنه يستطيع شراءه روحاً وجسداً... وقبل فاوست بأن يبيع نفسه فوضع الشيطان نفسه في خدمته لقاء ذلك. فردَّ عليه الشباب ووجهه اللآلئ والمال وأراه شبح هيلين الإغريقية. (ش)

(2) وفي النهاية لم يحصل الشيطان إلّا على جسد فاوست، بينما صعدت روحه إلى السماء. (ش)

(3) البيت من «فاوست» لغوته، يقول الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت «التي غرَّ بها وقتل أخاها وولدت طفلاً فقتلته» وهي في سجنها. (ش)

والريح صرٌّ، والبغيُّ بلا زبائنَ منذُ حين.
 إنْ لم تضاجعها وصدَّ سواك عنها معرضينَ
 فكيف تحيا، وهي، مثلك لا تعيش بلا طعام؟
 لا تخشَ منها أن تُراعَ بما تأكله الجذام
 من صدرك النخر العريض. وأنت ويحك يا أخاها
 ماذا تريد، وعمَّ تبحث في الوجوه؟ ويا أباه
 اطعن بخنجرك الهواء.. فأنتما لن تقتلاها.
 هي لن تموت:

سيظلّ غاصبها يطاردها وتلفظها البيوت
 ستظلّ - ما دامت سهام التبر تصفر في الهواء -
 تعدو، ويتبعها «أبولو»⁽¹⁾ من جديد كالقضاء،
 وتظلّ تهمس، إذ تكاد يدها أن تتلقفها:
 «أبتي... أغثني» بيد أنك لا تصيخ إلى النداء،
 لو كنت من عرق الجبين ترشها ومن الدماء
 وتحيلها امرأة بحق، لا متاعاً للشراء
 كللتَ منها، بالفخار وبالبطولات، الجباها!

(1) كانت «دفي» ابنة إله صغير، إله أحد الأنهار وقد رآها «أبولو» إله الشمس الجبار فأحبها وطاردها محاولاً اغتصابها. وقد استنجدت بأبيها فرشها بحفنة من الماء وأحالتها إلى شجرة غار تصفر من أغصانها الأكاليل للأبطال. أنا سهام التبر، الذهب، فهي السهام التي كان كيوييد يرشق بها قلب أبولو ليلهب الحب فيه وقد استعرناها رمزاً لسطوة المال. (ش)

وكأنَّ أَلحَاطَ البَغَايَا.

إِبْرُ تُسَلُّ بِهَا خِيوطَ مَنْ وَشَائِعَ فِي الْحَنَايَا

وَتَظَلُّ تَنْسُجُ، بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ حَشْدِ الْعَابِرِينَ،

شَيْئًا كَبِيتِ الْعَنْكَبُوتِ يَخْضُهُ الْحَقْدُ الدِّفِينَ:

حَقْدٌ سَيَعْصِفُ بِالرِّجَالِ

وَالْأَخْرِيَاتِ، النَّائِمَاتِ هُنَاكَ فِي كَنَفِ الرِّجَالِ

وَالسَّاهِرَاتِ عَلَى الْمَهُودِ وَفِي بُيُوتِ الْأَقْرَبِينَ

حَوْلَ الصَّلَاةِ بِلَا أَطْرَاحٍ لِلشَّيَابِ وَلَا اغْتِسَالِ

فِي الزَّمْهَرِيرِ، وَدُونَ عَدِّ اللَّيَالِي وَالسِّنِينَ!

وَيَمُرُّ عَمَلًا قُ يُبِيعُ الطَّيْرُ، مَعْطَفُهُ الطَّوِيلُ

حَيْرَانٌ تَصْطَفِقُ الرِّيحَ بِجَانِبِيهِ، وَقَبْضَتَاهُ

تَتَرَاوِحَانِ: فَلِلرَّدَاءِ يَدٌ وَلِلْعَبَاءِ الثَّقِيلِ

يَدٌ، وَأَعْنَاقُ الطَّيُورِ مَرْنَحَاتُ مَنْ خَطَاهُ

تَدْمَى كَأَثْدَاءِ الْعَجَائِزِ يَوْمَ قَطَعَهَا الْغَزَاهُ.

خَطَوَاتُهُ الْعَجَلَى، وَصَرَخَتُهُ الطَّوِيلَةَ: «يَا طَيُورُ

هَٰذَا الطَّيُورُ، فَمَنْ يَقُولُ تَعَالَى...»

أَفْزَعَهَا صَدَاهُ

يَأْتِيهِ مِنْ غُرْفِ الْبَغَايَا كَاللِّهَاطِ مِنَ الصَّدُورِ.

ويدُّ تشير إليه عن كُتب، وقائلة تعال!

بين التضاحك والسعال:

عمياء تطفئ مقلتها شهوة الدم في الرجال

وتحسسته كأن باصرةً تهتمُّ ولا تدور

في الراحتين وفي الأنامل وهي تعثر بالطيور،

وتوسلته: «فدى لعينك - خلّني. بيدي أراها».

ويكاد يهتك ما يغلف ناظرها من عماها

قلبٌ تحرق في المحاجر واشرباً يريد نور!

وتمسّ أجنحةً مرّقةً فتشرها يداها،

وتظل تذكر - وهي تمسحهن - أجنحة سواها

كانت تراها وهي تخفق... ملء عينها تراها:

سربٌ من البط المهاجر، يستحثُّ إلى الجنوب

أعناقها الجدلى.. تكاد تزيد من صمت الغروب

صيحائه المتقطعات، وتضمحلُّ على السهوب

بين الضباب، ويهمس البرديّ بالرجع الكئيب.

ويرج وشوشة السكون

طلق.. فيصمت كلّ شيء.. ثمّ يلغظ في جنون.

هي بطة فلم انتفضت؟ وما عساها أن تكون؟

ولعل صائدها أبوك، فإن يكن فستشبعون.
وتخفّ راکضةً حبال النهر كي تلقى أباه:
هو خلف ذاك التّل يحصد. سوف يغضب إن رآها.
مرّ النهار ولم تُعنه... وليس من عونٍ سواها
وتظل ترقى التّل وهي تكاد تكفر من أساها.
.....

يا ذكرياتُ علامَ جئتِ على العمى وعلى السهاد؟
لا تمهليها، فالعذاب بأن تمرّ في اتّاد.
قصّي عليها كيف مات وقد تضرّج بالدماء
هو والسنابل والمساء -
وعيون فلاحين ترتجف المذلة في كواها
والغمغمات: «رآه يسرق...»، واختلاجات الشفاه
يخزين ميّتها، فتصرخ: «يا إلهي، يا إلهي...»
لو أنّ غير «الشيخ»!، وانكفأت تشدّ على القليل
شفقتين تنتقمان منه أسى وحباً والياعا
وكأنّ وسوسة السنابل والجداول والنخيل
أصداء موتى يهمسون: «رآه يسرق» في الحقول
حيث البيادر تفصد الموتى فتزداد اتساعاً!

وتحسُّ بالدم وهو ينزف من مكانٍ في عماها
كالماء من خشب السفينة، والصيد من القبور،
وبأدمعٍ من مقلتيها كالنمال على الصخور
أو مثل حَبَّات الرمال مبعثرات في عماها
يهوين منه إلى قرارة قلبها آهاً فأها.
ومن الملموم وتلك أقدارٌ كُتِبَ على الجبين؟
حتَّم عليها أن تعيش بعرضها، وعلى سواها
من هؤلاء البائسات. وشاء ربّ العالمين
ألا يكون سوى أبيها - بين آلافٍ - أباهَا
وقضى عليه بأن يجوع
والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساء
وبأن يلصَّ فيقتلوه... (وتشرَّب إلى السماء
كالمستغيثة، وهي تبكي في الظلام بلا دموع)
والله - عزَّ الله - شاء
أن تقذف المدنُ البعيدة والبحار إلى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا، في زقاق
دون الأزقة أجمعين
ودون آلاف الصبايا، بنت بائعة الرقاق:

تلك الشقية، ياسمين.

(ذاك اسم جارتها الجديد، فليتها كانت تراها

هل تستحقّ اسماً كهذا: ياسمين وياسمين؟)

ومن الذي جعل النساء

دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟

الله - عزّ وجلّ - شاء

ألا يكنّ سوى بغايا أو حواضن أو إماء

أو خادِماتٍ يستبيح عفافهن المترفون

أو سائلاتٍ يشتهيهن الرجال المحسنون!!

لو لم تكن أنثى! - وتسمع قهقهاتٍ من بعيد:

«عباس» عاد من الترضّد بالرجال على الوصيد

ولسوف تنزع راحتاه غُسالة الضيف الجديد.

لو لم تكن أنثى... وتسمع قهقهاتٍ من بعيد.

يا ليت حمّالاً تزوجها يعود مع المساء

بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين.

لكن بائسة سواها حدثتها منذ حين

عن بيتها وعن ابتيها، وهي تشهق بالبكاء:

عن زوجها الشرطيّ يحمله الغروب إلى البغايا

كالغيمة السوداء تُنذر بالمجاعة والرزايا،
 أزراره المتألقات على مغالق كل باب
 مُقَلُّ الذئاب الجائعات ترود غاباً بعد غاب
 وخطاه مطرقة تسمّر، في الظلام، على البغايا
 أبوابهنّ إلى الصباح - فلا أتجار بالخطايا
 إلّا لعاهرة تُجاز بأن تكون من البغايا...
 ويظلّ يخفرهن من شبح، ويثر في الرياح
 أغنية تصف السنابل والأزهار والصبايا،
 وتظل تنتظر الصباح وساعديه مع الصباح
 تصغي - وتحتضن ابتيتها في الظلام - إلى النباح
 وإلى الرياح تننّ كالموتى وتعول كالسبايا
 وتُجمّع الأشباح من حفر الخرائب والكهوف
 ومن المقابر والصحارى بالميثات وبالألوف...
 فتَقِفُ من فزع وتحجب مقلتيها بالغطاء،
 ويعود والغبش الحزين يرشُّ بالطلّ المضاء
 سعف النخيل... يعود من سهر يثن ومن عياء
 - كالغيمة اعتصرت قواها في القفار، وترتجئها
 عبر التلال قرى تجوع - لكي ينام إلى المساء:

عيشُ أشقُّ من المنيّة، وانتظار كالفناء
وطوى يعبّ من الدماء وسمُّ أفعى في الدماء
وعيون زانٍ يشتهيها، كالجحيم يشعّ فيها
سخرٌ وشوق واحتقار، لاحقتها كالوباء...
والمال يهمس أشريك وأشريك فيشترها

.....

.....

يا ليتها، إذن انتهى أجلُّ بها فطوى أساها!
«لو أستطيع قتلْتُ نفسي..» همسةٌ خنقت صداها
أخرى توسوس: «والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟
وإذا اكفهرَ وضاق لحدك، ثمّ ضاق، إلى القرارِ
حتّى تفجّر من أصابعك الحليب رشاش نارٍ
وتساءل المَلَكَّان: فيمَ قتلِ نفسك يا أئيمه؟
وتخطّفاك إلى السعير تكفّرين عن الجريمة.
أفتصرخين: أبي! فينفض راحتيه من الغبارِ
ويخف نحوك وهو يهتف: قد أتيتك يا سليمه؟»
حتّى اسمُها فقدته واستترت بآخر مستعارٍ
هي - منذ أن عميت - «صباحٌ»...

فأيُّ سخريةٍ مريـره!

أين الصباح من الظلام تعيش فيه بلا نهار
وبلا كواكبٍ أو شموعٍ أو كوى وبدون نار؟
أو بعد ذلك ترهيبين لقاء ربِّك أو سعيـره؟
القبر أهون من دجـاك دجى وأرفق، يا ضريره
يا مستباحةً كالفريسة في عراء، يا أسيره
تتلفتين إلى الدروب ولا سبيل إلى الفرار؟

.....

وتحسّ بالأسف الكظيم لنفسها: لِمَ تُستباح؟
الهَرُّ نام على الأريكة قربها... لِمَ تستباح؟
شبعان أغفى، وهي جائعة تلمُّ من الرياح
أصداء قهقهة السكارى في الأزقة، والنباح
وتعدّ وقع خطى هنا وهناك: ها هو ذا زبون
هو ذا يجيء - وتشرئب، وكاد يلمس.. ثم راح
وتدقّ في أحد المنازل ساعة.. لِمَ تستباح؟
الوقت آذن بانتهاء والزبائن يرحلون.

لِمَ تستباح وتستباح على الطوى؟ لِمَ تستباح؟
كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصباح؟

الجوع ينخر في حشاها، والسكرارى يرحلون،
مرّوا عليها في المساء وفي العشية ينسجون
حلماً لها هي والمنون:

عصَبَات مهجتها سداه وكل عوق في العيون،
والآن عادوا ينقضون -

خيّطاً فخيّطاً من قرارة قلبها ومن الجراح -
ما ليس بالحلم الذي نسجوه، ما لا يدركون...
شيئاً هو الحلم الذي نسجوا وما لا يعرفون،
هو منه أكثر: كالحفيف من الخمائل والرياح،
والشعر من وزن وقافية ومعنى، والصباح -

من شمس الوضاء... وانصرفوا سكرارى يضحكون!
فليرحلوا. ستعيش، فهي من السعال ومن عماها
أقوى، ومن صخب السكرارى.

فامضِ عنها يا أساها!

ستجوع عاماً أو يزيد، ولا تموت، ففي حشاها
حقاً يؤرّث من قواها.

ستعيش للثأر الرهيب

والداء في دمها وفي فمها. ستنفث من رداها

في كلِّ عرقٍ من عروق رجالها شبحاً من الدم واللهيب،
 شبحاً تخطَّفَ مقلتيها أمسٍ، من رجلٍ أتاها
 ستردُّه هي للرجال، بأنهم قتلوا أباهـ
 وتلقفوها يعبثون بها وما رحموا صباها،
 لم يبتغوها للزواج لأنها امرأة فقيره،
 واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريره،
 وتهامس المتقولون فثار أبناء العشيره
 متعطّشين - على المفارق والدروب - إلى دماها.
 وكأنَّ موجة حقدها ورؤى أساها.
 كانت تقرب من بصيرة قلبها صوراً علاها
 صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة من عماها:
 كلُّ الرجال؟ وأهل قريتها؟ أليسوا طيبين؟
 كانوا جياعاً - مثلها هي أو أبيها - بائسين،
 هم مثلها - وهم الرجال - ومثل آلاف البغايا
 بالخبز والأطمار يُؤتَجَرُون، والجسدُ المهين
 هو كلُّ ما يتملّكون، هم الخطاة بلا خطايا
 وهم السكارى بالشرور كهؤلاء العابرين
 من السكارى، بالخمور.. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور

الشاربين - كمن تضاجع نفسها - ثمن العشاء
 الدافنين خروق بالية الجوارب في الحذاء،
 يتساومون مع البغايا في العشيّ على الأجور
 ليوفّروا ثمن الفطور!

ليس الذين تغصّبوها من سلالة هؤلاء:
 كانوا كآلهة مقطّبة الجباه من الصخور
 تمتصّ من فرع الضحايا زهوها ومن الدماء
 متطلعين إلى البرايا كالصواعق من علاء!
 وتحسّ، في دمها، كآبة كلّ أمطار الشتاء
 من خفق أقدام السكاري، كالأسير وراء سور
 يصغي إلى قرع الطبول يموت في الشفق المضاء.
 هي والبغايا خلف سور، والسكاري خلف سور،
 يبحثن هنّ عن الرجال، ويبحثون عن النساء،
 دميّت أصابعهن: تحفر والحجارة لا تلين،
 والسور يمضغن ثمّ يقيئن ركام طين:
 نصباً يخلّد عار آدم واندحار الأنبياء،
 وطلول مقبرة تضم رفات «هايل» الجنين!
 سورٌ كهذا، حدّثوها عنه في قصص الطفولة:

«يأجوج»⁽¹⁾ يغرز فيه، من حنق، أظافره الطويلة
 ويعضّ جندله الأصمّ، وكفّ «مأجوج» الثقيله
 تهوي، كأعنف ما تكون، على جلامده الضخام،
 والسور باقي لا يُثَلُّ.. وسوف يبقى ألف عام،
 لكنّ (إن - شاء - الإله)
 - طفلاً كذلك سميّاه -

سيهبّ ذات ضحىّ ويقلع ذلك السور الكبير.
 ...الطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه
 من قبل يأجوج البرايا. توأمّ هو للسعير!
 لصّ الحجارة من منازل في السهول وفي الجبال
 يتواثب الأطفال في غرفاتها ويكركرون...
 والأمّهات يلدن والآباء للغد ييسمون،
 لم يُبق من حَجَر عليها، فهي ريح أو خيال.
 وأدار من حُطَمِ البلاط رحي، وساط من البطون
 ما ترتعيه رحاه من لحم الأجنّة والعظام،

(1) قصة يأجوج ومأجوج يعرفها كلّ من قرأ القرآن الكريم، ولكن الأساطير الشعبية تضيف إليها أنّهما يلحسان السور بلسانيهما كلّ يوم حتّى يصبح في رقّة قشرة البصل، ويدركهما التعب فيقولان: «غدأ ستمّ العمل» وفي الغد يجدان السور على عهده من القوة والمتانة.. وهكذا. حتّى يولد لها طفل يسميانه «إن شاء الله» فيحطم السور. (ش)

وكشاطئين من النجوم على خليج من ظلام
يتحرَّقان ولا لقاءَ ويخمدان سوى ركام -

شق الرجال عن النساء: سُلالتين من الأنام
تتلاقيان مع الظلام وتُفصلان مع الشروق:

زائِن وزانية، وبائعة وشارٍ - والطعام

لا الحبُّ والأحقاد لا الأشواق - تنبض في العروق!

زائِن وزانية؟ .. أيمن ذاك وهي بلا عشاء؟

لَم يُعرِض الزانون عنها وحدها؟ لِمَ يعرضون

وهي الفقيرة فقر شحاذ؟ أما هي كالنساء؟

أو ما لها جسد كناضجة الثمار؟ أيعثرون

لو يقطعون الليل بحثاً والنهار - على سواها

في حسننها هي؟ في غصارة ناهديها أو صباها

وبسعرها هي؟ أيَّ شيء غير هذا يبتغون؟

أ «زهوْرُ» أجمل أو «سعادُ»؟ بأي شيء جارتاها

تتفوقان؟

وعَضَّت اليد وهي تهمس: بالعيون...!

عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يا سليمه.

.... وتلوِبُ أغنية قديمة

في نفسها وصدى يوشوش: يا سليمة، يا سليمة⁽¹⁾
 نامت عيون الناس. آه.. فمن لقلبي كي يُنيمه؟
 ويل الرجال الأغبياء، وويلها هي، من عماها!
 لِمَ أصبحوا يتجنبون لقاءها؟ أيضا جعونَ
 عيونها، فيخلفوها وحدها إذ يعلمونَ
 بأنها عمياء؟ فيم يكابرون ومقلتاها
 ما كانتا فخذين أو ردفين؟

وهي بهولاء
 أدري، وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون.
 بالأمس، إذ كانت بصيره،
 كان الزبائن بالمئات، ولم يكونوا يقنعون
 بنظرة قمراء تغصبها من الروح الكسيرة
 لترش أفئدة الرجال بها، وكانوا يلهثون
 في وجهها المأجور، أبخرة الخمر، ويصرخون
 كالرعد في ليل الشتاء:
 عَبَرَ ابتسامتها أو الفخذ التي زلق الرداء
 عنها، أو النهدين نَمَّ عليهما قلق الضياء -
 «إن كنت لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود،

(1) أغنية شعبية «سليمة يا سليمة. نامت عيون الناس. لقلبي (قلبي) ش يُنيمه؟». (ش)

إن كنت لا تتجردين.. فلا نقود!
ولعلّ غيرة «ياسمين» وحقدّها سبب البلاء:
فهي التي تضع الطلاء لها وتمسح بالذرور
وجهاً تطفأت النواظر فيه...
- «كيف هو الطلاء؟»

وكيف أبدو؟
- وردة.. قمر.. ضياء!

زور.. وكل الخلق زور،
والكون مَيّنٌ وافتراء.
لو تبصر المرأة - لمحة مقلتيها - لو تراها
- لمح النيازك - ثم تغرق من جديد في عماها!
برقٌ ويُطفأ... ثم تُحكم فرقها بيد، وفاها
بيد، وترسم بالطلاء على الشفاه لها شفاها.
شفتاك عارية وخدّك ليس خدّك يا سليمه،
ماذا تخلف منك فيك سوى الجراحات القديمه؟
وتضمُّ زهرة قلبها العطشى على ذكرى أليمه:
تلك المعايبة اللعوب... كأنها امرأة سواها!
كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب - مقلتاها،

والشعر يلهث بالرغائب والطرأوة والعبير
 ويمثل أضواء الطريق نعسنَ في ليل مطير،
 والثغرين الجلنار وزهرة النهـد الصغير.
 كانت إذا جلست إلى المرأة يفتنها صباها
 فتظلّ تعصر نهدها بيد، وتحملها رؤاها
 من مخدع الآثام في المنفى، إلى قصر الأمير:
 تفتات بالعسل النقيّ، وترتدي كسل الحرير.
 ليت النجوم تخرُّ كالفحم المطفأ، والسماء
 ركام قارٍ أو رماد، والعواصف والسيول
 تدقُّ راسية الجبال ولا تخلف في المدينة من بناء!
 أن يعجز الإنسان عن أن يستجير من الشقاء
 حتّى بوهـم أو برؤيا، أن يعيش بلا رجاء...
 أو ليس ذاك هو الجحيم؟ أليس عدلاً أن يزول؟
 شبع الذُّباب من القمامة في المدينة، والخيول
 سرّحن من عرباتهن إلى الحظائر والحقول،
 والناس ناموا - وهي ترتقب الزناة بلا عشاء.
 هذا الذي عرضته كالسلع القديمة: كالحذاء،
 أو كالجرار الباليات، كأسطوانات الغناء...

هذا الذي يأبى عليها مشتر أن يشتريه
 قد كان عرضاً - يوم كان - ككل أعراض النساء!
 كان الفضاء يضيق عن سعة، وتُرتخص الدماء
 إن رنق النظر الأثيم عليه. كان هو الإباء
 والعزة القعساء والشرف الرفيع. فشاھديه
 يا أعين الظلماء، واملئي بغیظك وارجميه
 بشواظ عارك واحتقارك يا عیون الأغبیاء!
 - «لا تتركوني يا سكارى

للموت جوعاً، بعد موتي - مية الأحياء - عارا.
 لا تقلقوا... فعماي ليس مهابة لي أو وقارا.
 ما زلت أعرف كيف أُرْعش ضحكتي خلل الرداء
 - إبان خلعي للرداء - وكيف أرقص في ارتخاء
 وأمسُ أعطية السرير وأشرئبُ إلى الوراء.
 ما زلت أعرف كلّ ذاك، فجربوني يا سكارى!
 من ضاجع العربية السمراء لا يلقى خساراً.
 كالقمح لونك يا ابنة العرب⁽¹⁾،

(1) ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعبيين والشوفينيين. يجب أن تكون القومية شعبية، والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر وكورثة لأجداد الأمة العربية. (ش)

كالفجر بين عرائش العنب
 أو كالفرات، على ملامحه
 دعةُ الثرى وضراوة الذهب.
 لا تتركوني.. فالضحى نسبي:
 من فاتح، ومجاهد، ونبي!
 عريية أنا: أمتي دمها
 خير الدماء.. كما يقول أبي.
 في موضع الأرجاس من جسدي، وفي الثدي المذال
 تجري دماء الفاتحين. فلوّثوها، يا رجال
 أواه من جنس الرجال.. فأمس عاث بها الجنود
 الزاحفون من البحار كما يفور قطيع دود⁽¹⁾
 يا ليت للموتى عيوناً من هباء في الهواء
 ترى شقائي
 فيرى أبي دمه الصريح يعبُّ أو شال الدماء
 كالوَحْل في المستنقعات. فلا يرَدُّ الخاطبينَ
 أبُّ سواه: لأنَّ جدة أمّ ذاك من الإماء

(1) كان هذا البيت، في نص القصيدة الأول، على هذا النحو: «من أدعياء الانكليز إلى صعاليك الهنود». (م)

ولأن زوجة خال ذلك بنت خالة هؤلاء!
 أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعين
 إلا العفاة المفلسين.
 أنا زهرة المستنقعات، أعبُّ من وحل وطين
 وأشعّ لونٌ ضُحَى...»
 وذكرها بجعجعة السنين
 سُعالها. ذهبَ الشباب!!
 ذهب الشباب!! فشيَّعه مع السنين الأربعين
 ومع الرجال العابرين حيال بابك هازئين.
 وأتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب،
 فاستقبله على الرصيف بلا طعام أو ثياب⁽¹⁾،
 يا ليتك المصباحُ يخفق ضوءُه القَلْبُ الحزين
 في ليل مخدعك الطويل، وليت أنّك تُحرِّق
 دماً يجفُّ فتشترين
 سواه: كالمصباح والزيت الذي تستأجرين⁽²⁾.

(1) حذف السيّاب بعد هذا البيت بيتان شعريان كانا قد وردا في نص القصيدة المنشور في كُرّاس مستقل عام 1954، والبيتان هما: «تستوهين العابرين/ فلساً لوجه الله، لا مائة لوجهك أو مئتين». (م)

(2) تدفع البغايا للمسارات أجرأ ليلاً عن المصابيح في غرفاتهن قدره ربع دينار لكل مصباح!.. (ش)

عشرون عاماً قد مضين، وشببتِ أنت، وما يزال
 يذرذر الأضواء في مُقل الرجال.
 لو كنت تدخرين أجرَ سناه ذاك على السنين
 أثريتِ...

ها هو ذا يُضيءُ فأَيُّ شيءٍ تملكين؟
 ويح العراق! أكان عدلاً فيه أنك تدفعين
 سُهاد مقلتك الضريرة
 ثمناً لملء يديك زيتاً من منابعه الغزيرة؟
 كي يثمر المصباحُ بالنور الذي لا تبصرين؟
 عشرون عاماً قد مضين، وأنت غرثى تأكلين
 بنيك من سَعَبٍ، وظمأى تشربين
 حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين!

وكزراعٍ لَهُمَ البذور
 وراح يقتلع الجذور
 من جوعه، وأتى الربيع فما تفتحت الزهورُ
 ولا تنفست السنابل فيه...

ليس سوى الصخورِ

سوى الرمال، سوى الفلاة -

خُنْتُ الحِياةَ، بغير علمك، في اكتداحك للحياة!
 كم ردّ موتك عنك موتُ بنيك. إنك تقطعين
 حبل الحياة لتتقضيه وتضفري حبلاً سواه،
 حبلاً به تتعلقين على الحياة: تضاجعين
 ولا ثمار سوى الدموع، وتأكلين،
 وتسهرين ولا عيون، وتصرخين ولا شفاه،
 وغداً بحبلك تُشنقين!
 وغداً. وأمس.. وألف أمسٍ - كأنما مسح الزمان
 حدوداً ما لك فيه من ماضٍ وآتٍ
 ثم دار، فلا حدود
 ما بين ليلك والنهار، وليس، ثمّ، سوى الوجود..
 سوى الظلام، ووطء أجساد الزبائن، والنقود،
 ولا زمان، سوى الأريكة والسريّر، ولا مكان!
 لم تحسبين ليالي السأم المسهّدة الرتيبة؟
 ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك، ما الشهور؟ وما السنين؟
 ماتت «رجاء» فلا رجاء. ثكلت زهرتك الحبيبة!
 بالأمس كنت إذا حسبت فعمرها هي تحسبين.
 ما زال من فمها الصغير

طراوة في حلمتيك، وكركرات في السرير.
 كانت عزاءك في المصيبة.
 وربيع قفرتك الجديد.
 كانت نقاءك في الفجور، ونسمة لك في الهجير،
 وخلاصك الموعود، والغبش الإلهي الكبير!
 ما كان حكمة أن تجيء إلى الوجود وأن تموت؟
 ألتشرب اللبن المرثق بالخطيئة واللعب:
 أو شال ما تركته في ثديك أشداق الذئاب؟
 كان الزناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قوت.
 فكأنها، وهي البريئة،
 كانت تشاركك العذاب لكي تكفر عن خطيئته!
 أفترضين لها مصيرك؟
 فاتركيها للتراب
 في ظلمة اللحد الصغير تنام فيه بلا مأب.
 فالنور والأطفال والبسمات حظ المترفين،
 والجوع والأدواء والتشريد حظ الكادحين..
 وأنت بنت الكادحين.

مات الضجيج. وأنتِ، بعدُ، على انتظارك للزناه،

تتنصّتين، فتسمعينَ

رنين أقفال الحديد يموت، في سأم، صدها:

الباب أُوْصِد.

ذاك ليل مرّ...

فانتظري سواه.

حفار القبور

ضوء الأصيل يغيم، كالحلم الكثيب، على القبور
 وإه، كما ابتسم اليتامى، أو كما بهتت شموع
 في غيبه الذكرى يُهَوِّم ظُلُهْنَّ على دموع
 والمذرجُ النَّائِي تهبّ عليه أسراب الطيور،
 كالعاصفات السود، كالأشباح في بيتٍ قديمٍ
 برزت لتُرعِب ساكنيه

من غرفةٍ ظلماءٍ فيه.

وتشاءب الطَّلَلُ البعيد - يُحدِّق الليل البهيم
 من بابه الأعمى ومن شُباكه الخربِ البليد.
 والجو يملؤه النعيب...
 فتُرَدِّدُ الصحراءُ، في يأسٍ وإعْوالٍ رتيبٍ،
 أصداءَ المتلاشيات،

والريح تذرّوهُنَّ، في سأم. على التلّ البعيد!
 وكأنّ بعض الساحرات
 مدّت أصابعها العجاف الشاحباتِ إلى السماء:

تُومِي إلى سِرْبٍ من الغربان تلويه الرياح
 في آخر الأفق المضاء -

حَتَّى تَعَالَى ثُمَّ فَاضَ عَلَى مَرَاقِيهِ الْفَسَاحُ
فَكَأَنَّ دِيدَانَ الْقُبُورِ

فَارَتْ لَتَلْتَهُمُ الْفَضَاءُ وَتَشْرَبُ الضُّوءَ الْغَرِيقُ
وَكَأَنَّمَا أَزَفَ النُّشُورُ

فَاسْتَيْقَظَ الْمَوْتَى عَطَاشَى يَلْهَثُونَ عَلَى الطَّرِيقِ!
وَتَدْفَعُ السَّرْبُ الثَّقِيلُ،

يَطْفُو وَيَرْسِبُ فِي الْأَصِيلِ،

لِحِبَابٍ يَرْتُقُّ بِالظَّلَامِ عَلَى الْقُبُورِ الْبَالِيَاتِ
وِظْلَالِهِ السُّودَاءَ تَزْحَفُ، كَاللَّيَالِي الْمَوْحِشَاتِ،
بَيْنَ الْجَنَادِلِ وَالصَّخُورِ

وَعَلَى الْقُبُورِ!

وَتَنْفَسُ الضُّوءَ الضَّئِيلُ

بَعْدَ اخْتِنَاقٍ بِالطِّيُوفِ الرَّاعِبَاتِ وَبِالْجُثَامِ،
ثُمَّ ارْتَحَتِ تِلْكَ الظَّلَالُ السُّودَ وَانْجَابَ الظَّلَامُ:
فَانْجَابَ عَنْ ظِلٍّ طَوِيلٍ

يُلْقِيهِ حَقَارُ الْقُبُورِ:

كَفَّانٍ جَامِدَتَانِ، أَبْرَدَ مِنْ جِبَاهِ الْخَامِلِينَ،
وَكَأَنَّ حَوْلَهُمَا هَوَاءٌ كَانَ فِي بَعْضِ اللَّحُودِ
فِي مُقْلَةٍ جَوْفَاءَ خَاوِيَةٍ يَهُومُ فِي رُكُودِ
كَفَّانٍ قَاسِيَتَانِ جَائِعَتَانِ كَالذُّئْبِ السَّجِينِ،

وفمٌ كشقٌّ في جدارٍ

مُستوحِدٍ بين الصخور الصمِّ من أنقاض دارٍ
عند المساء.. ومقلتان تحدقان، بلا بريقٍ
وبلا دموع، في الفضاء:..

هُوذا المساء

يدنوا، وأشباح النجوم تكاد تبدو، والطريق
خالٍ - فلا نعشٌ يلوح على مَداه.. ولا عويلٌ -
إلا النعيبُ

وتنهدُ الريح الطويل!

وعلامٌ تنعب هذه الغربان، والكون الرحيبُ
باقٍ يدور.. يعجُّ بالأحياء: مرضى، جائعين
بيضُ الشعور كأعظمُ الأموات - لكن خالدين
لا يهلكون؟ علامٌ تنعب؟ إنَّ عزرائيلَ مات!
وغداً أموتُ، غداً أموتُ!

وهزَّ حقارُ القبورِ

يُمناه في وجه السماء، وصاح: ربِّ! أما تنور
فتبيدُ نسلَ العار.. تُحرقُ، بالرجوم المهلكات،
أحفادَ عادٍ، باعةَ الدم والخطايا والدموعِ؟
يارب.. ما دام الفناء

هو غايةُ الأحياء، فأمرُ يهلكوا هذا المساء!
سأموْتُ من ظمأ وجوعٍ

إن لم يمت - هذا المساء إلى غدٍ بعض الأنام؛
فابعث به قبل الظلام!

يا رب.. أسبوعٌ طويل مرَّ كالعام الطويل،
والقبرُ خاوٍ، يفغر الفم في انتظار.. في انتظار،
ما زلت أحفره ويطمره الغبار -
تتشاءب الظلماء فيه ويرشح القاع البليل
مما تعصر أعين الموتى وتنضحه الجلود:
تلك الجلود الشاحبات وذلك اللحم النثير!
حتى الشفاء يمض من دمها الثرى - حتى النهود
تدوي، ويقطر، في ارتخاء من مراضعها، المغير!⁽¹⁾
واهأ لهايتك النواهد، والمآقي، والشفاه!
واهأ لأجساد الحسان! أياكل الليل الرهيب
والدود، منها، ما تمناه الهوى؟ واخيبتاه!
كم جثة بيضاء لم تفتضها شفتا حبيب،
أمسى يضاجعها الرغام؟

هل كان عدلاً أن أحن إلى السراب، ولا أنال
إلا الحنين - وألف أنثى تحت أقدامي تنام؟
أفكلما اتقدت رغباً في الجوانح شح مأل؟
ما زلت أسمع بالحروب - فأين أين هي الحروب؟
أين السنايك والقذائف والضحايا في الدروب..
لأظل أدفنها وأدفنها.. فلا تسع الصحارى

(1) اللبن المزوج دماً. (ش)

فأدسُ في قمم التلالِ عظامهنَّ وفي الكهوفِ؟
فكأنَّ قعقةَ المنازلِ في اللظى نقر الدّفوفِ
أو وقع أقدام العذارى

يرقصن حولي لاعباتٍ بالصنوج وبالسيوف!
نُبئتُ عن حربٍ تدور - لعلَّ عزرائيل فيها..
في الليل يكدح والنهار، فلنَّ يمرَّ على قرانا
أو بالمدينة وهي توشك أن تضيقَ بساكنيها!
نبتُ أن القاصفاتِ هناك ما تركتُ مكاناً
إلا وحلَّ به الدمار... فأبُي سوقٍ للقبور!
حتّى كأنَّ الأرض من ذهب يُضاحك حافريها،
حتّى كأنَّ معاصرَ الدم دافقاتٌ بالخمور!
أواه لو آتني هناك أسدٌ، باللحم النشير،
جوع القبور وجوعَ نفسي.. في بلادٍ ليس فيها
إلا أراملٌ... أو عذارى غاب عنهنَّ الرجالُ
وافترضنَّ الفاتحون إلى الذماء - كما يُقال!
ما زلت أسمع بالحروب. فما لأعين موقديها
لا تستقرُّ على قرانا؟ ليت عيني تلتقيها
وتخضهنَّ إلى القرار - وكالنيازك والرعود
تهوي بهنَّ على النخيل، على الرجال؛ على المهود!
حتّى تحدّق أعين الموتى، كآلاف اللّالي،
من كلّ شبرٍ في المدينة.. ثمَّ تُنظم كالعقودِ
في هذه الأرضِ الخرابِ - فيا لأعينها ويا لي!

رباه! إنني أقشعرُ... أكاد أسمع في الخيال
أغنيةً تصف العيون...

تثأل من مقهى، فأنصت في الزحام، وينصتون!
وكأن ما بيني وبين الآخرين من الهواء
ثديّ سخّيّ بالحليب وبالمحبة والإخاء.
يا ربّ.. أسبوع يمرُّ ولست أسمع من غناء
إلا النعيب

وتنهّد الريح الرتيب!
واخيبتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟
والطيّبات: من الرغبة، إلى النساء، إلى البنين
هي منّة الموتى عليّ. فكيف أشفق بالأنام؟
فلتمطرّهم القذائف بالحديد وبالضرام،
وبما تشاء من انتقام:

من حُمّا أو جذام!
نذرْ عليّ: لئن تشبَّ لأزرعنّ من الورود
ألفاً ترؤى بالدماء.. وسوف أرصف بالنقود
هذا المزار... وسوف أركض في الهجير بلا حذاء
وأعدّ أحذية الجنود...

وأخطُّ، في وحل الرصيف وقد تلطّخ بالدماء،
أعدادهنّ... لأستبيح عدادهنّ من النهود!

وسأدفن الطفلَ الرميَّ وأطرح الأمَّ الحزينه
بين الصخور على ثراه...

ولسوف أغررُ بين ثدييها أصابعي اللعينة.
ويكاد يخنقها لهائي وهي تسمعُ، في لظاء،
قلبي ووسوسةَ النقود... نقودها! واخجلتاه!
أنا لستُ أحقرَ من سواي. وإن قسوتُ فلي شفيعُ
أنِّي كوحشٍ في الفلاة...

لم أقرأ الكتبَ الضخام - وشافعي ظمأ وجوع.
أو ما ترى المتحضرينَ

المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟
مهما اذنأت فلن أسفَّ كما أسفُّوا.. لي شفيع
أنِّي نويت.. ويفعلون؛ وإنَّ من يثد البنينُ
والأمّهات ويستحلّ دم الشيوخ العاجزين
لأحطُ من زانٍ بما انتهك الغزاة وما استباحوا!
والقاتلون هم الجناة وليس حقّار القبور؛
وهم الذين يلوّنون لي البغايا بالخمور،
وهم المجاعة، والحرائق، والمذابح، والنواحُ،
وهم الذين سيتركون أبي وعمّته الضريره
بين الخرائب ينبشان ركامهن عن العظام،
أو يفحصان عن الجذور، ويلهثان من الأوام..
والصخر كالمقل الضريره.

وسيوثقون بشعر أختي قبضتي.. وكالظلام
وكخضّة الحمى، تسمّرها على دمها صدور
تعلو وتهبط باللهاث، كأنهن رحيّ تدور.
يا مجرمون، إلى الورااء! فسوف تنتفض القبور
وتقيء موتاهها. ويا موتى، على اسم الله ثوروا
رباه، عفوك.. إنّ «قابيل» المكبّل بالحديد
في نفسي الظلماء هبّ وقرّ يعصره الملال!
فالليل جاء، وما أزال

مستوحداً أرعى القبور وأنفض الدرب البعيد.
وكانّ يا بشرى! كأنّ هناك في أقصى الجنوب
خطأ كأذيال الظلام ولمعة كدم الغروب!
لكأنّه ضيفٌ جديد!

وبدا الجنّاز، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاء،
الأوجه المتحجّرات يضيئها الشفق الكئيب،
والغمغمات الخافتات من انفعالٍ أو رياء،
والنعث يحجبه غطاءً

ألوانه المترنّحات كأنما اعتصرَ المغيبُ
فيها قواه، وذاب فيها كوكب واهي الضياء،
حتّى إذا انهال الترابُ وصُفّحَ القبر الجديدُ،
وتراعى الألقُ الضئيل، على الظهور المتعباتِ
حتّى اضمحلّ، وغيّبتها ظلمة الأفق البعيد -
كانت مصاييح السماء تذرّ ضوءاً كالضباب

بين القبور الموحشات

وعلى الخرائب والرمال. وكان حفار القبور
متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلام...
يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئاب،
ويظل يحلم بالنساء العاريات وبالخمر،
وتحسست يده النقود وهياً الفم لابتسام -
حتى تلاشى في الظلام!

النور ينضح من نوافذ حانة عبر الطريق،
وتكاد رائحة الخمر

تلقى، على الضوء المشبع بالدخان وبالفقر
ظلاً كألوان حيارى واهيات من حريق
نائ. تهوّم، في الدجى الضافي، على وجه حزين.
وتلوح أشباح عجاف

خلف الزجاج.. تهيم في الضوء السرابي الغريق.
ويشدّ حفار القبور على الزجاجاة باليمين،
وكم يحاذر أو يخاف

يرنو إلى الدرب المنقط بالمصابيح الضئال،
وتحركت شفتاه في بطاء وغمغم في انخدال:
«أظننت أنك سوف تفتح المدينة كالغزاه..
كالفاتحين. وتشتريها بالذي ملكت يداك:

بأقل من ثمن الطلاء القرمزيّ على شفاه
أو في أظافر لاحقتها، ذات يوم، مقتلناك،
سأعود، لا نهضُ تعصره يدي حتّى الدهول،
حتّى التأوّه، والأنين وصرخة الدم في العروق
والسكرّة العمياء.. والخدر المضعّض.. والأفول!
والأذرع المتفترّات - يلوّن الضوء الخفوق
هزاتها المستسلمات، وينفخ الدم والعير
ظلّ لهن على السريّر.

الأذرع المتفترّات، وزهرتان على الوساذ
نسجتها كفّ مخضبة الأظافر - زهرتان
تفتحان على الوسادة كالشفاه - وتهمسان
نغمًا يذوب إلى رقاد.

ونعومة الكتفين، والشعر المعطر، والشحوب،
وتألق الجيد الشهيّ ولفحة النفس البهير.
والنور منفلتاً من الأهداب.. تثقله الطيوب،
قلقاً كمصباح السفينة راوحته صباً لعوب،
وتخافق الأظلال في دعة، ووسوسة الحرير.
والحلمتان: أشد فوقهما بصدري في اشتهاً -
حتّى أحسهما بأضلاعي وأعتصر الدماء
باللحم والدم والحنايا، منهما - لا باليدنين،
حتّى تغيبا فيه - في صدري - إلى غير انتهاء،
حتّى تمصّ من دماي... وتلفظاني، في ارتخاء،

فوق السرير...

وتشرئبًا

ثمّ نثوي جثتين!

دربٌ كأفواه اللحوذ -

لولا التماعات الكواكب، وانعكاس من ضياء
تلقيه نافذة - ووقع خطىّ تهاوى في عياء
يُصْدي له الليلُ العميق، وحارسٌ تعبٌ يعودُ
وسنان يحلم بالفراش وزوجة: تُذكي السراج
وتؤجج التنّور صامتة.. وأخيلةُ اللهب
تُضفي عليها ما تشاء من اكتئابٍ وابتهاج.
ثمّ اضمحلّ الحارس المكدود، والنغم الرتيب:
- وقع الخطى المتلاشيات. كأنه الهمس المريب -
ما زال يخفق من بعيد.

وتلملمت قَدَمَان، وارتفعت يدٌ بعد انتظار
وهوت على الباب العتيق، فأرسل الخشبُ البليدُ
صوتاً كإيقاع المعاول حين إدبارِ النهار
بين القبور الموحشات. وأطبق الصمتُ الثقيلُ،
وأطلّ من إحدى النوافذ، وهي تُفتح في ارتياب،
وجهٌ حزين.. ثمّ غاب!

وتحرّك البابُ المضْغَضَع وهو يُجهش بالعويل.

وتقول أنثى في اكتئاب:

«ضيفٌ جديدٌ!» ثم تفرك مقلتيها في فتور.
ويظلُّ يزحف كالْكُسوف - يُحجِّب الألق الضئيل
عن وجهها - ظلُّ يقيدها بحفار القبور!

في زهوة الشَّقِّ الملون حيثُ يحترق النهار -
في عودة الرُعيان أشباحاً يظللها الغبار -
في ساعة الشوق الكتيب إلى شواطئ كالضباب،
وإلى أكفٍّ مُخلصات،

وإلى أغاني مُبهماتٍ هائماتٍ في شعابٍ
أنأى من الأصداء.. تغشاها نُجومٌ ساهمات -
في ساعة الشَّقِّ الملون كان إنسانٌ يثور
بين الجنادل والقبور،

نفسٌ معذبة تثور

بين الجنادل والقبور:

«أظُلُّ أحلمُ بالنعوش، وأنفضُ الدرب البعيد
بالنظرة الشَّزراء، واليأس المظلل بالرجاء
يطفو ويرسب، والسماء كأنها صنمٌ بليد
لا مأمل في مقلتيه... ولا شواطئ... ولا رثاء؟
لو أنها انفجرت تُفهِقُهُ بالرعود القاصفات!
لو أنها انكمشت وصاحت كالذئاب العاويات:

«فَاتِ الْأَوَانَ، فَخُطَّ لِحَدِّكَ وَاثِرٍ فِيهِ إِلَى النُّشُورِ!
لَوْ أَنَّهَا انْطَبَقَتْ عَلَيَّ كَأَنَّهَا فَمٌ أَفْعَوَانُ!
لَوْ أَنَّهَا اعْتَصَرَتْ قِوَايَ!.

وَمَاتَ ظِلُّ الْأَرْجَوَانِ
فِي آخِرِ الْأَفَقِ الْبَعِيدِ، وَلَأَلَّتْ قَطْرَاتُ نُورٍ
مِمَّا تُبْعَثُهُ الْمَدِينَةُ وَهِيَ تَبْسُمُ فِي فَتُورٍ.
وَكَأَنَّمَا رَضِعَتْ مَصَابِيحَ الْمَدِينَةِ مُقْلَتَاهُ
فَسَرَتْ لَهِيئاً فِي دِمَائِهِ وَأَلْغَمَتْهَا بِالرَّغَابِ،
وَكَأَنَّهُنَّ، عَلَى الْمَدَى الْمَقْرُورِ، آلَافُ الشِّفَاهِ
تَدْعُوهُ ظُمَأً، لَاهِثَاتٍ.. مِثْلَ أَحْدَاقِ الذَّنَابِ: -
«مَا زِلْتُ تَحْتَرِقِينَ مِنْ فَرَحٍ، وَأَحْتَرَقُ انْتِظَاراً،
صُبِّي سَنَاكِ عَلَى التَّرَابِ

وَعَلَى الْكُؤُوسِ الْفَارَاغَاتِ: وَبِعَثْرِيهِ عَلَى كِتَابٍ
أَوْ بَيْنَ أَغْطِيَةِ الْمَوَائِدِ وَهِيَ تَنْتَظِرُ النَّهَارَ..
ظَلَّتْ تُعَابِثُهَا شِفَاهُ الرِّيحِ، وَانْصَرَفَ السَّكَارَى!
رَاحُوا إِلَيْهَا مُسْرِعِينَ - إِلَى الَّتِي ارْتَعَشَتْ قِيَاها
بَيْنَ التَّوَجُّعِ وَالذَّهْوَلِ، عَلَى يَدَيَّ وَفِي دِمَائِي.
لَيْلٌ وَأَعْقَبُهُ الصَّبَاحُ.. وَنَبَّأَنِي مُقْلَتَاهَا
أَنَا انْتِهِينَا.

يَا سَمَاءُ، وَيَا قُبُورُ.. أَمَا أَرَاهَا؟
«لَا بُدَّ مِنْ هَذَا!» - وَصَوَّبَ مُقْلَتِيهِ إِلَى السَّمَاءِ

حنقاً يُزمجر، ثمَّ أطرقَ وهو يحلم باللقاء:
بابٌ تفتَح في الظلام. وضحكةٌ. وشذىٌ ثَقِيلٌ..
ويدانٍ تجتذبان أغطيةَ السرير وتُرخيانِ
إحدى الستائر...

ثمَّ تنطفئان في الضوء الضئيل!
وتغيم أخيلةً وتجلَى - ثمَّ تبرز حلمتانِ...
ويُطلَّ وجهٌ شاحب القسَمات مُختلج الشفاه.
وتغيم أخيلةً وتُجلَى - ثمَّ تُفتح مقلتاها:
فيرى القبور،

ويرى المصابيح البعيدة كالمجامر في اتقاد،
ويرى الطريق إلى القبور

يكتظُّ بالأشباح زاحفةً إليه على أئناد،
فيصبح من فرح: «سألقاها، فإنَّ على الطريق
نعشاً... وإنَّ حفَّ النساءُ به وأملقَ حاملوه!
إنني سألقاها!» وينهض وهو يرفع باليمين
فانوسه الصدي العتيق...

يلقي سناه على الوجوه

وعلى الدثار القرمزي وفي عيون القادمين.
لو أنَّه اخترقَ الدثارَ بمقلتيه وبالضياء -
لو حدَّثَ التابوتُ عمَّن فيه... أو رفعتُ يداها
«أو هبَّةً للزعزع النكباء حاشيةَ الغطاءِ

تحت النجوم الساهمات...

لكاد ينكر من رآها!

ماتت كمن ماتوا، وواراها كما وارى سواها:
واسترجعت كفاء من يدها المحطمة الدفينه
ما كان أعطاها - وإن حملت يدُ امرأةٍ سواها
تلك النقود... بل البقايا من نفايات المدينة -
وتظل أنوار المدينة وهي تلمعُ من بعيد،
ويظلُّ حفّار القبورُ

ينأى عن القبر الجديد

متعثرَ الخطوات... يحلم باللقاء، وبالخمور!

الأسلحة والأطفال

(1)

عصافيرُ؟ أم صبيةٌ تمرُّحُ
عليها سنًا من غدٍ يُلمَحُ؟
وأقدامُها العاريةُ
محارٌّ يصلصل في ساقيةِ
لأذيالهم رَفَّةُ الشمالِ
سرت عبر حقل من السنبِلِ،
وهسهسة الخبز في يوم عيد،
وغمغمة الأم باسم الوليد
تناغيه في يومه الأوّل.

كأنّي أسمع خفق القلوع
وتصخاب بحارة السندباد:

رأى كنزه الضخم بين الضلوع
فما اختار إلاه كنزاً... وعادا!

صدىً عابرٌ من وراء العصور:
من الكهف، والغاب، والمعبد،
سرى دافئاً من عروق الصخور
ولازمِل نَحَاتِهَا المجهِد،
يغني بأشواقه العاتية
إلينا: إلى القمّة العالیه...
إلى أن يفلّ الردى بالحياه
وتلقاه أجيالها الآتیه
على صخرة حمّلتها يداه
تحاياه: في بسمة في الشفاه
وفي أعين حجّرت مقلّته
عليها دموعهما الجاریه.

صدىً رجّفته الأكفّ الصغار
يصفّقن في الشارع المشرق

كخفق الفراشات مرَّ النهار
عليها بفانوسه الأزرقِ

وكم من أبٍ آيٍ في المساء
إلى الدارِ من سعيه الباكرِ،
وقد زَمَّ من ناظريه العناء
وغشاهما بالدم الخاثر؛
تلقّاه، في الباب، طفل شرود
يكركر بالضحكة الصافية،
فتنهلُّ سمحاء ملء الوجود،
وتزرع آفاقه الداجية
نجوماً، وتنسيه عبء القيود.

وهُم في ليالي الشتاء الطوال
ربيع من الدفء والعافية،
تلُمُّ العجائز فيه الورود
ويلمحن عهد الصبا ثانيه،
ويرقصن بين التلال

يرجّحن أرجوحة في الخيال:
 بعذراء في ليلة مقمره
 وفي ظلّ تفاحة مزهره
 تنام العصافير فيها...
 وهم في الصباح
 خطى خافقات على السُّلَمِ،
 وأيدٍ على أوجه النُّومِ
 يدغدغنّها في مزاح!
 وأغنية من أغاني الطريق
 بلحنٍ سوى لحنها الأولِ
 وشأٍ من الصوت مستعجلِ.
 وهم رفقة الأم إذ تستفيق
 وإذ تشعل النار في الموقدِ
 كخيّط ترى فيه بدء الغد!

(2)

عصافير؟ أم صبية تمرّح؟
 أم الماء: من صخرة ينضجُ
 فيخضلّ عشبٌ وتندى زهور؟

زهورٌ ونور
 وقبرٌ تصدحُ
 وتفاحةٌ مزهره
 لخفق العصافير فيها
 صدى قبلة الأم تلقى بينها
 - «دعيني.. فما تلك بالقبره!
 دعيني أقل إنه البلبُلُ
 وإن الذي لاح ليس الصباح»⁽¹⁾
 أتلک السفین التي تُعولُ؟
 على مرفأ ناورحتہ الرياح؟
 تُلوخُ منها أكفُ الجنود
 لألف كـ «جوليت» فوق الرصيف:
 «وداعاً وداع الذي لا يعود!»
 وأمَّ كما استوحشتُ في الخريف
 وراء الدجى، دوحهٌ عاريه
 وفرت عصافيرها الشاديه!

(1) شكسبير: روميو وجوليت. (ش)

عصافير؟ أم صبية تمرحُ؟
 أم الماء من صخرة ينضح
 ولكن على جثّة دامية؟
 وقبرة تصدحُ ولكن على خربة باليه
 عصافير؟!!

بل صبية تمرح
 وأعمارها في يد الطاغية
 وألحانها الحلوة الصافية
 تغلغلَ فيها نداءً بعيد:
 «حديد عتد... يق

رصا... ص

حدي..د»

وكالظلّ من باشقٍ في الفضاء
 - إذا اجتاحت، كالمدينة الماضية،
 عصافير تشدو على راييه -
 ترامى إلى الصبية الأبرياء
 نداءً تنشّقتُ فيه الدماء
 «حديد عتيق...»

حديد عتيق!

رصا...ص» فحتى كأنّ الهواء

رصا ص، وحتى كأن الطريق

حديد عتيق.

وينقُصُ، كالمعول الحافر

صدى راعبٍ من خطى التاجر.

له الويلُ... ماذا يريد؟!!

«حديد عتيق

رصا..ص

حديد!«

لك الويل من تاجر أشأم

ومن خائضٍ في مسيل الدم

ومن جاهلٍ أن ما يشتريه

- لدرء الطوى والردى عن بنيه -

قبور يوارون فيها بنيه!

«حديد عتيق

رصا..ص

حديد..«

حديدٌ عتيقٌ لموتٍ جديد!

(3)

«حد...يد»

لمن كلّ هذا الحديد!

لقيد سيُلوى على معصم

ونصل على حَلْمة أو وريد

وقفل على الباب دون العبيد

وناعورة لاغتراف الدم

«رصاص..ص»

لمن كلّ هذا الرصاص؟

لأطفال كورّة البائسين

وعمال مرسيليا الجائعين

وأبناء بغداد والآخرين

إذا ما أرادوا الخلاص

حديد

رصاص

رصاص

رصاص!

«حديد...»

وأصغي إلى التاجرِ
وأصغي إلى الصبية الضاحكين
وكالنصل قبل انتباه الطعين
وكالبرق - ينفُضُ في خاطري
ستارٌ، وكالجرح إذ ينزفُ -
أرى الفوّهات التي تقصف
- تسدُّ المدى - واللظى والدماء
وينهلُّ كالغيث، ملء الفضاء
رصاص ونار... ووجه السماء
عبوسٌ لما اصطكَّ فيه الحديد..
حديد ونار، حديد ونار
وثُمَّ ارتطامٌ، وثُمَّ انفجار
ورعد قريب، ورعد بعيد
وأشلاء قتلى، وأنقاض دار!
حديد عتيق لغزو جديد

حديد... ليندك هذا الجدار

بما حَطَّ في جانبيه الصغار
وما استودعوا من أمان كبار:
«سلام»

كأنَّ السنا في الحروف
تخطَّى إليها ظلامَ الكهوف
بآمال إنسانها الأوَّلِ
وما اختطَّ من صورة في الحجار
تحدَّى بها الموت: فهي انتصار
وتَوَقُّ إلى العالم الأفضل!
«حديد»

رصا..ص

حديد عتيق

رصاص...» ليخلو هذا الطريق
من الضحكة الثرة الصافية
وخفق الخطى والهتاف الطروب
فمن يملأ الدار عند الغروب
بدفء الضحى واخضلال السهوب؟
لظى الحقد في مقلة الطاغية

ورمضاء أنفاسه الباقية
 يطوفان بالدار عند الغروب
 وأطلالها البالية!
 «حديد عتيق
 نحاس عتيق»
 وأصداء صفارة للحريق!

(4)

«حديد، حديد»
 وأمّ تبيع السرير العتيق
 تبيع الحديد الذي أمس كان
 مهاداً عليه التقى عاشقان
 وشدّ نداء الحياة العميق
 ذراعاً بأخرى، فما تخفقان!
 فيا حسرتا حين يمسي غدا
 شظايا تدوي وبعض المدي
 تُنَحَّى بها عن ذراع ذراع
 وينهدُّ مهذُّ، ويخبو شعاع!

أمن حيث كان التقاء الشفاه
على الحبّ: ينسجن خيط الحياه
يحوك الردى غزله الأسودا
دماً أو دخاناً؟ يحوك الردى
شباكاً من النار حول البيوت
على صبية أو صبايا تموت؟
وأرباب (وول ستريت) القساه⁽¹⁾
يحيلون حتى حديد السرير
جناحاً عليه المنايا تغير
وحتى الذي في عيون الدمى
من المعدن الزئبقى الحسير
رصاصاً أبغّ الصدى، مُرّزماً.

(5)

«حديد عتيق، حديد، حديد»
وأقدامها العاربه
محارّ يصلصل في ساقيه

(1) حذف هذا البيت في نسخة القصيدة طبعة «مجلة شعر»، وأبدلت كلمة «يحيلون» في البيت التالي بـ «ويرتد». (م)

ويعتاد بالي - كرعد بعيد -
 ضجيجُ الخطى وانهيار الصخور
 وخفقُ الفوانيس في المنجمِ
 وما نَضَّ من عاريات الظهور
 وما انسَحَّ في سَعْلَةٍ من دم!
 وملء السنا من غبار الحديد
 نواقيسُ فيها يرُنُّ السكون...
 وأجراس مركبةٍ من بعيد
 يخفُّ لها صبية يلعبون:
 نواقيس في الفجر، واليوم عيد
 وفي الماء أطلال جسر جديد
 وهمس النواعير، والزارعون
 وفي كلِّ حقل - كنبض الحياه -
 تهزُّ المحارِث قلبَ الثرى
 وتبنى القرى:
 قرى، طينُها من رميم الطغاه.
 وتخضِّلُ حتَّى الصخور الضئيلة
 ويثمر حتَّى سراب الفلاه

مدينه

فأخرى، فأخرى، إلى منتهاه!

«حديد... حديد!»

وأقدامها العاريه

وخفقُ الفوانيس في المنجم

وأعماقه الرطبة الداجيه

كظلّ الردى فاغراتُ الفم

كبثر من الظلمة الطاميه

ستمتاح منها ألوفُ القبور

ويهوي - مع الزعزعِ العاتيه -

عمى من دجاها على كلّ نور:

على النور من باب كوخ مضاء

ومن كوةٍ في خيام الرعاء

ومن شرفة ظلّها الياسمين

- «دعيني أقلّ إنه البلبُلُ

وإنّ الذي لاح ليس الصباح» -

على النور من موقد السامرين

ومن مدرج بالسنا يُغسلُ
على كلّ نور، تذرّ الرياح
ظلال الطواغيت في المنجمِ
كناعورة لاغتراف الدمِ.
تذرّ الرياح، الرياح، الرياح
أراجيح في الملعب المظلمِ
وخفق الفوانيس والأنجم
وخفق الخطى والأكفّ الصغار
وخفق الفراشات مرّ النهار
عليها بفانوسه المعتمِ
فمن يملأ الدار عند الغروب
بدفء الضحى واخضلال السهوب؟
رصاص، حديد، رصاص، حديد
وأهاتُ ثكلى، وطفلٌ شريد!

ومن يُفهمُ الأرض أن الصغار
يضيّقون بالحفرة الباردة⁽¹⁾؟

(1) إيذت سيتوبل في قصيدتها أمّ ترثي طفلها: «إنّ الأرض عجوز شاخت حتّى لا تعلم بأنّ الصغار حركون كظلال الربيع». (ش)

إذا استنزلوها وشطّ المزار
 فمن يتبع الغيمة الشارده؟
 ويلهو بلقط المحار؟
 ويعدو على ضفّة الجدول؟
 ويسطو على العشّ والبلبل؟
 ومن يتهجى - طوال النهار -
 ومن يلغ الرءاء، في المكتب؟
 ومن يرتمي فوق صدر الأب
 إذا عاد من كدّه المتعب؟
 ومن يؤنس الأمّ في كلّ دار؟
 أسيّ موجعٌ أن يموت الصغار
 أسيّ ذقتُ منه الدموع، الدموع
 أجاجاً ومثل اللظى في الفم
 وأحسست فيه اشتعال الدم
 بعينيّ، من نازفات الضلوع:
 عويلٌ من القرية النائبة
 وشيخ ينادي فتاه الغريق
 بهذا الطريق وذاك الطريق

ويسعى إلى الضفة الخالية

يسائل عنه المياه

ويصرخ بالنهر.. يدعو فتاه

ومصباحه الشاحب

يغني سدى زيتة الناضب:

«محال تراه!»

ويحنو على الصفحة القاتمه

يحدق في لهفة عارمة

فما صادفت مقلته

سوى وجهه المكفهر الحزين

ترجرجه رعشة في المياه

تغمغم: «لا، لن تراه!»

(6)

«حديد عتيق» ورعب جديد!

«حديد

رصا.. ص»

لأن الطغاه

مداها، وألا يحسَّ العبيد
 بأن الرغيف الذي يأكلون
 أمرٌ من العلقمِ
 وأن الشراب الذي يشربون
 أجاجٌ بطعم الدمِ
 وأن الحياة الحياة انعتاق
 وأن ينكروا ما تراه العيون:
 فلا بيدزُّ في سهول العراق
 ولا صبيةٌ في الضحى يلعبون
 ولا همسَ طاحونةٍ من بعيد
 ولا يطرق الباب ساعي البريد
 يبشري، ولا منزلُ
 يضيءُ الدجى منه نور وحيد
 سخيٌّ كما استضحك الجدولُ
 ولا هدهداتٌ، ولا جَلَجَلُ
 يرنُّ بساق الوليد
 وبين الربى في رقاب الجداء
 ولا وسوسَ الشاي فوق الصَّلاء

ولا قصةٌ في ليالي الشتاء
 لأنّ الطواغيت لا يسمعون
 صдах العصافير في المغربِ
 - كما صلصل الفضة القامرون -
 ولا زفة السنبِل المذهبِ
 لأنّ الطواغيت لا يحلمون
 بغير المبيعات والأسهم.
 وأن الطواغيت لا يسمعون
 سوى رنة الفلس والدرهم
 لأنّ الطواغيت لا يبصرون
 على الشاطئ الأسيوي البعيد
 سوى أنّ سوقاً يباع الحديد
 وتُستهلك الريح والنار فيها:
 تدرّ العطايا على فاتحيها.

(7)

بأقدام أطفالنا العاريه
 يميناً، وبالخبز والعافيه:
 إذا لم نعقرّ جباه الطغاه

على هذه الأرجل الحافيه
 وإن لم نذوّب رصاص الغزاه
 حروفاً هي الأنجم الهادية
 (فمنهن في كلّ دار كتاب
 ينادي: قفي واصدأي يا حراب)
 وإن لم نضوّ القرى الداجيه
 ولم نخرس القوّهات الغضاب
 ونُجِّل المغيرين عن آسيه..
 فلا ذكرتنا بغير السّباب
 أو اللعن أجيالنا الآتيه!

سلام على العالم الأرحبِ
 على الحقل، والدار، والمكتبِ،
 على معملٍ للدمى والنسيج،
 على العشّ والطائر الأزغبِ،
 على الثّوت وسنان فيه الأريج
 ووقع المجاذيف في المغربِ،
 على زهرة في وساد العروس،

على صبية في انتظار الأب،
 على شاعر تستحُّ الشمس
 بعينه، يصغي إلى جندب
 سلام على العالم الأرحب.
 سلام على (الكنج)⁽¹⁾ فاض النعيم
 ورنت أغاريد في ضفته:
 قرى من سنّا عاصرات عليه
 عناقيد من ضوئهنّ العظيم.
 سلام على الصين والحاصدين
 وصياد أسماكها الأسمر
 وما أنبتت من دم الثائرين
 وما افتّر في البيرق الأحمر
 على صبية في قراها البعاد
 وفي ظلّ تفاحها المزهر
 وما جرّرت في ليالي الحصاد
 ثياب العذارى على البيدر..

(1) وردت «الدون»، وهو نهْر روسي في طبعة دار «العودة» وكّراس مطبعة «الرابعة»، بينما وردت في طبعة مجلة «شعر» (الكنج) وهو نهْر هندي. (م)

سلام لأنّ الربيع
يمرُّ بودياننا كلّ عام،
وما زال قوس الغمام.
وأجدى على الأرض، من أن يبيع⁽¹⁾
طواغيت (وول ستريت) الحديد
عشيش جديد!
ولولا الذي كدّسوا من نضار
به يستضيئون دون النهار
تجوع الملايين عن جانبيه
وينحطُّ، في كلّ يوم، عليه
دمٌ من عروق الورى أو تُثار
كذّر الغبار -
لما هزّت الأمتّات المهود
على هوة من ظلام اللحد
ولم تذرف الدمع عبّر البحار
وعبر الصحارى، نساء الجنود
ولم يرفع الزارع الأشيبُ

(1) حُذِفَ هذا البيت، والبيتين التاليين له في طبعة مجلة «شعر». (م)

إلى مقلتيه، اليدَ الراجفه
 يحدّق في عتمة العاصفه
 ويصغي وفي روعه «القاصفه»
 ولم يبكِ صرعى بنيه الأبُ
 جزوعاً بأن يثكل الآخرين
 ولا شرّدت نومةَ العاشقين
 كوابيس من أعين الهالكين
 وأرنان صفّارة تنعّب:
 «وغى...» فاستفاقوا ولا كوكبُ
 ولا لمعةٌ من سراج تبين
 سوى قعقعات السلاح
 وعصف الرياح
 ولا ساءل الأمّ طفلٌ غرير.
 «ألا بلدةٌ ليس فيها سماء؟»
 - فلا قاذفات المنايا تغيّر
 ولا من شظايا تسد الفضاء -
 ولم تحصّدِ النارُ حيَّ الزوج
 ولا مَجَّ فيه الرصيفُ الدماء

ولا اجتاحه المجرمون العلوج
 بما جرروا من غلاظ الحبالِ
 وما صفدوا من رقاب الرجالِ
 ولا أن مرضى بطاء الليالي
 واختَصَّ في الصرصر اللاجئون
 ولألاء (يافا) تراه العيون
 وقد حال من دونه الغاصبون
 بما أشرعوا من عطاش الحراب
 وما استأجروا من شهود كذاب
 وما صفّحوا بالردى من حصون
 سلامٌ على العالم الأرحب
 على مشرق منه أو مغرب
 سلامٌ لآفون⁽¹⁾ رَوَّى عروق
 شكسبيرَ والزهر والدالية.
 أفقُ شاعرِ النور، إنَّ الشروق
 تهدّده غيمة داجيه
 سعى «مكبث»⁽²⁾ تحتها في احتراس

(1) آفون: نهر في بريطانيا، يمرُّ بقرية شكسبير. (ش)

(2) مكبث: بطل إحدى مسرحيات شكسبير وقد قتل «دنكان» وهو نائم في ضيافته مطمئن إليه: «لقد قتل مكبث النعاس، النعاس البريء» شكسبير. (ش).

لقتل النعاس...
 لقتل النعاس البريء...
 سلام لباريس «روبسيير»⁽¹⁾
 «والوار» والغابة الحالمه
 وعشاقها في المساء الأخير
 تذرّيهُم قوة ظالمه
 كدّوأمة من رياح السعير.
 على «تونسي» من لظاها ظلال
 وحول «الرباط»⁽²⁾ المدمّى هدير
 وفي جيرة الصين حلّ انخزال
 بقطعانها الفضة الضاريه.
 لك المجد يا آسيه!
 سلام لفينيس⁽³⁾ والكرنفال
 وأضوائه الثرة الزاهيه
 وهمس المحبين بين الظلال
 وفي دفء قمرائه الضاحيه.

(1) روبسيير: بطل الثورة الفرنسية والوار: الشاعر الفرنسي الحر العظيم. (ش).

(2) الرباط: مدينة في مراكش. (ش)

(3) فينيس: مدينة البندقية بإيطاليا. (ش)

سلامٌ على المسيحي الكبير⁽¹⁾
وما طاف من أغنيات الزنوج
بشطّيه وانسابَ عبر المروج
هناك استقلّ الضياء الأسير
إلهُ الوغى، مركباً للدمار
يرشُّ الجراثيم، حيث استدار
بأعجاله القادحات الشرار
ويُدمي الشيوخ، ويضلي الصغار
شأيب نار
وما شاء من زعزعِ عاتيه
تبيدُ الملايين في ثانيه.

(8)

عصافير؟ أم صبية تمرح؟
أم الماء من صخرة ينضح؟
وأقدامها العاريه
مصاييح ملء الدجى تُلمَحُ

(1) حذف هذا المقطع كاملاً من «سلامٌ على المسيحي الكبير» إلى «تبيد الملايين في ثانيه» في طبعة مجلة «شعر» عام 1960.

هتكنا بها مكنن الطاغية
 وظلماء أوجاره الباليه.
 علينا لها: آتتها الباقية
 وأنّ الدواليبَ في كلّ عيد
 سترقى بها الرّيح.. جذلى تدور!
 ونرقى بها من ظلام العصور
 إلى عالمٍ كلّ ما فيه نور
 فقد لاح فجرٌ انطلاق العبيد⁽¹⁾
 وأنا رفعنا لواء السلام
 رفعناه.. فليخسأنّ الظلام!

«رصاص، رصاص، رصاص،
 حديد، حديد عتيق»...
 لكونٍ جديد!

(1) حذف هذا البيت والبيتين التاليين له في طبعة مجلة «شعر» (1960). (م)

المَعْبَدُ الغَرِيقُ
(1962)

إشارة

هذا الديوان نسخة طبق الأصل عن الطبعة الأولى لديوان «المعبد الغريقي» الصادر عن دار «العلم للملأين»، بيروت (1962)، مع ضبط النصوص ومطابقة مع المتوفر من أصول القصائد وما نشر منه في الصحف والمجلات، فضلاً عن طبعات الدور الأخرى، وقد أجريتُ تشبيهاً لبعض الملاحظات التحريرية والاختلافات الجديرة بالتوثيق يجدها القارئ في هوامش مرفقة مع كلِّ حالة.

المحقق

شَبَّاكُ وفِيقَة

(1)

شَبَّاكُ وفِيقَة في القرية
 نشوانُ يُطلّ على الساحة
 (كجليل تنتظر المشيه
 ويسوع) وينشر ألواحَه -
 إيكار يمسخ بالشمس
 ريشات النسر وينطلقُ،
 إيكار تلقفه الأفق
 ورماء إلى اللجج الرمس -
 شَبَّاكُ وفِيقَة يا شجره
 تتنفس في الغبش الصاحي
 الأعين عندك منتظره

تترقّب زهرة تفاح،
وبُوب نشيدُ
والريّح تُعيدُ
أنغام الماء على السَّعَفِ
ووفيقَةٌ تنظر في أسف
من قاع القبر وتنتظر:
سيمرّ فيهمسه النّهرُ
ظلاًّ يتماوج كالجرسٍ
في ضحوة عيد،
ويهفّ كحبات النّفسِ.
والريّح تُعيدُ
أنغام الماء (هو المَطَرُ)
والشمس تكرر في السَّعَفِ.
شباك يضحك في الألقِ؟
أم باب يُفتح في السورِ
فتفر بأجنحة العبق
روح تتلهف للنور؟
يا صخرة معراج القلب

يا «صور» الألفة والحبُّ
يا درباً يصعد للرب
لولاك لما ضحكْتُ للأنسام القريه،
في الريح عبير
من طوق النهر يهدهدنا ويغنيّنا
(عوليس⁽¹⁾ مع الأمواج يسير
والريح تذكره بجزائر منسيّه:
«شبنّا يا ريح فخلّينا»)

العالم يفتح شبّاكه
من ذاك الشباك الأزرق،
يتوحد، يجعل أشواكه
أزهاراً في دعة تعبق.

شباكٌ مثلك في لبنان،
شباكٌ مثلك في الهند،
وفتاة تحلم في اليابان

(1) هو لوديسيوس بطل «الأوديسة». (ش)

كوفيفة تحلم في اللّحدِ
بالبرق الأخضر والرّعدِ.

شباكُ وفيفة في القرية
نشوانٌ يُطلّ على الساحة
(كجليل تحلم بالمشيه
ويسوع).
ويُحرق ألواحهُ

شباك وفيقة

(2)

أطلّي فشباكك الأزرقُ

سماء تجوع،

تبَيِّتُهُ من خلال الدموع

كأنّي بيّ ارتَجَفَ الزورق.

إذا انشَقَّ عن وجهك الأسمر

كما انشَقَّ عن عشتروت المحار

وسارت من الرغو في مئزر

ففي الشاطئين اخضرار

وفي المرفأ المغلِقِ

تصَلِّي البحار.

كأنّي طائر بحرٍ غريب

طوى البحر عند المغيب

وطاف بشباكك الأزرق
يريد التجاءً إليه
من الليل يربدّ عن جانبيه
فلم تفتحي.⁽¹⁾
ولو كان ما بيننا محض باب
لألقيتُ نفسي لديك
وحدقت في ناظريك.
هو الموت والعالم الأسفلُ
هو المستحيل الذي يُذهل.
تمثلت عينيك يا حفرتين
تطلان سخرًا على العالم
على ضفة الموت بوابتين
تلوحان للقادم.
وشباكك الأزرقُ
على ظلمة مطبق،

(1) حذف السيّاب نصف البيت الشعري هذا وثلاثة أبيات تليه، وقد وجدتُ النص المحذوف في رسالة أرسلها الشاعر إلى يوسف الخال بتاريخ 10 نيسان 1961، والأبيات المحذوفة هي: «فلم تفتحي. آه لو تفتحين/ ولو كنت، من رحمة، تنظرين/ وهيهات أن تنظري والتراب/ مهيل على مقلتيك». (م)

تبدى كحبل يشدّ الحياه
 إلى الموت كيلا تموت.
 شفاهك عندي ألد الشفاه
 وبيتك عندي أحب البيوت
 وماضيك من حاضري أجمل:
 هو المستحيل الذي يُذهل:
 هو الكامل المنتهي لا يريد
 ولا يُشتهي أنه الأكمل،
 ففي خاطري منه ظلّ مديد
 وفي حاضري منه مستقبل.

تُرى جاءك الطائرُ الزنبقيّ
 فحلقت في ذات فجر معه
 وألقى نعاس الصباح النقيّ
 على حسك المشتكي برُقعَه؟
 وفتحت عينيك عند الأصيل
 على مدرج أخضر
 وكان انكسار الشعاع الدليل

إلى التل والمنزل المرمر.
 هناك المساء اخضرارٌ نحيل
 من التوت والظل والساقية
 وفي الباب مدّ الأمير الجميل
 ذراعيه يستقبل الآتيه:
 «أميرتي الغالية

لقد طال منذ الشتاء انتظاري
 ففيم التآني وفيم الصدود؟»

وهيهات أن ترجعي من سفار
 وهل ميّت من سفار يعود؟

جيكور 1961/4/29

حدائقُ وفيقة⁽¹⁾

1

لوفيقه

في ظلام العالم السفلي حقلُ

فيه ممّا يزرع الموتى حديقته

يلتقي في جوها صبح وليلُ

وخيال وحقيقته

تنعس الأنهار فيها وهي تجري

مثقلات بالظلال

كسلال من ثمار، كدوال

سُرّحت دون حبال

كلّ نهر

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الأديب» عدد (تشرين الأول) 1961، ثمّ نشرت لاحقاً في ديوان «المعبد الغريق» 1962، بعد حذف مقطعين منها، ونشرُ هنا النص الكامل مع توضيح تعديلات الشاعر. (م)

شرفة خضراء في دنيا سحيقه
ووفيقه

تتمطى في سرير من شعاع القمر
زنبقيُّ أخضر،

في شحوب داعم، فيه ابتسام
مثل أفق من ضياء وظلام
وخيال وحقيقه

أي عطر من عطور الثلج وان
صعدته الشفتان
بين أفياء الحديقه
يا ووفيقه؟

تخالها تلوح في القرار⁽¹⁾
من جدول أحاله النهار
صدى من المياها مقمرا.
كأن عشروت آخى فوقها الحجار

(1) حذف السيّاب هذا البيت والأبيات الخمسة التي تليه، بمعنى حذف المقطع كاملاً. (م)

صفائحاً من الزجاج، أصبح الثرى
ذراً من الضياء والغبار

2

والحمام الأسود
يا له شلال نور منطفي!
يا له نهر ثمار مثلها لم يُقطف!
يا له نافورة من قبر تموز المدمى تصعدُ
والأزاهير الطوال، الشاحبات، الناعسه
في فتور عصرت إفريقيا فيه شذاها
ونداها

تعزف النايات في أظلالها السكرى عذارى لا نراها
روحاً عنها غصون هامسه
ووفيقه

لم تزل تثقل جيکور رؤاها
آه لو روى نخيلات الحديقه
من بويب كركرات! لو سقاها
منه ماء المد في صبح الخريف!

لم نزل ترقب باباً عند أطراف الحديقه
 ترهف السمع إلى كلّ حفيف!
 ويحها... ترجو ولا ترجو وتبكيها منها
 لو أتاها...!

لو أطال المكث في دنياه عاماً بعد عامٍ
 دون أن يهبط في سلّم ثلج وظلام!

هناك حين يهبط الموت في سكون⁽¹⁾

يسمّر العيون

على شمس تنشر الظلام

هناك يستنيم، في محفّة الغصون

شذى إذا تنشقته روح ميّت غفا

له، ونام

شعوره القديم واستراح للقتام

3

ووفيقه

تبعث الأشضاء في أعماقها ذكرى طويله

(1) حذف السيّاب هذا البيت والبيت الآيات الست التالية له، أي حذف المقطع كاملاً. (م)

لعشيش بين أوراق الخميلة
 فيه من بيضاته الزرق اتقاد أخضر
 (أي أمواج من الذكرى رفيقه)⁽¹⁾
 كلما رفّ جناح أسمر
 فوقها والتم صدر لامعات فيه ريشات جميله
 أشعل الجوَّ الخريفيَّ الحنانُ
 واستعاد الضمة الأولى وحواء الزمانُ
 تسأل الأموات من جيکور عن أخبارها
 عن ربها الرُّبد، عن أنهارها
 آه والموتى صموت كالظلام
 أعرضوا عنها ومروا في سلام
 وهي كالبرعم تلتف على أسرارها
 والحديقه
 سقسق الليل عليها في اكتئاب
 مثل نافورة عطر وشراب
 وخیال وحقيقه

(1) البيت لي وليس مضمناً. (ش)

بين نهديك ارتعاش يا وفيقه
فيه بَرْدُ الموت باك
واشرأبت شفتاكِ
تهمسان العطر في ليل الحديقه

1961/8/12

أُمُّ الْبُرُومِ

(المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيتُ قوافلَ الأحياءِ ترحلُ عن مغانيها
تطاردها، وراءَ الليلِ، أشباحُ الفوانيسِ
سمعتُ نسيجَ باكيها،
وصرخةَ طفلها، وثغاءَ صائدٍ من مواشيها،
وفي وهجِ الظهيرة صارخاً «يا حاديَ العيسِ»
على أَلَمٍ مغنيها.
ولكن لم أرَ الأمواتِ يطردهنَّ حقارُ
من الحفرِ العتاقِ وينزع الأكفان عنها أو يغطيها -
ولكن لم أرَ الأمواتِ، قبل ثراكِ، يُجلبِها
مجنونُ مدينةٍ، وغناء راقصةٍ، وخمَّارُ.

يقول رفيقي السكران: «دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر، تحضن الأحياء، تسقينا

شراباً من حداثق برسفون⁽¹⁾، تعلّنا حتّى
 تدور جماجمُ الأموات من سُكّر مشى فينا!
 مدينتنا منازلها رحيّ ودروبها نارُ،
 لها من لحمنا المعروك خبزٌ، فهو يكفيها...
 علام تمدّ للأموات أيديها، وتختارُ،
 تلوك ضلوعها وتقيئها للريح تسفيها؟!
 تسلّل ظلّها الناريّ من سجنٍ ومستشفى
 ومن مبعى ومن خمارة... من كلّ ما فيها،
 وسار على سلالم نومنا زحفا
 ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيكيها.
 وكانت، إذ يُطلّ الفجر، تأتيك العصافيرُ
 تساقطُ، كالثمار على القبور، تنقر الصمتا
 فتحلم أعين الموتى
 بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النورُ،
 وتسمع ضجّة الأطفال أم ثلاثة ضاعوا
 يتامى في رحاب الأرض: إن عطشوا وإن جاعوا

(1) ابنة آلهة الخصب اليونانية، اختطفها «بلوتو» سيد العالم السفلي، عالم الموتى، فصارت تعيش معه هناك. (ش)

فلا ساقٍ ولا من مُطعمٍ، في الكوخ ظلّوا واعتلى النعشُ
 رؤوسَ القوم والأكتاف... أفندةٌ وأسماعُ
 ولا عينٌ ترى الأمّ التي منها خلا العشّ.

وفي الليلِ

إذا ما ذرذر الأنوارَ في أيدٍ من الظلمه،
 ودبّت طفلة الكفين، عارية الخطى، نسمة
 تلثم من المدينة، كالمحار وكالحصى من شاطئِ رملٍ،
 نثار غنائها وبكائها - لم تترك العتمه
 سوى زَبَدٍ من الأضواء منشور
 يذوب على القبور، كأنه اللبنة في سورِ
 يباعد عالم الأموات عن دنيا من الذلّ،
 من الأغلال، والبوقات، والآهات، والزُحمه.
 وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموتِ
 تقلّع أعينَ الأموات ثمّ تدسّ في الحفرِ
 بذور شقائق النعمان، تزرع حبة الصمّتِ
 لتثمر بالرنين من النقود، وضجّة السفر،
 وقهقهة البغايا والسكرارى في ملاهيها.

وعَصَّرت الدفين من النهود بكلِ أيديها
تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمُرِ
وتركلهن كالأكُر
تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها
وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجدِ
وعاد الحب ملمس دودة وأنين إعصار،
تشاءبت المدينة عن هوى كتوقد النارِ
تموت بحرّها ورمادها ودخانها الهاري،
ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابة
تردها المقاهي: «ذلك الدّلال جاء يريد أتعابه»
إذا سمعوك رنّ كأنه الجرس الجديد يرن في السحرِ
صدى من غمغمات الريف حول مواقد السمر:
«إذا ما هزت الأنسام مهد السنبِل الغافي
وسال أنين مجذافٍ
كأن الزورق الأسيان منه يسيلُ في حُلُم،
عصرتُ يديّ من أَلَم».
فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو
ببنت هوى. وأين موائد الخمّار من سهل يمد موائد القَمَر؟

على أمواتك المتناثرين بكلّ مُنَحَدَرٍ
 سلامٌ جالٍ فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ،
 على المتبدلات لحودُهُنَّ والغادياتِ قبورُهُنَّ طُرُقًا
 وطيبُ رقادهم أَرْقًا
 يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلات في الدربِ
 ويرقب مَوْعدَ الربِّ.

1961/7/21

أمام باب الله

منظر حاً أمام بابك الكبير
 أصرخُ، في الظلام، أستجيرُ:
 يا راعي النمال في الرمال
 وسامع الحصاة في قرارة الغدير.
 أصبح كالرعود في مغاور الجبال
 كآهة الهجير.
 أسمع النداء؟ يا بوركّت، تسمعُ.
 وهل تجيب إن سمعتَ؟
 صائدُ الرجال
 وساحقُ النساء أنتَ، يا مفجّعُ
 يا مهلك العباد بالرجوم والزلازلِ
 يا موحش المنازل
 منظر حاً أمام بابك الكبير
 أحسّ بانكسار الظنون في الضمير.

أثور؟ أغضبُ؟

وهل يثورُ في حماك مذنبُ

لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ:

الهرّيُّ بالغلal يزحم الظلام في مداه،

وحقليّ الحصيد نام في ضحاه

نفضتُ من ترابه يديّ.

ليأت في الغداه

سواي زارعون أو سواي حاصدون!

لتنثر القبورِ والسنبالِ السنون!

أريد أن أعيش في سلام:

كشمعة تذوب في الظلام

بدمعة أموت وابتسام

تعبتُ من توقُّد الهجير

أصارع العباب فيه والضمير،

ومن لياليّ مع النخيل، والسراج، والظنون

أتابع القوافي

في ظلمة البحار والفيافي

وفي متاهة الشكوك والجنون،
 تعبت من صراعي الكبير
 أشق قلبي أطعم الفقير،
 أضيء كوخه بشمعة العيون،
 أكسوه بالبيارق القديمة
 تنثُّ من رائحة الهزيمة.
 تعبت من ربيعي الأخير
 أراه في اللقاح والأقاح والورود،
 أراه في كل ربيع يعبر الحدود.
 تعبْتُ من تصنّع الحياه
 أعيش بالأمس، وأدعو أمسي الغدا.
 كأني ممثل من عالم الردى
 تصطاده الأقدار من دجاء
 وتوقد الشموع في مسرحه الكبير،
 يضحك للفجر وملء قلبه الهجير،
 تعبت كالطفل إذا أتعبه بكاه!

أودّ لو أنام في حماك

دثاري الآثام والخطايا
 ومهديّ اختلاجة البغايا
 تأنف أن تمسّني يداك.
 أود لو أراك... من يراك؟
 أسعى إلى سدّتك الكبيره
 في موكب الخطاة والمعذبين،
 صارخة أصواتنا الكسيرة
 خناجراً تمزّق الهواء بالأنين:
 «وجوهنا اللياب
 كأنها ما يرسم الأطفال في التراب،
 لم تعرف الجمال والوسامه.
 تقصّت الطفولة. انطفأ سنا الشباب
 وذاب كالغمامه،
 ونحن نحمل الوجوه ذاتها،
 لا تلفت العيون إذ تلوح للعيون
 ولا تشفّ عن نفوسنا، وليس تعكس التفاتها.
 إليك يا مفجّر الجمال، تائهون
 نحن، نهيم في حدائق الوجوه. آه

من عالم يرى زنايق الماء على المياه
ولا يرى المحار في القرار
واللؤلؤ الفريد في المحار!

منطرحاً أصبح، أنهش الحجار:
«أريد أن أموت يا إله»!

1961/8/26

الغيمةُ الغريبة

المومس الأجيّة الحقيرة

أكثر من حبيتي سخاء

أتيتُها مساء

معانقاً... أعانق الهواء

هَبَّ من القطب على الظهيره،

مقبلاً عيونها الخواء،

كأنني كيشوت في الأصل

يركض خلف ظله الطويل

ويطعن السنابل الكسيرة

يظنها الأعداء.

ضممتُ منها جثةً بيضاء

تكفنت من داخلٍ، وقبرها

في جوفها تناءى.

حملت منها صخرة صماء

تشدني إلى الثرى،

أرفعها لتلثم الجوزاء،
 الحب أن تبذل، أن تنال ما تريدُ
 كالنبع إذ يدفع، لا كالبئر،
 كالنار تطوي نحوك السماء
 لا شرر الزناد.
 أستزيدُ
 فألتقي دمي، كغيمة تعيد نفسها للبحر.
 أعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجله
 بأن ماءها سيستحيل غيمة إليها مقبله،
 تبذله في الفجر
 وتلتقي به قبيل العصر؟
 أريد أن أضمّ، أن أقبلَ الدم الذي ينبض في الشفاه
 كأنما القلب الذي يُقبّل.
 الجسد الموات لا يحس شهقة الإله
 تغور كالمدينة حين تقتل
 فتبعث الحياة في القتلِ.
 أريد أن أحرق كالغريق من أخيل⁽¹⁾:

(1) أحرقت أم أخيل، حورية البحر، طفلها أخيل لتحصنه ضد الموت.. إلا كعب رجله. (ش)

في القلب واليدين والكعبين
ويأكل النار لظى في عيني.
لو كان ما تحسه الحبيبه
الألم، الدُّوار... لا الخواء
ما كنت مثل غيمه غريبه
ترعد حتَّى تشعل الهواء
رعداً
وتأبى الأرض أن تجيبه!

البصرة 1961/12/22

دَارُ جَدِّي

مطفأةٌ هي النوافذ الكثائرُ
 وبابُ جَدِّي مُوصَدٌّ وبيتهُ انتظارُ
 وأطرقُ البابَ، فمن يُجيبُ، يفتحُ؟
 تُجيبني الطفولةُ، الشبابُ منذ صارُ،
 تُجيبني الجِرارُ جَفَّ ماؤها، فليس تَنضَحُ:
 «بُويَبُ»، غيرَ أنها تذرذِرُ الغبارَ.
 مطفأةٌ هي الشُّمُوسُ فيه والنجومُ.
 الحقبُ الثلاثُ منذ أن خفقتُ للحياة.
 في بيتِ جَدِّي، ازدحمتُ فيه - كالغيومِ
 تُختَصِرُ البحارُ في حدودِ دهنٍ والمياهِ.
 فنحن لا نُلمُّ بالردى من القبورِ،
 فأوجهُ العجائزِ
 أفصحُ في الحديثِ عن مناجلِ العصورِ
 من القبورِ فيه والجنائزِ.

وحين تقفر البيوت من بُناتها
وساكنيها، من أغانيها ومن شكاتها
نحس كيف يسحق الزمانُ إذ يدورُ.

أأشتهيك يا حجارة الجدار، يا بلاط، يا حديد، يا طلاء؟
أأشتهي التقاء كُنْ مثلما انتهى إليّ فيه؟
أم الصِّبا، صبايَ والطفولة اللعوبَ والهناء؟
وهل بكيْتُ أن تَضَعَضَ البناءُ
وأقفر الفناء أم بكيْتُ ساكنيه؟
أم أنني رأيتُ في خرابك الفناء
محدّقاً إليّ مِنْكَ، من دمي،
مكشّراً من الحجار؟ آه، أيُّ برعم
يُربُّ فيك؟ برعمُ الردى!! غداً أموتُ
ولن يظلّ من قواي ما يظلّ من خرائب البيوت:
لا أنشق الضياء، لا أعضضُ الهواء،
لا أعصر النهار، أو يمضني المساء.

كَأَنَّ مَقْلَتِيَّ، بَلْ كَأَنَّنِي انْبَعَثْتُ (أورفيوس)⁽¹⁾

تَمَصَّهُ الخَرائبُ الهوى إلى الجحيم،

فيلتقي بمقَلَّتِيهِ، يلتقي بها، بيورديس:

«آه يا عروس

يا توأم الشباب، يا زنبقة النعيم»!.

طريقه ابتناه بالحنين والغناء:

براعمُ الخلود فتحت له مغالِقَ الفناء.

وبالغناء، يا صباي، يا عظام، يا رميم،

كَسَوْتُكَ الرُّواءَ والضياء.

طفولتي، صباي، أين... أين كُلُّ ذاك؟

أين حياةٌ لا يَحْدُ من طريقها الطويل سورُ

كَشَّرَ عن بَوَابَةِ كَأَعين الشباب،

تُفَضِّي إلى القبور؟

والكون بالحياة ينبضُ: المياه والصخور

وذرةُ الغبار والنمال والحديد.

(1) موسيقار يوناني ماتت زوجته «يوريدس» ليلة زفافها فتبعها إلى الجحيم، مستعيناً، على دخوله موسيقاه. (ش)

وكل لحني، كل موسم، جديد:
 الحرث والبذر والزهور.
 وكل ضاحك فمن فؤاده، وكل ناطق فمن فؤاده
 وكل نائح فمن فؤاده. والأرض لا تدور
 والشمس، إذ تغيب، تستريح كالصغير في رقاده.
 والمرء لا يموت إن لم يفترسه في الظلام ذيبٌ
 أو يختطفه ماردٌ، والمرء لا يشيبُ
 (فهكذا الشيوخ منذ يولدون
 الشعر الأبيض والعصي والذقون).

وفي ليالي الصيف حين ينعس القمرُ
 وتذبل النجوم في أوائل السحر،
 أفيق أجمع الندى من الشجر
 في قدح ليقتل السعال والهزال.
 وفي المساء كنتُ أستحمّ بالنجوم،
 عيناى تلقطانهنّ نجمةً فنجمةً، وأركبُ الهلال
 سفينةً... كأنّ سنبداً في ارتحال:
 شراعي الغيوم

ومرفني المُحال.

وأبصرُ الله على هيئةِ نخلةٍ، كتاجِ نخلةٍ يبيّضُ في الظلامِ،

أحسُّه يقول: «يا بُنَيَّ، يا غلامِ،

وهبتُكَ الحياةَ والحنانَ. والنجومُ

وهبتها لمقلتيك، والمطرُ

للقدمين الغضّتين. فاشربِ الحياةَ

وعُبّها، يُحبُّكَ الإلهُ».

أهكذا السنون تذهبُ

أهكذا الحياة تنضبُ؟

أحسُّ أنني أذوبُ، أتعبُ،

أموت كالشجرِ.

حنينٌ في روما

يتشاءب جسمك في خلدي
 فتُجنّ عروقُ،
 عريان تزلّق في أبدٍ
 تُنهيهِ الرعشة، فهي شروق
 في ليل الشهوة. كلّ دمي
 يتحرق، يلهث، ينفجر،
 ويقبلُ ثغرك ألفَ فمٍ
 في جسمي تُنبئُها سَقَرُ
 وأحنّ، أتوق.

وأحس عبيرك في نفسي
 ينهدّ، يدندن كالجرسٍ

ووليمةُ جسمك يا واهّا

ما أشهاها!!

يا فجر الصيف إذا بردا
يا دفء شتائي، يا قبلاً أتمناها
أحيا منها، وأموت بها وأضمّ الأمس
أمسّ غدا

وتعود اللحظة لي أبدا.
ما أناى بيتك، ما أناى عينيك
بحار،

وجبالُ دم: رَمَنُ جمدا
ليعود مدى. وأجنُّ، أثار

فأحسّ عبيرك في نَفْسي
ينهد، يدندن كالجرسِ

ما أسعدها، ما أشقاها؟!

أرضي، آسيّة العريانه
أنا في روما أبكيها وأعيش بذاكرها
ألأنك فيها أهواها؟

من جوع صغارك يا وطني، أشبعت الغرب وغربانه.
صحراء من الدم تعوي، ترجف مقروره
ومرابط خيل مهجوره
ومنازل تلهث أواها
ومقابر ينشج موتاها.
وأحسّ عبيرك في نفسي
ينهدّ، يدندن كالجرس
لو شئت لطيفك أوربا
وطناً، لحملتُ معي زادي
وعبرتُ مرافئها، وطويتُ شوارعها درباً دربا
أسقيه الشمس وأطعمه قُبلاً وبراعم أوراد.
لكنك أثبتُ في الشرق...
سأعود فأقطع سلّمنا وثبا
لأضمّك يا أبد الشوق

يا نور المرفأ يهدي القلب إذا تاهها
يا قصة عتترَ إذ تروى حول التَّنُور فأحياها
سأحسَّ عبيرك في نَفسي
ينثال ويقرُع كالجرسِ

روما 19/10/1961

الأمّ والطفلة الضائعة

قفي، لا تغربي، يا شمس، ما يأتي مع الليلِ
سوى الموتى. فمن ذا يرجع الغائب للأهلِ
إذا ما سدّت الظلماء

دروباً أثمرت بالبيت بعد تطاول المَحَلِّ؟
وإن الليل ترجفُ أكبدُ الأطفالِ من أشباحه السوداء
من الشهب اللوامح فيه، ممّا لاذ بالظلِّ
من الهمساتِ والأصداء.

شعاعك مثل خيط اللابرنت، يشدّه الحبُّ
إلى قلب ابنتي من باب داري، من جراحاتي
وأهاتي.

مضى أرلُ من الأعوام: آلاف من الأقمار، والقلبُ
يعدّ خوافقَ الأنسام، يحسب أنجم الليل،
يعدّ حقائبَ الأطفال، يبكي كلما عادوا
من الكتّاب والحقل.

ويا مصباح قلبي، يا عزائي في الملمات،
 مُنى روعي، ابنتي: عودي إليّ فيها هو الزادُ
 وهذا الماء. جوعى؟ هالكٌ من لحمي
 طعاماً. آه!! عطشى أنت يا أمي؟
 فعبّتي من دمي ماء وعودي... كلهم عادوا.
 كأنك برسفون تخطّفتها قبضة الوحش
 وكانت أمها الولهى أقل ضنى وأوهاما
 من الأم التي لم تدر أين مضيت

في نعش؟

على جبل؟ بكيت؟ ضحكت؟ هبّ الوحش أم ناما؟
 وحين تموت نار الليل، حين يُعسّس الوسنُ
 على الأجفان، حين يفتش القصاص في النار
 ليلمح من سفينة سندباد ذوائب الصاري
 ويُخفت صوته الوهنُ،
 يجنُّ دمي إليك، يحنُّ، يعصرني أسى صار.
 مضت عشرٌ من السنوات، عشرة أدهرٍ سود
 مضى أزلٌ من السنوات، منذ وقفتُ في الباب
 أنادي، لا يردُّ عليّ إلاّ الريح في الغاب

تمزقُ صيحتي وتعيدها... والدربُ مسدودُ

بما تتنفس الظلماء من سُمِّ وأعنانِ

وأنتِ كما يذوب النور في دوامة الليل،

كأنك قطرة الطلّ

تشرّبها التراب... أكادُ من فَرَقٍ وأوصابِ

أسائل كلّ ما في الليل من شبحٍ ومن ظل،

أسائل كلّ ما طفلٍ:

«أبصرت ابنتي؟ أرايتها؟ أسمعتَ ممشاها؟»

وحين أسيرُ في الزحمة

أصغرُ كلّ وجه في خيالي: كان جفناها

كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمه،

وكان جبينها... وأراكِ في أبدٍ من الناسِ

مورّعةً فأه لو أراكِ وأنتِ ملتّمه!

وأنتِ الآن في سَحَر الشباب، عصيره القاسي

يغلغلُ في عروقك، ينهش النهدين والثغرا

وينشرُ حولك العطر،

فيحلم قلبك المسكين بين النور والعمته

بشيء لو تجسدَ كان فيه الموت والنشوه!

وأذكرُ أنَّ هذا العالم المنكود تملأ كآسَه الشقوه
 وفيه الجوع والآلام، فيه الفقر والداء.
 أنت فقيرة تتضرعُ الأجيال في عينيك، فهي فمٌ
 يُريد الزاد، يبحثُ عنه والطرقاات ظلماء؟
 أحذقُ في وجوه السائلات أحوالها السقمُ
 ولونها الطوى، فأراكِ فيها، أبصر الأيدي
 تُمد، أحسَّ أن يدي.. يدي معهن تعرض زرقه البرد
 على الأبصار وهي كأنهن أدارها صنمٌ
 تجمّد في مدى عينيه أدعيةٌ وسال دم
 فأصرخ «في سبيل الله» تخنق صوتي الدمعه
 بخيط الملح والماء.
 وأنتِ على فمي لوعه
 وفي قلبي، وضوء شع ثمّ خبا بلا رجعه
 وخلفني أفتش عنه بين دُجى وأصداءٍ

النبوءةُ الزائفةُ

وكانت تجمَعُ في خاطري

خيوطُ ضبابيةٍ قاتمة

نهاياتها في المدى عائمة

وأعراقها السود في ناظري.

ودارت خيوطٌ ولُفَّتْ سواها

فعانقنَ أفقا

ووسوسنَ غيماً على الريح مُلقى

تجمَعُ من كلِّ صوب، ورعداً وبرقا:

لقد أغضب الآثمون الإلهـا

وحقَّ العقاب!

يا أفراسَ الله استبقي

يا خيلاً من نارٍ وسحاب،

من وقع سنابكك الرعدُ

والبرق الأزرق في الأفق

وصهيلك صور لظى وعذاب،
 الوعد!! لقد أزعج الوعد.
 فيا قبضة الله، يا عاصفات،
 ويا قاصفات، ويا صاعقة
 ألا زلزلي ما بناه الطغاة
 بنيرانك الماحقة!
 وتلتئم في خاطري
 خيوطُ السحاب
 وتُلقى على الأفق الدائر
 وراء القباب:
 وأحسستُ أنَّ الغيوم انتظار
 وأنَّ انتظاراً يشدُّ التراب
 وأصدي... بماذا؟
 بصوت انفجار
 على الشطّ وإِذْ زَمَ الشرار
 ورقعتُ بالنظرة الشامتة
 ثقبَ الكوى الصامتة:
 سيندك سورٌ، ستنصب نار.

وكان انتظار.

وجمعت الأرض أطباقها:

سيندك سور، ستنصب نار،

وعصرت السحب أعرافها

فبل الثرى عاصف ممطر!

جيكور 1961/11/3

مدينة السراب

عبرتُ أوربا إلى آسيه
وما انطوى النهارُ
كأنما الجبال والبحار
رُبىَ وأطرافُ من الساقيه
يطفرها الصغار.
بين شروق الشمس والغروب
تعانق الشمال والجنوب
ونامت المروج في القفار.
وأنتِ يا ضجيعتي، كانك الكواكبُ البعيدة،
كأنَّ بيننا من الكرى جدار.
تضمّك اليدان، تعصران جثةً بليدهُ،
كأنني مُعانقٌ دمي على حجار
في منزلٍ لصوضه الرياح والهجير والغيوم،
مساؤه السكون والنجوم

وَصُبْنِحه انتظار.

ترامت السنون بيننا: دماً ونار،

أمدّها جسور

فتستحيل سور،

وأنت في القرار من بحارك العميقه

أغوص لا أمتّها، تصكّني الصخور،

تقطع العروق في يديّ، أستغيث: «آه يا وفيقه

يا أقرب الورى إليّ أنت يا رفيقه

للدود والظلام».

عشر سنين سرّتها إليك يا ضجيعةً تنام

معي وراء سورها، تنام في سرير ذاتها،

وما انتهى السّفار

إليك يا مدينة السراب، يا ردى حياتها.

عبرت أوربا إلى آسيه

وما انطوى النهار،

وأنت يا ضجيعتي، مدينة نائيه

مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار.

نبوءة ورؤيا

«تنبأ عراف هندي بأن الحياة على الأرض
ستنتهي يوم 2 شباط سنة 1962».

نبوءتُك المريرة عذبتني، مزقت روحي؛

نبوءتُك الرهيبة، أيها العراف تبكينني؛

رأيتُ مسالك الأفلاك تُهرع بالملايين.

قرأتَ خواطرَ الريح

ووسوسة الظلام كأنّ حقلاً بات ينتحب:

«ستنطفئ الحياة»، ورحّت ترسم موعدَ القدرِ.

إذا حدجتني الشهبُ

هتفت بها: «غداً سنموت. فانهمري على البشر:

لأهونُ أن أموت لديك وحدي دون حشرجة ولا أنّه

من القدر المروّع يجرف الأحياء بالآلاف».

ولكنني أصيخ إلى النهار فأسمع العراف

يهدّد: «سوف يهلك من عليها، سوف تلتهب».

وتسرب في دمي جثّه.
 وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظلموتِ أحلامي
 رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثمّ تنقطعُ
 أفقتُ وما تزال تضيء في خلدي وتندلعُ
 كما يتفجّر البركان في ظلمات ليل دون أنسام،
 بلا قمر وإن يك في المحاق أكاد أقتلعُ
 أكاد أمزق الدم في عروقي بارتعادة روحي الحيرى...
 أكاد أعانق القبرا.
 أرى أفقاً وليلاً يطبقان عليّ من شرفه
 ولي ولزوجتي، في الصمت، عند حدودها وقفه
 نحدّق في السماء ونمنع الطفلين من نظري
 إلى ما في دجاها الرابع المأخوذ من سقر،
 تطفأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشرر
 تطفأت تحت ذيل الريح وهي تسفّه سفاً،
 كأنّ عصاً تسوق مواكب الأفلاك في صحراء من ظلم،
 ويلهث تحتنا الآجر، يزحف تحتنا زحفا...
 تضعضع فهو يُمسك نفسه ويئن من ألم
 ليهوي حين يغفل، حين يعجز ثمّ ينهار:

دجى نثرت بها نازُ.

بنى إليك صدري، فيه فادفن وجهك الطفلا

بنى صه أقصّ عليك... آية قصّة عندي؟

تفجّرت الفقاعة وانتهى أبداً إلى حدّ:

علام أتيتَ للعنينا؟

ليدرك عُمرُكَ الليلا؟

لتحيا أربع السنوات ثمّ لتبصر الساعه

تقوم ولست تُدرك ما تراه؟ تريد أن تحيا

وتجهل أن موتك فيه بعثك، أن للعنينا

نهاية سلمٍ يفضي إلى أبداً من الملكوت.

قلبك؟ آه... من راعه؟

بكاؤك وارتعابك فيهما لله إحراجُ

وباسمهما أسائله الحساب: أتصرع الأطفال

لتشهد لوعة الآباء. تسعد قلبك الآمال

تخيبي!!

يكاد يهوي من صراخي عنده التاجُ

ويهدم عرشه ويخرّ، تطفأ حوله الآباد والآزال

ويقطر لابن آدم قلبه ألماً وينفطرُ.

ذهبت

ذهبت فاستحال بعدك النهارُ
 كأنه الغروبُ،
 كأنما سحبت من خيوطه النُّصار.
 وظلل المدارج انكسارُ
 ومثلها انكسرتُ، غام في خيالي الجنوبُ
 ينوء بالخريفُ
 تعرّت الكروم والجداول انطفأْنَ، والحفيفُ
 يموت في ذرى النخيل، والدروب،
 بصمتها، انتظار.
 كحل عينيك سوادُ نار
 تشبّ من قلبك، من براعم النهود،
 يهتف بي إذا نظرت: أنتِ في استعار
 يا أيُّها البركان من ورود.
 أوّاه لو أشدّ عينيك إلى النهار،

إلى غدٍ فوق دمي يحومُ.
 أيُّ سماء أشعلتها رعشة النجومُ
 وأثقل الظلام فيها من ندى المطرُ
 نظرت من قرارها إليّ، كالغيوم
 تكنُ في اربدادها الزهر!
 يا نظرة تخطّفتني ريحها السوم
 إلى الضفاف الخضمر من نهر
 غرقتُ فيه، أشعليني! أطفئي اللهب
 يا نظرة يشد قلبي بالسما وتر
 يعزف مرّها عليه غنوة القمر.

يا نهر

يا نهر عاد إليك من أبد اللحود ومن خواء الهالكين
 راعيك في الزمن البعيد، يسرح البصر الحزين
 في ضفتيك ويسأل الأشجار عندك عن هواه
 أوراقها سقطت وعادت ثم أذبلها الخريف
 وتبدلت عشرين مرّة.

هيهات يسمع، إذ توسوس في الدجى، أصداء آه
 بالأمس أطلقها لديك ترنُّ في جرس الحفيف.
 كم قبله عادت دوائر في مياهاك مستسرّة،
 دنياه كانت أمس فيك، فهل تعود إلى الحياة؟

ليودّ من شغفٍ بمائك لو غدا

ظلاً يداعب فيه جنّياته

متعلقاً بشراع كلّ سفينة

ليجاذب الملاح أغنياته

وتلوذ أنوار النجوم بصدره

وتراقصُ الأمواج من ضحكاته.
 ما أخيب الموتى إذا رجعوا إلى الدنيا القديمه
 وتلصصوا يتطلعون كما تطلع من كوى دارٍ شريدٍ
 ورأى ثمار الجمر سأل عصيرها دفناً وجال عبيرها المهدودُ
 ما أخيب الموتى تكاد تحيل موتهم الهزيمه
 شيئاً أَمَرَ من الحياه.
 ما أخيب الموتى! تغير كل شيء، كل باقٍ
 ممّا أطلّ على الحياه لأنهم كانوا كُواء،
 أم مات ما عرفوه إذ ماتوا، فليس سوى رؤاه؟
 فتكبّدوا أَلَمَ الفراقِ،
 أَلَمَ التغرّب مرّتين. فيا ضفاف النهر، يا أمواجه ومحاره
 ماذا تبقى فيك من أمس الهوى؟
 الدوح أسلم للبلى ورقاته
 وهي التي سمعت لديك حوارهِ
 وهي التي أودعتُ فيها، في الضحى،
 قبلاتنا وطويت فيها ناره،
 إني ذويتُ مع الظلام كما ذوى
 يا ليت لي شفه فتلثم أو يداً فتمسّ ماءك.

إني لأكثر من غريب غربةً وأشدَّ حيرةً؛
 لم يبق فيك سوى الزَّمان، وليس ممَّا فيك قطره
 من ماء أمس. كأن فجرَكَ عادَ قبل غِدِّ مساءكَ
 وكأن ضفَّتكَ الحبيبة ضفَّةَ الأبد البعيدِ.
 يا نهر إن وردتْكَ «هالةٌ» والربيع الطلق في نيسانه
 ولَّى صباها فهي ترتجف الكهولة، وهي تحلم بالورود
 في حين أثقلها الجليدُ، كأن نبعاً في اللحد
 تمتص منه عروقها دمها، فقل: لم ينس عهدك
 وهو في أكفانه؟.

أبو الخصيب 1962/2/2

صِيَاْحُ البِطِّ البَرِيِّ

وذَرَى سَكُونِ الصَّبَاحِ الطَوِيلِ
 هُتَافٌ مِنَ الدِّيكِ لَا يَصْدُأُ
 وَهَزَّ الصَّدَى سَعَفَاتِ النَخِيلِ
 وَأَشْرَقَ شَبَاكُنَا المِطْفَأُ.
 هُتَافٌ سَمِعْنَاهُ مِنْذُ الصَّغَرِ
 سَمِعْنَاهُ حَتَّى نَمُوتَ
 يَمُرُّ عَلَى عَتَبَاتِ البُيُوتِ
 فَيَرْسُمُ أَبْوَابَهَا وَالحُجَرَ
 وَلَا يَهْدُأُ
 إِلَى أَنْ تَسِيرَ الحَقُولُ
 إِلَيْنَا فَتَقْطِفَ مِنْهَا الثَّمَرُ

وَعِنْدَ الضَّحَى وَانْسِكَابِ السَّمَاءِ
 عَلَى الطَّيْنِ وَالْعُشْبَةِ الْيَابِسَةِ،

يشقُّ إلينا غصونَ الهواء
 صياحٌ، بكاءً، غناءً، نداءً
 يُبشِّرُ شطآننا اليائسه
 بأنَّ المَطَرُ
 على مَهْمِهِ الرِّيحَ مدَّ القلوغُ،
 هو البطُّ... فلتَهْنَأِ يا شموغُ
 بموتٍ به تعرفين الحياةَ
 به تعرفين ابتسامَ الدموعِ:
 نذوراً تذويين، للأولياءِ.

صياحٌ... كأنَّ الصَّيَّاحَ
 ينشُرُ، ممَّا انطوى من رياح،
 سهولاً وراء السهولِ
 أزاهيرُها في الدجى من نباح
 وعند النهار خُزامى، أقاح
 وختميةٌ ما لها من ذبول...
 ينشُرُ في شاطئِ مُشمسٍ
 من القَصَبِ الكَثِّ غاباً له عَذَبَاتُ تطولُ.

صياحُ كأجراس ماء... كأجراس حقلٍ من النرجسِ
يُدنِدنُ والشمسُ تُصغي، يقولُ
بأنّ المطرُ
سيهطلُ قبل انطواء الجناح
وقبل انتهاء السّفَر...

1962/3/18

المعبدُ الغريق

خيولُ الريحِ تصهّلُ، والمرافئُ يلمسُ الغُربُ
صواريها بشمسٍ من دمٍ، ونوافذُ الحانهِ
تراقصُ من وراءِ خِصاصها سُرجُ، وجمعُ نفسهِ
الشُرْبُ

بخيْطٍ من خيوطِ الخوفِ مشدوداً إلى قنينةٍ، ويمدّ آذانه
إلى المتلاطمِ الهدّارِ عند نوافذِ ألحانهِ.
وحدّث - وهو يهمسُ جاحظُ العَيْنَيْنِ، مرتعداً،
يعبّ الخمرَ - شيخٌ عن دجى ضافٍ وأدغالِ
تلامحَ وَسَطِها قَمَرُ البحيرةِ يلثمُ العَمَدَا...
يمسّ البابَ من جنباتِ ذاكِ المَعْبِدِ الخالي
طواه الماءُ في غلَسِ البحيرةِ بَيْنَ أحراشٍ مبعثرةٍ
وأدغالِ،

هنالك قَبْلَ أَلْفٍ، حينَ مَجَّ لظاهِ من سَقَرِ

فَمُ يَتَفَتِّحُ الْبُرْكَانَ عَنْهُ فَتَنْفُضُ الْحُمَى
قِرَارَةً كُلِّ مَا فِي الْوَادِ مِنْ حَجَرٍ عَلَى حَجَرٍ،
تَفْجَرُ بِاللُّطَى رَحِمُ الْبَحِيرَةِ يَنْثُرُ الْأَسْمَاكَ وَالْدَمَ،
مُرْغِيًا سُمًّا

وَقَرَّ عَلَيْهِ كُلُّكُلٌ مُعِيدٌ عَصَفْتُ بِهِ الْحُمَى .
تَطْفَأُ فِي الْمَبَاخِرِ جَمْرُهَا وَتَوْهَجُ الذَّهَبُ
وَلَا حِ الدَّرَّ وَالْيَاقُوتُ أَثْمَاراً مِنَ النُّورِ،
نَجُوماً فِي سَمَاءِ الْمَاءِ تَزْحَفُ دُونَهَا السَّحَبُ
تَمَرِّغُ فَوْقَهَا التَّمَسَّاحُ ثُمَّ طَفَا عَلَى السُّورِ
لِيَحْرُسَ كَنْزَهُ الْأَبَدِيِّ حَتَّى عَنْ يَدِ الظُّلْمَاءِ وَالنُّورِ .

وَأَرَسَى الْأَخْطَبُوطُ فَنَارَ مَوْتٍ يَرِصُدُ الْبَابَا،
سَجَا فِي عَيْنِهِ الصُّورَاءُ صُبْحُ كَانَ فِي الْأَزَلِ...
تَهْزَأُ بِالزَّمَانِ، يَمُرُّ لَيْلٌ بَعْدَ لَيْلٍ وَهُوَ مَا غَابَا
فَفِيمَ غُرُورُ هَذَا الْهَالِكِ الْإِنْسَانِ، هَذَا الْحَاضِرِ الْمَشْدُودِ
بِالْأَجَلِ؟

أَعْمَرَ أَلْفَ عَامٍ؟ لَيْتَهُ شَهِدَ الْخَلَائِقَ وَهِيَ تَعْبُرُ شُرْفَةَ الْأَزَلِ؟

أَلَا يَا لَيْتَهُ شَهِدَ السِّلَاحِجَ: تَسْحُقُ الدُّنْيَا
 قِيَاصَ رَها، وَيَمْنَعُ دِزْعُها ما صَوَّبَ الزَّمَنُ
 إِلَيْها من سَهاَمِ المَوْتِ!
 لَكِنَّ الَّذِي يَحْيَا
 بِقَلْبٍ يَعْبُرُ الْآبَادَ، يَكْسِرُ حَدَّه الْوَهَنُ
 فَيَصْمُتُ، عُمْرُهُ أَزَلٌّ يَمْسُ حَدودَهُ أَبَدٌ مِنَ الْأَكْوانِ
 فِي دُنْيَا
 هُنَالِكَ أَلْفُ كَنْزٍ مِنْ كَنْوزِ الْعَالَمِ الْغَرْقى
 سَتُشْبِعُ أَلْفَ طِفْلِ جَائِعٍ وَتُقِيلُ آلافاً مِنَ الدَّاءِ
 وَتُنْقِذُ أَلْفَ شُعْبٍ مِنْ يَدِ الْجَلَادِ، لَوْ تَرَقَى
 إِلَى فَلَكِ الضَّمِيرِ!
 أَكَلْ هَذَا الْمَالِ فِي دُنْيَا الْأَرْقَاءِ
 وَلَا يَتَحَرَّرُونَ؟ وَكَيْفَ وَهُوَ يُصَفِّدُ الْأَعْنَاقَ،
 يَرْبِطُها إِلَى الدَّاءِ؟

كَأَنَّ الْمَاءَ فِي تَبِيجِ الْبَحِيرَةِ يَمْنَعُ الزَّمَنَ
 فَلَا يَتَقَحَّمُ الْأَغْوَارَ، لَا يَخْطُو إِلَى الْغَرْفِ
 كَأَنَّ عَلَى رِثَاجِ الْبَابِ طَلْسَمَهُ، فَلَا وَسْنا

ولكنْ يَقْظَةُ أَبَدٍ، وَلَا مَوْتُ يَحْدُ حُدُودَ ذَاكَ الْحَاضِرِ

التَّرفِ

كَأَنَّ تَهْجِدَ الْكُتَّانِ نَبْعٌ فِي ضَمِيرِ الْمَاءِ يَدْفُقُ مِنْهُ

لِلْغُرْفِ.

إِذْنُ مَا عَادَ مِنْ سَفَرٍ إِلَى أَهْلِيهِ عَوْلِيْسُ...

إِذْنُ فِشْرَاعِهِ الْخَفَّاقُ يَزْرَعُ فَائِرَ الْأَمْوَاجِ

بِمَا حَسَبَ الشُّهُورَ وَعَدَّ حَتَّى هَذِهِ الْبُؤْسُ.

فِيَا عَوْلِيْسُ... شَابَ فَتَاكَ، مَبْسَمَ زَوْجِكَ الْوَهَّاجِ

غَدَا حَطْبًا. فَفِيمَ تَعُودُ، تَفْرِي نَحْوَ أَهْلِكَ أَضْلَعِ الْأَمْوَاجِ

هَلُمَّ فَمَاءَ شَيْنِي⁽¹⁾ فِي انْتِظَارِكَ يَحْبِسُ الْأَنْفَاسَ

فَمَا جَرَحَتْهُ نَقْرَةُ طَائِرٍ أَوْ عَكَرَتْهُ أَنْامِلُ النَّسَمِ.

هَلُمَّ فَإِنَّ وَخْشًا فِيهِ يَحْلُمُ فِيكَ دُونَ النَّاسِ

وَيَخْشَى أَنْ تَفْجَرَ عَيْنَهُ الْحُمْرَاءُ بِالظَّلَمِ

وَأَنَّ كَنُوزَهُ الْعِذْرَاءُ تَسْأَلُ عَنْ شِرَاعِكَ خَافِقَ النَّسَمِ.

أَمَا فَجَعْتُكَ فِي طُرُودَةِ الْأَهَاتِ مِنْ جَرْحِي

وَمُحْتَضَرِّينَ؟

(1) بحيرة في «الملايو» غرق المعبد إلى قرارتها. (ش)

يا لدم أريقَ فلطخ الجدرانُ
 وردّ ترابها الظمآن طيناً، رده جرحاً
 كبيراً واحداً، جرحاً تفتح في حشا الإنسان
 ليصرخَ بالسماء.

فيا لصوتِ ردّته نوافذُ الحجرات والجدران:

«لأجلِ فجورِ أنثى واتقادِ مُتوجِّجٍ بالنازِ
 تخضّب من دمِ المُهجات حتى سلّم الأفقِ،
 وحلّ بلا أوّانٍ يؤمّنا، وتساوتِ الأعمار
 كزرعٍ منه ساوى منجلٌ...
 وهناك في الشّفقِ

تنوحُ نساؤنا المترمّلاتُ، يُولولُ الأطفال عند مدارج الأفقِ»

هلمّ فقد شهدتُ، كما شهدتُ، دماً وأشلاء:
 تفجّر في بلادِي قُمُقمٌ ملائته بالنارِ
 دهورُ الجوع والحرمان

أيّ خليفةٍ قاء؟

رأينا أنّ أفئدة التّار، وأذؤب الغارِ

أرقّ من الرّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنار
شفاءَ الحَلْمةِ العذراء.

يا نَهراً من الحِقْدِ

تدفّق بالخناجر والعِصيّ، بأعينٍ غضبيّ:

نجوماً في سماء شدّها قاييلُ بالزّند.

فليتّك حين هزّ الموصِلَ الأعصارُ (لا دَرباً

ولا بيتاً، ولا قبراً نجا فيها) شهدت الأُعينُ الغَضبيّ

وليتّك في قطارٍ مرّ حين تنفّس السّحرُ

فقصّ، على سرير السكّة الممدود، أمراساً⁽¹⁾

تعلّق في نهايتهنّ جِسمٌ يحصدُ النّظرَ

عليه الجُرحُ بعد الجُرح بعد الجرح أكداساً

ليهويَ جسم «حفصة»⁽²⁾ لابساً فوق النجيع دماً

وأمراساً.

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيرة أو حفافِها

كواسج⁽³⁾ ضارياتٍ أو تماسيحَ التظتّ لَهَا

نواجذُها الحديدية؟ فيمَ نخشى كلّ ما فيها؟

(1) الأمراس: الحبال. (ش)

(2) احدى شهيدات الموصل (العراق). (ش)

(3) سمك القرش، كلاب البحر. (ش)

فإنَّ عقارب الرِّقَاع⁽¹⁾ يُضمر سَمَها العَطَبَا
وتزرع في الجسوم أزاهر الدم والجراح بلا دمٍ لَهَا

هَلُمَّ نَشَقْ فِي الْبَاهَنْجِ⁽²⁾ حَقْلَ الْمَاءِ بِالْمَجْدَافِ
وَنُنْثِرْ أَنْجَمَ الظُّلَمَاءِ، نُسْقِطُهَا إِلَى الْقَاعِ
حَصَى مَا مَيَّزَتْهُ الْعَيْنُ عَنْ فَيْرُوزِ الرِّفَافِ
وَلَوْلَوْهُ الْمَنْقَطُ بِالظَّلَامِ.

سُرْعَبِ الرَّاعِي
فِيُهْرَعُ بِالْخِرَافِ إِلَى الْحَظِيرَةِ خَوْفَ أَنْ يَغْرُقْنَ فِي الْقَاعِ.

هَلُمَّ فَلَيْلُ آسِيَةِ الْبَعِيدِ مَدَاهُ، يَدْعُونَا
بَصَوْتٍ مِنْ نُعَاسٍ، مِنْ رَدَىٍّ، مِنْ سَجَعِ كُهَّانٍ.
هَلُمَّ... فَمَا يَزَالُ الدَّهْرُ يُطَوِّى بَيْنَ أَيْدِينَا.
لِنَطُودُ دُجَاهَ قَبْلِ طُلُوعِ شَمْسٍ دُونَ أَلْوَانِ
تَبَدَّدَ عَالَمُ الْأَحْلَامِ، تُخَفِّتُ - إِذْ يَرْنُ التَّبَرُّ فِيهَا -
سَجَعُ كُهَّانٍ!

(1) أحد أبطال المد الفوضوي في العراق... ينزل السجن الآن محكوماً عن سبع جرائم. (ش)

(2) النهر المؤدي إلى بحيرة شينبي. (ش)

يجول التَّبَرُّ فيها مثل وَخْشٍ يَأْكُلُ المَوْتَى
ويشرب من دم الأحياء، يسرق زادَ أَطْفَالٍ
ليَتَّقَدَ اللَّطْفَى في عَيْنِهِ، لِيُعِيرَهُ صَوْتَا
يحطِّمُ صوتَ كُلِّ الأنبياءِ هناك.

يا لرنينِ أغلالٍ

ويا لصدى من الساعات، بالأكفان مَسَّ رؤوسَ أَطْفَالٍ
وفلِ عناقٍ كُلِّ العاشقين، ودَسَّ في القُبْلَه
مُدَى من حَشَرَجَاتِ المَوْتِ، رَدَّ أَصَابِعَ الأيدي
أشاجعَ غَابَ عنها لحمها، وستائرُ الكُلَّةِ⁽¹⁾
يحوُّلُها صفائحَ تحتها جُثَّتْ بلا جِلْدٍ
هَلُمَّ فَبَعْدَ ما لمحَ المَجُوسُ الكوكبَ الوهاجَ تُبَسِّطُ
نحوه الأيدي

ولا ملأت حِرَاءَ⁽²⁾ وَصُبْحَه الآياتُ والسَّوَرُ.

هَلُمَّ فما يزال زيوس يصبغ قَمَّةَ الجَبَلِ
بخمرته، ويُرسِلُ أَلْفَ نَسْرٍ نَزَّ من أحداقِها الشَّرُّ
لتخطف من يُدير الخمر⁽³⁾ يحمل أكْوَاسَ الصهباءِ

(1) هي غطاء شفاف يستخدمه الناس ضد الحشرات عند نومهم على سطوح المنازل. (م)

(2) الغار الذي نزل الوحي فيه على محمد. (ش)

(3) غانيميد: الشاب اليوناني الذي أرسل إليه زيوس (كبير الآلهة) نَسْراً فاخطفه وأصبح ساقياً للآلهة. (ش)

والْعَسَلِ

هَلُمَّ نَزُورُ آلِهَةَ الْبَحِيرَةِ،

ثُمَّ نَرْفَعُهَا لِتَسْكُنَ قِمَّةَ الْجَبَلِ

البصرة 17/2/1962

أفياء جيكور

نافورة من ظلالٍ، من أزاهيرٍ

ومن عصافيرٍ...

جيكورُ، جيكورُ، يا حَقْلًا من النور

يا جدولاً من فراشاتٍ نظاردها

في الليل، في عالم الأحلام والقَمَرِ

ينشُرْنَ أجنحةَ أُنْدَى من المطرِ

في أوّل الصيف.

يا بابَ الأساطيرِ

يا بابَ ميلادنا الموصولَ بالرجمِ

من أين جئناكَ، من أيّ المقاديرِ؟

من أيّما ظُلَمٍ؟

وأيّ أزمنةٍ في الليل سرناها

حتّى أتيناكَ أقبِلنا من العَدَمِ؟

أم من حياة نسيناها؟

جيكورُ مَسِّي جبينِي فهو ملتَهَبُ
 مَسِّيهِ بالسَّعَفِ
 والسَّنْبِلِ التَّرِفِ.
 مُدِّي عَلَيَّ الظَّلَالَ السَّمَرِ، تَنسَحُبُ
 لَيْلًا، فَتَخْفِي هَجِيرِي فِي حَنَايَاهَا.

ظُلٌّ مِنَ النَّخْلِ، أَفْيَاءُ مِنَ الشَّجَرِ
 أُنْدَى مِنَ السَّحَرِ
 فِي شَاطِئِ نَامٍ فِيهِ الْمَاءُ وَالشُّحْبُ...
 ظُلٌّ كَأَهْدَابِ طِفْلِ هَذِهِ اللَّعْبِ،
 نَافُورَةٌ مَأْوَها ضُوءٌ مِنَ الْقَمَرِ
 أَوْدًا لَوْ كَانَ فِي عَيْنِي يَنْسَرِبُ
 حَتَّى أَحْسَّ ارْتِعَاشَ الْحُلُمِ يَنْبَعُ مِنْ رُوحِي وَيَنْسَكِبُ
 نَافُورَةٌ مِنْ ظِلَالٍ، مِنْ أَزَاهِيرِ
 وَمِنْ عَصَافِيرِ...

جِيكُورُ... مَاذَا؟ انْمَشِي نَحْنُ فِي الزَّمَنِ
 أَمْ أَنَّهُ الْمَاشِي

ونحن فيه وقوفٌ؟

أين أوله

وأين آخره؟

هل مرَّ أطوله

أم مرَّ أقصره الممتدَّ في الشَّجَنِ

أم نحن سيَّان، نمشي بين أحراشٍ

كانت حياةً سوانا في الدياجيرِ؟

هل أنَّ جيکور كانت قبل جيکورِ

في خاطر الله... في نبعٍ من النورِ؟

جيکور مدي غشاء الظلِّ والزهرِ،

سُدِّي به باب أفكارٍ لأنساها.

وأثقلي من غصون النوم بالثَمَرِ

بالخوخ والتين والأعاب عاريةً من قشرها الخِصِرِ.

رُدِّي إليَّ الَّذي ضيَّعت من عُمرِي

أيَّام لهوي.. وركضي خَلْفَ أفراسِ

تعدو من القَصَص الريفيِّ والسَمَرِ؛

رُدِّي أبا زَيْدَ، لم يصحب من الناسِ

خلاً على السَفَرِ

إلّا وما عاد.

ردّي السندباد وقد ألقته في جُزُر
يرتادها الرّخ رِيحٌ ذات أُمَراسٍ

جيكورُ لَمِي عظامي، وانفضي كَفَنِي
من طِينِهِ، واغسلي بالجدول الجاري
قلبي الَّذي كان شباكاً على النارِ.

لولاكِ يا وطني،
لولاكِ يا جَنَّتِي الخضراء، يا داري
لم تَلَقَ أوتاري

ريحاً فتقل آهاتي وأشعاري،
لولاكِ ما كان وَجْهُ الله من قدرِي
أفياؤ جيكورَ نبعٍ سال في بالي
أبَلٌ منها صدى رُوحِي...

في ظلّها أشتهي اللقيا، وأحلم بالأسفار والريّح
والبحر تقدح أحداق الكواسج⁽¹⁾ في صحّابه العالي
كأنّها كِسَرٌ من أنجم سقطتْ

(1) الكواسج: جمع (كوسج)، أسماك القرش باللهجة العراقية. (م)

كأنها سُرُجُ الموتى تقلبُها أيدي العرائس من حالٍ
إلى حالٍ.

أفياء جيكور أهواها
كأنها انسرحَتْ من قبرها البالي،
من قبر أُمِّي الَّتِي صارت أضالعتها التعبى وعيناها
من أرض جيكور... ترعاني وأرعاها.

جيكور 17/3/1962

الشاعرُ الرجيم

«إلى شارل بودلير»

حملتَ للنزال سيفك الصديءُ
يهتز في يد تكاد تُحرق السماء
من دمها المتقد المضيء،
تريدُ أن تمزق الهواء.
وتجمعُ النساء
في امرأةٍ شفاؤها دمٌ على جليدٍ
وجسمها المخاتل البليد
أفعى إذا مشت، وسادة على الفراش...
لا تُريدُ
أن تفتح الكوى ليدخل الضياء
كي لا تُحسّ أنها خواء.
ويرفع الشرُّقُ أمام عينك الستورُ،
توشك أن تعانقَ الجمال عند سُدة الإله،

تكاد أن تراه
 يهفُّ وسطَ غَيْمَةٍ من عَبَقِ ونور.
 تراه في حَلْمَةٍ نَهْدٍ توقد النجوم
 بجمرة لها...

رأيتَه يقوم
 من قبره، تحمله سحابة الدخان
 ينام تحت ظلّها الفقير والشريد:
 فهو أميرٌ حوله الكؤوس والقيان،
 ويئته العتيد

جزيرةٌ من جُزر المرجان
 كأنّ بحراً غاسلاً لسبوس⁽¹⁾ بالأجاج
 تشربه روحك من صدىّ إلى القراز
 كأن سافو أورثتك من دم العروق نار،
 وأنت لا تضمّ غير حُلْمِكَ الأبيد
 كمن يضمّ طيفه المُطلّ من زجاج:
 حُرقة نرسيس، وتتلوس⁽²⁾ والثمار!

(1) الجزيرة التي اتخذت الشاعرة الأغريقية «سافو» هيكلًا لها فيها. (ش)

(2) عشق نرسيس ظله. وتتلوس جائع أبداً يقترب من فمه غصن مثقل بالثمار، حتّى إذا كاد يأكل أبعدت الريح الغصن عن فمه. (ش)

كانَ أفريقيَّةَ الفاترةِ الكسولِ
 (أنهارُها العراضُ والطبولُ
 وغابُّها الثقيلُ بالظلالِ والمطرُ،
 وفيظُّها النديّ... والقَمَرُ)
 تكورُ في امرأةٍ خليعةِ العذار
 رضعَتَ منها السُّمُّ واللهيبُ،
 قطرتَ فيها سُمَّكَ الغريب...
 كأنَّها سحابةُ الدخانِ والخَدَرِ
 أقمتَ منها، بينَ عالمِ تَشَدِّهِ نوابضُ النَّضارِ
 وبينَ عالمٍ من الخيالِ والفِكرِ،
 من نشوةِ جدارِ
 تقبِعَ خلفَ ظلِّهِ فلا يَنالُكَ البَشَرُ.
 دخلتُ، من كتابكَ الأثيمِ،
 حديقةَ الدمِ الَّتِي تَوَجُّجُ بالزَّهَرِ،
 شربتُ من حروفهِ سِلافةَ الجحيمِ
 كأنَّها أُنْداءُ ذُبِّيَّةٍ على القفارِ
 حليبيُّها سُعارِ
 وفيئُها نعيمِ.

غَرَقْتُ فِيهِ، صَكَّنِي الْعُبَابُ
يَقْذِفَنِي مِنْ شَاطِئِي لِشَاطِئِ قَدِيمٍ،
حَمَلْتُ مِنْ قَرَارِهِ مَحَارَةَ الْعَذَابِ
حَمَلْتُهَا إِلَيْكَ
فَمُدَّ لِي يَدَيْكَ
وَزَحَزِحَ الصَّخُورَ وَالتَّرَابَ.

البصرة 1962/3/24

لأُتِّي غريب

لأُتِّي غريبُ
لأنَّ العراقَ الحبيب
بعيدٌ، وأُتِّي هنا في اشتياقٍ
إليه، إليها... أُنَادِي: عراق
فيرجع لي من ندائي نحيب
تفجَّر عنه الصدى
أحسُّ بأنِّي عبرتُ المدى
إلى عالمٍ من ردى لا يجيب
ندائي؛
وإِذَا هَزَزْتُ الغصونُ
فما يتساقطُ غَيْرُ الردى:
حجاز
حجازٌ وما من ثمار،
وحتىَّ العيون

حجارٌ، وحتىّ الهواء الرطيب
حجارٌ يندّيه بعضُ الدمِ.
حجارٌ ندائي، وصخرٌ فمي
ورجلاي ريح تجوبُ القفار.

بيروت 1962/4/15

ابن الشهيد⁽¹⁾

وتراجع الطوفان، لملمَ كلّ أذيال المياه
وتكشّفت قمم التلال، سفوحها، وقرى السهول،
أكواخها وبيوتها خربٌ تناثر في فلاه.
عركت نيوب الماء كلّ سقوفها ومشى الذبول
فيما يحيط بهنّ من شجر... فأه
آه على بلدي، عراقي: أثمر الدم في الحقول
حسكاً، وخلف جرحه التريّ ندباً في ثراه.
يا للقبور كأن عاليها غداً سفلاً وغار إلى الظلام
مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق.
يتنفس الأحياء فيها كلّ وسوسة الرغام،
حتّى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق.

(1) نشرت القصيدة في مجلة «الآداب»، عدد حزيران 1962، وقد صدّرها الشاعر بهذه الكلمات: «يسرني أن يعود الولد الضال إلى بيته، وأن أعود إلى «الآداب» التي على صفحاتها متنفسي الطبيعي الذي أعاهد أن يدوم أبداً»، وهي كلمات تشير إلى العلاقة المتباينة التي جمعت مع مجلتي «الآداب» و«شعر». (م)

جثث هنا، ودمٌ هناك...

وفي بيوت النمل مدًّ من الجفون

سقف يقرمده النجيع، وفي الزوايا

صفر العظام من الحنايا.

ماذا تخلّف في العراق سوى الكآبة والجنون؟

أرأيت أرملة الشهيد؟

الزوج مد عليه من ترّبٍ لحافاً ثمّ نام

متمدداً بأشد ما تجد العظام

من فسحة: سكنت يدها على الأضالع،

والعيون

تغفو إلى أبد الإله، إلى القيامة: في سلام

رمت الرداء العسكريّ ونشرته على الوصيد...

لثمته، فانتفض القماش يرد برد الموت،

برد المظلمات من القبور.

يا فكرها عجباً... ثقت ببارك الأبد البعيد،

يا فكر شاعرة يفتش عن قوافٍ للقصيد

ماذا وجدت وراء أمسي وعبر يومك من دهور؟

«الثأر» يصرخ كلّ عرق، كلّ باب

في الدار. يا لعمّ تفتح كالجحيم... من الصخور،
 من كلّ ردن في الرداء، من النوافذ والستور،
 من عيني ابنك، يا شهيد، تسائلان، بلا جواب،
 عنك الأسرة والدروب، وتسألان عن المصير،
 مذ ألبسته الأم ثوبك في معاركك، الأثير
 ويدهاه في الردين ضائعتان، والصدر الصغير
 في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب
 ورنّا إلى المرأة

أبصرَ فيه شخصك في الثياب.
 - «ابني كان أبوك نبعاً من لهيب، من حديد،
 سوراً من الدم والرعود،
 ورماه بالأجل العميل فخرّ - واهاً - كالشهاب،
 لكن لمحاً منه شع وفض أختام الحدود
 وأضاء وجه الفوضوي ينز بالدم والصيد
 وكان في أفق العروبة منه خيطاً من رغب».
 وتنفس الغد في اليتيم ومد في عينه شمس
 فرأى القبور يهب موتاهن فوجاً بعد فوج
 أكفانها هرئت...

ولكن الذي فيها يضم إليه أمسهُ

ويصيح «يا للثار... يا للثار...»

يصدي كل فجٍّ

وترنّ أقبية المساجد والمآذن بالنداء.

وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء.

البصرة 9/3/1962

فرار عام 1953

في ليلةٍ كانت شرايينها
 فحماً، وكانت أرضُها من لحود
 يأكل من أقدامنا طينُها،
 تسعى إلى الماء،
 إلى شراعٍ مزقته الرعود
 فوق سفينٍ دون أضواء،
 في الضفة الأخرى... يكاد العراق
 يومئ؟ يا أهلاً بأبنائي
 لكننا، واحسرتنا، لن نعود
 أواه لو سيكارةٌ في فمي
 لو غُثوةٌ... لو ضُمَّةٌ، لو عناق
 لسَعْفَةٍ خضراءٍ أو بُرعم
 في أرضي السكرى برؤيا غدٍ.
 إنا مع الصبح على موعدٍ
 رغم الدجى... يا عراق!

ريفٌ وراء الشطّ بين النخيل
 يغفو على حُلُمٍ طويل طويل،
 تتأبّت فيه ظلالٌ تسيل
 كالماء بين الماء والعُشبِ.
 يا ليتَ لي فيه
 قبراً على إحدى روايته،
 يا ليتني ما زلت في لعبي
 في ريف جيکور الذي لا يميل
 عنه الربيعُ الأبيض الأخضرُ:
 السَّهْل يندى والرّبي تُزهرُ.
 ويطفئ الأحلام في مقلتي
 - كأنها منفضةٌ للرماذ -
 همسٌ كشوكٍ مسّ من جبهتي
 يُنذر بالسارين فوق الجياد
 سنابك الخيل مساميرُ ناز
 تدقّ تابوت الدجى والنهار:
 ناطورة⁽¹⁾ تحرس كرمَ الحدود
 أثقلَ طينَ الخوف ما للفرار

(1) وردت في طبعة دار العودة: ناعورة. (م)

من قدم تدمى... ومدّ السّدود.
 أمن بلادي هاربٌ: أيّ عار!!
 وارتعش الماء وسار السفين
 وهبّت الريح من الغربِ
 تحمل لي دُرّبي...
 تحمل لي من قبرها ذرّ طين،
 تحمل جيّكورَ إلى قلبي.
 يا ريحُ يا ريحُ
 توهّجت فيك مصابيحُ
 من ليل جيّكور، أضاءت ظلّمة السفين
 لأبصرَ الأعين كالشّهب
 تلتّم حوّلي، لأراها تلين!
 وأنجمُ الشطّ زهورٌ كبارُ
 أو شكّت أن أبصرَ سيقانها
 تمتدّ في الماء، تمسّ القرار،
 لملمَمَ فجرُ الصيف ألوانها
 كأنّها أوجهُ حورٍ تحار
 فيها تباريحُ الهوى والحياء...
 كأنّها زنبقُ نارٍ وماء.

جيكور شابث

ما نفَضْتُ الندى عن ذرى العُشب فيها،
 ما لثمتُ الضبابَ الَّذي يحتويها،
 جثَّتْها والضَّحى يزرع الشمس في كلِّ حَقْلٍ وسطحٍ
 مثلَ أَعوادِ قَمَحٍ.
 فرَّ قلبي إليها كطيرٍ إلى عُشِّه في الغروب.
 هل تُراه استعاد الَّذي مرَّ من عُمرِه، كلِّ جُرْحٍ وابتسامٍ؟
 أبعد انطفاءِ اللهبِ
 يستطيع الرماد اتِّقاداً؟ ومن أين؟ من أيِّ جَمَرِه؟
 يا صباي الَّذي كان للكون عطراً وزهواً وتيها...
 كان يومي كعامٍ، تعدُّ المسرَّه
 فيه نبضاً لقلبي تفجَّر منها على كلِّ زهره..
 كانت الأرض تلقى صباها لأوَّل مرَّه...
 كان قابيلُها بذرةً مُستسِرَّه...
 كان للأرض قلبٌ، أحسَّ به في الدروب،

في البساتين، في كل نهر يُروى بنيتها.
آه جيکور، جيکور...

ما للضحى كالأصيل
يسحب النور مثل الجناح الكليل؟
ما لأخواك المقفرات الكثيه
يجبس الظل فيها نحييه؟

أين أين الصبايا يوشوشن بين النخيل
عن هوى كالتماع النجوم الغريبه
أو يجرزن أذياهن التي لوئنهن أقمار صيف
أو شمس خريفيّة، عند شطّ ظليل
والشفاه ابتسامات حبّ وخوف؟؟
عجائز أو في القبور...

عجائز يغزلن حول الصّلاء
ويروين، عبّر الكرى والفتور،
أقاصيص عن جنّة في بيوت خواء،
لأحفادهنّ اليتامى.

وجيکور شابّت وولى صباها

وأمسى هواها

رماداً، إذا ما
 تأوَّهْنَ هَزَّتْهُ رِيح...
 أثارته حتَّى ارتمى في صداها
 هباء وذرّاً تضيقُ الصدور
 به عن مداها.

أَيْنَ جَيِّكُورُ؟
 جيكور ديوانُ شعري،
 موعِدٌ بين ألواح نعشي وقبري
 كزكرات المياه الَّتِي كسَّرَ الشمس منها ارتجافُ،
 والأنيبُ الَّذِي منه كنا نخافُ
 صاعداً مثل مدّ تنزّ القبور
 عنه، والشمس تمتصّ من كلّ نهر،
 ودرايك في الأرض تنقرهنّ البذور
 وهي تنشقّ في كلّ فجّرٍ -
 ذكرياتٌ... كما يترك الصوت من ميّت
 في خيال رنينه
 مثلُ نايٍ تشظّى وأبقى أنينه.

إيه جيڪور، عندي سؤال، أمّا تسمعيه؟

هل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه

أم تُرى أنتِ قبر لها؟ فابعثيها

وابعثيني

وهيهات! ما للصَّبى من رجوع.

إن ماضيَّ قبري وإني قَبْرُ ماضيَّ:

موتٌ يمدّ الحياةَ الحزينه؟

أم حياةٌ تمدّ الرّدى بالدموع؟

ما نفضتُ الندى عن ذرى العشب فيها.

جيڪور 1962/4/2

احتراق

وحتى حين أصهرُ جسمَكَ الحجريّ في ناري
 وأنزع من يديكَ الثلج، تبقى بين عينينا
 صحارى من ثلوج تُنهك الساري،
 كأنك تنظرين إليّ من سُدُمٍ وأقمارٍ،
 كأنّا، منذ كنّا، في انتظارٍ ما تلاقينا.
 ولكنّ انتظار الحبّ لُقيّا... أين لقيانا؟
 تمزّق جسمُكَ العاري...
 تمزق، تحتَ سَقْفِ الليل، نَهْدُكَ بين أظفاري...
 تمزّق كلّ شيءٍ من لهيبي، غيرَ أَسْتارِ
 تحجّبُ فيك ما أهواؤُ.
 كأنّي أشرب الدمّ منك ملحاً ظلّ عطشاناً
 من استسقاءه. أين هوالُكَ؟ أين فؤادكَ العاري؟
 أسدّ عليك بابَ الليل ثمّ أعانقُ البابا
 فألثمُ فيه ظلّي، ذكرياتي، بعض أسراري...

وأبحثُ عنك في ناري
 فلا ألقاكِ، لا ألقى رمادك في اللَّظى الواري.
 سأقذف كلَّ نفسي في لظاها، كلَّ ما غابا
 وما حضرا.
 أريدُك فاقطيني كي أُحسَّك.
 واقتلي الحجر
 بفيض دمٍ، بنارٍ منك... واحترقي بلا نارٍ؟

بيروت 1961/10/26

سهر

سهرتُ فكل شيء ساهرٌ: قدماي والمصباح
وأوراقِي.

أنا الماضي الَّذِي سدّوا عليه الباب، فالألواح
غدي والحاضر الباقي.

أنا الغد في ضمير الليل، مدّ الليل ألفَ جناح
عليه، فطار، لما طار، بالظلماء والشَّهبِ.

أصخْتُ السَّمْعَ والظلماء حولي بوقُ سياره
يبتّ إلى البغيّ رسالة الحبّ

ويومئٍ للسكاري: أن تعالوا، ألفُ خمّاره

تكشر، تفرج الساقين، تقطع نومةَ الدرب
بوهوةِ النيون.

أصخْتُ والظلماء صفارة

وخطوة حارسٍ...

فذكرتُ نهر القرية المكسأل

يسيل لكي يعيش، لكي يموت، يمصّه الجزرُ

فيعري جَرْفُهُ الطينِي حَتَّى يُقْبَلَ الفجرُ
 فيحمل في سناه المدّ، يحمل زورقاً يختال
 بصيادٍ يُعدُّ شباكه ويرود في الماء
 مسارِبَ كُلِّ ناعسةٍ من الأسماكِ خضراءِ.
 ذكرتُ مقابرَ الأطفالِ
 تلوذ بكلِّ سفحٍ، نام فيها دون أئداءِ
 ولا قُمْطٍ، صغارٌ من حصاد الجوع والداءِ
 لقد رضعوا من الثدي الذي لم تُبله الأجيالُ
 وناموا في حمى الأمِّ التي لا يستوي الأطفالُ
 ولا الأشياءُ إلَّا في حماها، في حمى تَرْبٍ وظلماءِ.
 سهرت الليل في بيروت، لا بين المواخيرِ
 (كهوف العالم المتحضّر المغسول بالنور)
 هنا يتوكأون على العظام ليصعدوا أفقاً من النشوه،
 لينحدروا إلى فجوه
 تئاءَبَ ظلُّها وأصيلها بين الدياجيرِ
 وبين منابع الأضواء،
 تئاءَبَ ظلُّها وأصيلها بين العقارب والسنانيرِ
 وبين المُسرجِ الظلماءِ

والممتدّ حتّى الله في القدس وفي سيناء.
 سهرت يرّنّ صورُ الموت في أذنيّ كالزلزال:
 «تهدّم حائط الأجيال

وكاد يغور إذ لمستّه كفيّ، ألفُ نوحٍ زال
 وألفُ زليخةٍ صيرتُ كحلّ عيونها ظلّمه.
 أنا الباقي بقاء الله أكتب باسمه الآجال
 وما لسواه عند مطارق الآجال من حُرّمه».

 هنا في كلّ موتٍ ألفُ موتٍ: كان في الضمّة
 وفي القبلات، في الأفداح،
 تدور الأسطوانة وهو فيها لمعة الضّوء
 يوسوسُ في تهدّج صوتها فيخدع الأرواح،
 ويلمس جبهة الملاح في النّوء.
 سهرتُ لأنني أدري
 بأنّي لن أقبل ذات يوم وجنة الفجرِ
 سيّقبل مطلقاً في كلّ عشّ نغمةً وجناح
 وسوف أكون في قبري.

الوصية

من مرضي،
 من السرير الأبيض
 من جاري أنهار على فراشه وحشرجا
 يمض من زجاجة أنفاسه المصفّره،
 من حُلُمي الذي يمدّ لي طريق المقبره
 والقمرَ المريض والدجى...
 أكتبها وصيةً لزوجتي المنتظرة
 وطفلي الصارخ في رقاده: «أبي، أبي»،
 تلمّ في حروفها من عُمرِي المَعْدَبِ.
 لو أن عوليسَ وقد عاد إلى دياره
 صاحتْ به الآلهةُ الحاقدةُ المدمّره
 أن ينشرَ الشراعَ، أن يضلَّ في بحاره
 دون يقين أن يعود في غدٍ لداره،
 ما خضّه النذيرُ والهواجسُ

كما تخضُّ نفسي الهواجسُ المبعثرة،

اليوم ما على الضمير من حياءٍ حارسٍ:

أخافُ من ضباية صفراءِ

تنبع من دمائي

تلفني فما أرى على المدى سواها

أكاد من ذلك لا أراها،

يقصُّ جسمي الذليل مبضعُ

كأنه يقصّ طينةً بدون ماءٍ

ولا أحسّ غير هبةٍ من النسيم ترفعُ

من طرف الستائر الضبابِ

ليقطر الظلام، لستُ أسمعُ

سوى رعودٍ رنٍّ في اليباب

منها صدىٌ وذاب في الهواءِ...

أخاف من ضباية صفراءِ!

أخاف أن أزلقَ من غيبوبة التخديرِ

إلى بحارٍ ما لها من مرسى

وما استطاع سندبادُ حين أمسى

فيهنَّ أن يعودَ للعودِ وللشراب والزهور،
 صباحها ظلامٌ
 وليلُها من صخرة سوداء.
 من ظلِّ غيبوتي المسجور
 إلى دجى الحمامِ
 ليس سوى انتقالِ الهواءِ،
 من رئةٍ تغفو، إلى الفضاءِ،
 أخاف أن أحس بالمبضع حين يجرحُ
 فأستغيث صامتَ النداءِ
 أصبح لا يردُّ لي عوائي
 سوى دمٍ من الوريد ينضخُ.
 وكيف لو أفقتُ من رقادي المخدَّرِ
 على صدى الصور، على القيامة الصغيرة:
 يحمل كلُّ ميتٍ ضميره
 يشعُّ خلف الكفن المدترَّ،
 يسوق عزرائيلُ من جموعنا الصَّفر إلى جزيره
 قاحلةٍ يقهقه الجليدُ فيها،
 يصفر الهواء في عظامنا ويبكي.

ماذا لو أَنَّ الموتَ ليس بعده من صَحْوَه،
 فهو ظلامٌ عَدَمٌ، ما فيه من حسٍّ ولا شعور!
 أكلُّ ذاك الأُنسِ، تلك الشَّقْوَه
 والطمعِ الحافرِ في الضميرِ
 والأملِ الخالقِ من توثُّبِ الصغِيرِ
 أَلَفَ أَبِي زَيْدٍ تفور الرغْوَه
 من خيله الحمراء كالهجير...
 أكلُّها لهذه النهايه؟
 تُرى الحِمَامُ للحياة غايه؟

إقبالُ يا زوجتي الحبيبة
 لا تعذِّليني ما المنايا بيدي
 ولستُ، لو نجوتُ، بالمخلَّدِ.
 كوني لغيلان رضى وطيه
 كوني له أباً وأماً وارحمي نحييه
 وعَلَميه أن يُذيلَ القلبَ لليتيم والفقير
 وعلميه...
 ظلُّمةُ النعاسِ

أهدأبها تمس من عيوني الغريبه
 في البلد الغريب، في سريري
 فترفع اللهب عن ضميري...
 لا تحزني إن متُّ أيُّ باسٍ
 أن يُحطَمَ الناي ويبقى لحنه حتَّى غدي؟
 لا تبعدي
 لا تبعدي
 لا...

بيروت 1962/4/19

وكم ناديت في أيام سُهدي أو لياليه:
 "أيا أي، تعلم فالمي سائي" واسفيني".
 يُنث الشج، والغربان تنقب من طوى فيه،
 وبين سريري المبتلة حتى القناع بالأطمار
 وقبرك، تهدر الدنهار
 وتصكنب البحار الى القرار ينضها الدعصار.

أما حملت اليك الريح عبر مكينة الليل
 بكاء هفديتك من الطوى وهفديك الجوعان؟
 لقد جعنا وفي صمت حملنا الجوع والحرمان
 ويمتلك سرتنا الأطفال ينتحبون من ويل.
 في الولحة الذي آواك جوع؟ أيما أحران
 تورق أعين السموات؟



ISBN 978-9-9226348-2-1



9

789922

634821

www.daralrafidain.com
 info@daralrafidain.com
 daralrafidain
 dar.alrafidain
 dar alrafidain دار الرفدين